الامام علي بن الحسين السجاد عليه السلام

«بناء الذات الانسانية»

الشيخ كاظم ياسين

اسم الكتاب : الامام علي بن الحسين السجاد عليه السلام
اعداد : الشيخ كاظم ياسين
طباعة : دار الوارث للطباعة والنشر
الطبعة : الاولى
سنة الطبع : ٢٠٢٢ م - ١٤٤٤ هـ
التصميم والاخراج الفني: يوسف حمزة الخفاجي

الإهداء

إهداء .. الى سـيدي ومولاي علي بن الحسـين بن علي السجاد (عليه السلام) حين تحلقُ الروحُ ، حمامةً بلا هدي تقلِّبُها رياحُ الفكرِ والأسـئلةِ وعواصف الحياةِ العاتيةِ .. لا تجدُ في أقاصيها من دانٍ سوى واحةِ علمِكَ الوارفةِ تتفيّأُ ظلالَها وتنعم بالسـكينةِ والرضا .. إلى أفيائك سـيدي ، جهد خادمك الفقير .. طاعة ومحبة ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين محمد وعلى آله المنتجبين الأخيار. إن من دواعي الفخر و الاعتزاز، أن نتشرف بخدمة الإمام الهمام السجاد البكّاء، ذي الثفنات علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) جميعاً .

إن إقامة مهرجان تراتيل سجادية منذ ثماني سنوات بكل فقراته وتفاصيله تصبّ في هذه الخدمة العظيمة والتشجيع على كتابة المؤلفات وطباعتها ضمن هذه الفقرات، كذلك تشجيع الطلبة الذين يسعون الى نيل شهادة الماجستير و الدكتوراه في علوم شتى للكتابة عن سيرة و جهاد وعلوم الامام زين العابدين (عليه السلام) ، و تتكفّل ادارة المهرجان وبدعم لا محدود من قبل المتولّي الشرعي للعتبة الحسينية المقدسة الشيخ عبد المهدي الكربلائي، بالطباعة و الترويج لهذه المؤلفات .

ندعو الجميع للإفادة من فضائل الامام (عليه السلام) للكتابة في حياته وريادته في أمور شتى نذكرمنها :

في الوقت الذي كانت قصور ملوك بني امية تعج بالعبيد والأرقّاء من النساء والرجال، كان الإمام السجاد (عليه السلام) يحررهم في كل مناسبة كالأعياد و شهر رمضان و كان معروفًا عنه بأنه محرر العبيد ومواقفه الانسانية لا تعدّ ولا تحصى، منها موقفه مع هشام بن اسماعيل المخزومي وقضية مروان بن الحكم تدل على إنسانية لا مثيل لها .و من أولى من الامام بحقيقة الاسلام و نهجه وجوهرة؟

كان يخرج ليلا يحمل أكياس الزاد ليوزعها على الفقراء سرّاً لا علانية .قال سعيد بن المسيّب ت ٩٤ هـ : « كان القراء لا يخرجون الى مكة إلا اذا

خـرج عـلي بـن الحسـين (عليه السلام) . فخـرج و خرجنـا معـه ألـف راكـب ». والتعبـير الحديـث لكلمـة القـراء في هـذا الزمـان تعنـي المثقـف .

و مـا الصحيفـة السـجادية و رسـالة الحقـوق و المناجـاة الخمـس عـشرة إلا كنـوز أورثهـا الامـام للأجيـال لتصحيـح مسـارات الاسـلام و تقويـم الانحرافـات التـى سـعي اليهـا ملـوك بنـي أميـة .

و نضـع بـين أيديكـم هـذا المؤلـف ، مـن نتـاج مهرجـان تراتيـل سـجادية الثامـن ، ومـن الله التوفيـق .

جمال الدين الشهرستاني

رئيس اللجنة التحضيرية لمهرجان تراتيل سجادية

محرم الحرام/ ١٤٤٤هـ

آب/ ٢٠٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بعد أن تجمعت ذرية إسماعيل، التي انتشرت في البطاح قروناً، وسكنت حول الكعبة، في قلب الحرم، فكانت قبيلة قريش التي اكتسبت، إضافة إلى مزية أنها ذرية إسماعيل وإبراهيم، صفاتٍ جعلتها مقدسة عند العرب، فقد سمّت نفسها أهل الحرم، ثم أهل الله، وبسبب البيت وعبادة الأصنام وتجارتها الدولية، أصبحت الأغنى والأثرى، وبسبب بقائها في الوادي حول الكعبة أصبحت الأكثر عدداً، وبسبب ما عقدته مع العرب، من إيلاف، كانت شخصيتها نافذة وإرادتها لا تُرد فكان لأفرادها حيالها عصبية هي من أعلى العصبيات، فقد شيبت بالقداسة والاحترام البالغ.

وكان من قريش أوائل من أسلم، ولكنّ عصبيته لقريش بقيت كامنة في نفسه، اختلطت بالإسلام ولم يستطع طوال عهد الإسلام وما بعد وفاة النبيّ الفصل بين العصبية القبلية لقريش وانتمائه إلى الدين الجديد، ولذلك وصفهم الله تعالى بالذين في قلوبهم مرض، باستثناء الحزب الذي مثله رسول الله وعلي بن أبي طالب ومن سمّيَ في تلك المرحلة المبكرة بشيعة علي. فقد اعتنقوا الإسلام بدون أن يكون مرهوناً في قلوبهم لنزعة العصبية. وشكّل هؤلاء مع أولئك حزب المهاجرين الذي، مع أنه تآخى في المدينة مع بعضه البعض، إلا أنه كان يختزنُ تميُّزاً جوهرياً بين حزبين: حزب الإسلام الصافي وحزب الإسلام القرشي(الذين في قلوبهم مرض).

لقد حاول حزب الإسلام القرشي والذي كانت نواته من المهاجرين أن يبرز نفسه في كل صغيرة وكبيرة من مواقف وأحداث إلا أن هذا الحزب خضع لمعادلة القوة التي شكّلها الأنصار داعمين للنبيﷺ وغير المنتمين للعصبية القرشية. وإلى فتح مكة، كان حزب الأنصار وحليفة الحزب الشيعي، هو أقوى تكتّل يمثل الاتجاه النبوي، بينما كان حزب المهاجرين ضعيفاً ولم

يستطع أن يستفيد من انضواء قبائل الإيلاف تحت راية الإسلام، لأن الذي يجمع قبائل الإيلاف ويقويها هو قريش التي لمّا تُسلم بعد.

وبعد فتح مكة انقلبت الموازين، فقد انضمت قريش بعديدها ووزنها وثرائها ووجاهتها عند العرب وإيلافها إلى معسكر الإسلام، فقوي حزب المهاجرين القرشي بانضمامها، وقويت به معنوياً، فهو يمثل المهاجرين القدامى أصحاب السمعة والمسلمين الأوائل، ووجدت قبائل الإيلاف المنضوية تحت راية الإسلام من يلأمها ويقودها، فنشأ التحالف الأقوى: قريش، والمهاجرون من قريش، وقبائل الإيلاف، بينما ضعُف الحزب المقابل «حزب الأنصار والحزب الشيعي»، وأصبح وجهاً لوجه أمام تلقيه الضربة الكبرى يوم وفاة النبيّ حينما نجح تحالف قريش والمهاجرين وقبائل الإيلاف والذين انضم إليهم قبيلة الأوس من الانصار، في الاستيلاء على السلطة، ثم نجح في قيادة الدولة في حروب الردّة، ثم قام بخطوته التاريخية الكبرى، التي وحّدت حوله قبائل العرب، وهي الفتوحات التي نقلت أمة العرب من الدونية والفقر إلى ذروة السؤدد، وفي أقل من قرن استطاعت هذه الأمة أن تصل إلى أسبانيا وإلى أقاصي الشرق، بينما كان ينعدم دور الخزرج، ولا يبقى في الميدان سوى الحزب الشيعي الذي كان دوره يتضاءل تدريجياً، لولا الخطأ الذي ارتكبه عمر حينما ركّب الشورى بحيث يستبعد علي عليه السلام وتؤول الخلافة إلى عثمان، فكانت سياسة عثمان خلافاً لما كان يريده عمر من سياسة مزدوجة بين الإسلام وقريش، فقد مثّل عثمان الاتجاه الأموي الخالص، فقتلته الأمة وجاءت بالخلافة إلى علي بن أبي طالب عليه السلام. لأنه يمثّل الوعد النبوي بدولة العدالة والإنصاف والمساواة، ولا تسيطر فيه قريش على مقدرات الأمة.

كان مجيء علي عليه السلام انتكاسة لمشروع التحالف بين قريش والمهاجرين وقبائل الإيلاف. فقد حاول عليٌ عليه السلام بناء الدولة المتناسبة مع الخط النبوي،

القائمة على العدالة والمساواة وحكومة الإسلام والقرآن والسنة النبوية، لكنّ مشروعه تأخر، فقد كان عمر بن الخطاب الذي أصبح سيد العرب الأول بسبب الفتوحات، قد دعم وتغاضى عن قيام دولة معاوية في الشام وحماها، تلك الدولة التي اعتبرها علي بن أبي طالب عليه السلام مشروعاً لتهديم الإسلام، فصرف جهده لإزالتها، إلا أن الأوان قد فات، فقد أصبحت هذه الدولة أول وأقوى دولة إرهابية في تاريخ الإسلام، تستندُ أولاً إلى عرّابها عمر بن الخطاب، وثانياً إلى قوة مالية هائلة احتفظ بها معاوية في خزائنه في دمشق، فنشأت تحت رايته كتلةٌ شامية صلبة، فسوف نرى جيشها الأموي يصول ويجول في أرجاء العالم الإسلامي، فيقمع ثورة البربر في أفريقيا، وثورات الحجاز والعراق، وخراسان، ويساهم في نفس الوقت في حركة الفتوحات، ويرابط في قبرص وجزيرة كريت، حتى قيل إن معظم السوريين كانوا جنوداً في الجيش الأموي، بينما كانت أصقاع العالم الإسلامي تعيش الفرقة والانقسام والضعف، فاستطاعت دولة معاوية التحكّم بمصير الأمة، واضطر الإمام الحسن للتنازل تحت ضغط انهيار موازين القوى لمصلحة معاوية، وانتقلت هذه الدولة إلى يزيد الذي حاول الإمام الحسين أن يهزّه، فكانت شهادته في كربلاء.

بعد أن انتهت المرحلة الأولى بوقعة كربلاء وشهادة الإمام الحسين عليه السلام وبعد أن تحدثنا في كتابينا (تاريخ سيد الأوصياء الإمام علي بن أبي طالب) عليه السلام و(تاريخ السبطين، الحسن والحسين) عليهما السلام، عن ظروف ومجريات هذه المرحلة، التي صنفناها «أولى»، بسبب وحدة ظرفها السياسي والديني والحضاري والثقافي، ووحدة أساليب عمل أئمة أهل البيت وخطابهم وشعاراتهم، وبعد أن كانت معركة كربلاء تتويجاً لها، وبعد أن لاحظنا منهج وأسلوب ائمة أهل البيت زين العابدين والباقر والصادق عليهم السلام يتحد ويتماهى عندهم مع

بعضه البعض، وبعد أن كانت مرحلة عملهم الممتدة من سنة ١٦ هجرية إلى سنة ٨٤١ هجرية تتقارب في ظروفها السياسية والأمنية والدينية والسياسية، كان من المناسب، في سبيل قراءة تاريخهم قراءة صحيحة، تحل بها الشبهات ويجاب بها على الإشكالات، أن نعتبر هذه المرحلة (ثانية) متحدة في موضوعها ومتعلقها وسياقها السياسي والأمني والثقافي والديني والمذهبي. فقد كان الائمة الثلاثة عمادة أهل البيت في هذه المرحلة، حيث بدأت تنفصل الكتلة الشيعية عن سواد عموم المسلمين، وبدأت تتميز عما عرف بأهل السنة والجماعة، وأخذت تشكل حالة معارضة سياسية للدولة التي احتكرها قياصرة وأكاسرة بني أمية وبني العباس، ثم تمتد بعدهم لتبقى معارضة لكل أشكال الإرهاب السلطوي التي جسدها ملوك وأباطرة المماليك والعثمانيين. هذه المعارضة التي ميّزت الكتلة الشيعية عن بقية المسلمين الذين كانوا يشكلون جمهور العامة، طائفة «السلطان».

ويعد الامام زين العابدين عليه السلام عميد أهل البيت عند عامة المسلمين وأستاذ هذه المرحلة، ثم الإمام محمد الباقر عليه السلام ومن بعده ولده الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وكانوا يتمتّعون بحبّ واحترام جميع المسلمين، الذين كان كثير منهم في الفترات اللاحقة ومن جملتهم الكثير من جمهور العامة يعتقدون أن أئمة أهل البيت أحق بالخلافة من الخلفاء الذين عاصروهم، ويقولون: إن الإمام الحسن والإمام الحسين والإمام زين العابدين والإمام الباقر كانوا أحقّ بالخلافة وأهلها: «وكذلك جعفر الصادق عليه السلام كبير الشأن من أئمة العلم كان أولى بالأمر من أبي جعفر المنصور، وكان ولده موسى عليه السلام كبير القدر جيّد العلم أولى بالخلافة من هارون»[1]. وبلغ الأمر حداً جعل الخلفاء وعلماء البلاط يشعرون بالخطر المحدق بهم من حضور ذكر أهل البيت في الساحة الإسلامية.

١- سير أعلام النبلاء، ج١٣ص١٢١. كتاب السُنة، ج١ ص٢٣٨.

وكان قائد ورائد الطور الأول من المرحلة الثانية هو الإمام الرابع من أئمة أهل البيت، علي بن الحسين، زين العابدين عليه السلام، أبو محمد، أو أبو الحسن، أو أبو القاسم، سيد العابدين، السجاد، ذو الثفنات[١]، ويمتد هذا الطور من أوائل عودة الإمام من كربلاء إلى أواخر حياته عندما استشهد سنة ٤٩ أو ٥٩ هجرية.

ولد عليه السلام بالمدينة يوم الجمعة أو يوم الخميس، في النصف من جمادى الآخرة[٢] وقيل: لتسع خلون من شعبان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة [٣]، وقيل: سنة ست وثلاثين[٤]، وقيل: سنة سبع وثلاثين[٥]، واسم أمه شاه زنان، وقيل شهربانويه، وكان أمير المؤمنين عليه السلام ولّى حريث بن جابر الحنفي جانبا من المشرق فبعث إليه ببنتي يزدجرد ابن شهريار، فنحل ابنه الحسين عليه السلام إحداهما، ثم قال له: يا أبا عبد الله، لتلدن لك خير أهل الأرض، فولد علي بن الحسين عليه السلام[٦]، ونحل الأخرى محمد بن أبي بكر فولدت له القاسم بن محمد بن أبي بكر، فهما ابنا خالة [٧].

١- الارشاد، ج٢ ص١٣٧. مناقب آل أبي طالب، ج١١ ص٢٦٠. وج٣ ص٣٠٤. ج٤ ص ١٧٥. كشف الغمة، ج٢ ص ٣١٧،٢٨٦،٧٤. العدد القوية ص٧٠، ٥٨. دلائل الإمامة ص١٩٣،٨٠. تذكرة الخواص ص٢٩١. الفصول المهمة في معرفة الأئمة، ابن الصباغ المالكي ص٢٥١.

٢- مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٣١٠. ج٤ ص ١٧٥. روضة الواعظين ص٢٠١. بحار الأنوار، ج٤٦ ص ١٤،١٣،١٢ إلى٢٧. ج٩٥ ص ١٩٢.

٣- مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٣١٠،ج٤ ص ١٧٥. روضة الواعظين ص٢٠١. كشف الغمة، ج٢ ص٧٣. الفصول المهمة في معرفة الأئمة ص٢٠١.

٤- العدد القوية ص٥٥، ٦٧. روضة الواعظين ص٢٠١. اقبال الأعمال، ج٣ ص١٥٦.

٥- مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٣١٠ وج ٤ ص ١٧٥. تذكرة الخواص ص٢٩١. كشف الغمة، ج٢ ص٣١٧.

٦- الكافي، ج١ ص٤٦٦. إثبات الوصية، المسعودي ص١٤٥. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني، ج١ ص٣٤٧. بصائر الدرجات ص٣٥٥،٣٣٥. بحار الأنوار، ج٤٦ ص١٩.

٧- الارشاد، ج٢ ص١٣٧. مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٢٠٨،ج٤ ص١٧٦. روضة الواعظين، ج١،ص٢٠. كشف الغمة، ج٢،ص١٣٧،٨٣. العدد القوية ص٧٣،٥٦.

استشهد يوم السبت في الثاني والعشرين، وقيل لاثنتي عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة خمس وتسعين من الهجرة[١]، وهو ابن سبع وخمسين سنة[٢]. وقيل في ثامن عشر[٣]، أو في الخامس والعشرين[٤] من المحرم سنة أربع وتسعين[٥]. ويقال: سمه هشام بن عبد الملك[٦]، او الوليد بن عبد الملك[٧]. وأنه كان في أيام إمامته بقية ملك يزيد بن معاوية، وملك معاوية بن يزيد، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، وتوفي عليه السلام في ملك الوليد بن عبد الملك[٨]. ودفن بالبقيع مع عمه الحسن عليهما السلام[٩]. وكانت مدة إمامته بعد أبيه الحسين أربعا وثلاثين، أو خمسا وثلاثين سنة[١٠].

واتفقت الإمامية على أن رسول الله صلى الله عليه وآله نص على إمامته في الأخبار التي تنص على الأئمة الاثني عشر من آل بيت وتعينهم، ومنها حديث اللوح الذي رواه جابر عن النبي صلى الله عليه وآله[١١] ورواه جابر بن يزيد الجعفي، عن الباقر، عن أبيه،

١- بحار الأنوار، ج٤٦ ص١٥٢، ١٥٣.

٢- بحار الأنوار، ج٤٦ ص١٥٢، عن الكافي، ج١ ص٤٦٨.

٣- كفاية الطالب، الكنجي الشافعي ص٣٠٦، طبع النجف سنة ١٣٥٦ والموجود فيه: توفى بالمدينة سنة ٩٥ وله يومئذ ٥٧ سنة.

٤- المصباح، الكفعمي ص٥٠٩. مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي ص٥٥١.

٥- بحار الأنوار، ج٤٦ ص١٥٣.

٦- بحار الأنوار، ج٤٦ ص١٥٢، ١٥٣.

٧- الفصول المهمة في معرفة الأئمة ص ١٩٤.

٨- الارشاد، ج٢ ص١٣٨. مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٣١١،ج ٤ ص ١٧٥. دلائل الإمامة ص١٩١،٨٠، ١٩٢.

٩- الكافي، ج١ ص٤٦٦. الارشاد، ج٢ ص١٣٨. مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٢٠٧، ج٤ ص١٧٥. روضة الواعظين، النيسابوري ص٢٠١، دلائل الإمامة ص١٩٢. تذكرة الخواص ص٢٩٩.

١٠- بحار الأنوار، ج٤٦ ص١٥٢، عن الكافي، ج١ ص٤٦٨.

١١- الكافي، ج١ ص٤٤٢. عيون أخبار الرضا، ج٢ ص٥١،ج١ ص٤٥ كتاب الغيبة، النعماني ص٦٢. الاختصاص ص٢١٠. الأمالي، الشيخ الطوسي، ج١ ص٢٩٧. الغيبة، الشيخ الطوسي ص١٤٣وص ١٠٨. اثبات الوصية ص١٤٣. بحار الانوار، ج٣٦ ص١٩٢،٢٠٣.

عن جده عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله[١]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين زين العابدين؟ فكأني أنظر إلى ولدي علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يخطر بين الصفوف[٢]. كذلك نص عليه بالامامة أبوه الحسين عليه السلام[٣]، وجده أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته إلى الحسن عليه السلام، وعندما نص على الأئمة الاثني عشر من آل بيت محمد صلى الله عليه وآله وتعيينهم. وروي النص عليه عن الباقر عليه السلام[٤]، والصادق عليه السلام[٥]. وأنه كان بذلك إماما للمؤمنين[٦]. ثم إن الإمام زين العابدين عليه السلام دعا إلى إمامة نفسه في كثير من أقواله وتصريحاته ومنها قوله: نحن أبواب الله، ونحن الصراط المستقيم، ونحن عيبة علمه، ونحن تراجمة وحيه، ونحن أركان توحيده، ونحن مواضع سره[٧]. وأما ما نقل عن أهل العامة من الثناء على الإمام زين العابدين فهو في حقبات متأخرة مئات السنين، ولا يدل على حقيقة موقف العامة في ايامه عليه السلام، فقد قال الذهبي في ترجمته عليه السلام: السيد الإمام، زين العابدين، وكان له جلالة عجيبة، وحق له ذلك، فقد كان أهلا للإمامة العظمى: لشرفه، وسؤدده، وعلمه، وتألهه، وكمال عقله[٨].

١- كمال الدين وتمام النعمة ص٣١٣،٣١٢،٣١١،٣٠٥. اثبات الوصية ص٢٢٧.

٢- الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٢٧٢. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٣، ج ٤٦ ص٢. عوالم العلوم ص١٧. علل الشرائع، ج١،ص٢٢٩. تاريخ مدينة دمشق، المحمودي ص٢٦ الحديث ٣٤ من ترجمة الإمام زين العابدين عليه السلام ومختصره، ابن منظور، ج١٧ ص٢٣٤. الصواعق المحرقة ص١٢٠. لسان الميزان، ج٥ ص١٦٨.

٣- الغيبة ص١١٨. الكافي، ج١ ص٢٤٢، الحديث٣.

٤- الكافي، ج١ ص٣٠٣،٢٤١. بصائر الدرجات ص١٨٣،١٦٨، مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص١٧٢. اثبات الوصية ص١٤٢،١٦٤.

٥- الكافي، ج١ ص٢٩٨، ٣٠٠. الغيبة ص١٩٥ و١٥٩. مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٣٠٨، ج٤ ص ١٧٢. بحار الانوار، ج٤٦ ص١٩. مستدرك سفينة البحار، ج٥ ص١٤٠. إعلام الورى بأعلام الهدى، ج١ ص٤٨٣.

٦- أوائل المقالات ص٤٧. الكافي، ج١،ص٢٤٢. الإمامة والتبصرة ص١٩٣، الباب١٠. كفاية الأثر، الرازي ص ٢٣٠، ٢٣٥. الغيبة ص١٩٦،٥. إثبات الهداة، الحر العاملي، ج٣ ص٣٢. الإفصاح ص٢٣١.

٧- معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص٣١.

٨- سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٩٨.

وقال المناوي: زين العابدين، إمام، سند، اشتهرت أياديه ومكارمه، وطارت بالجو في الوجود حمائمه، كان عظيم القدر، رحب الساحة والصدر، رأسا لجسد الرئاسة، مؤملا للإيالة والسياسة[١].

وقال الجاحظ: أما علي بن الحسين بن علي: فلم أر الخارجي في أمره إلا كالشيعي، ولم أر الشيعي إلا كالمعتزلي، ولم أر المعتزلي إلا كالعامي، ولم أر العامي إلا كالخاصي، ولم أجد أحدا يتمارى في تفضيله ويشك في تقديمه[٢]، وقال الجاحظ أيضا: وأما علي بن الحسين عليه السلام فالناس على اختلاف مذاهبهم مجمعون عليه لا يمتري أحد في تدبيره، ولا يشك أحد في تقديمه[٣] وقد ترجم له عليه السلام أعلام العامة فلم يذكروه إلا بالسيادة والشرف، والتقى والعلم، والعبادة والفضل، والحلم والكرم، والتدبير والحكمة، وكثير منهم وصفه بالإمامة[٤].

الإمام زين العابدين عليه السلام جريء ومقاتل:

لقد كان الإمام علي بن الحسين عليه السلام، القائد الأول لمسيرة المنظومة الإلهية لأهل البيت بعد كربلا، جريئاً ومقاتلاً! وليس رجلاً ضعيفاً خائر القوى شغله البكاء والدعاء! فقد حضر في معركة كربلاء، إلى جانب والده الإمام الحسين عليه السلام، ويمكن أن يكون هو المقصود في المصادر في بعض الحوارات التي وقعت بين الحسين عليه السلام وولده(علي) في بعض رحلة الطريق! والذي اشتهر أنه هو الأكبر[٥]، والأقوى أنه لم يكن عليلاً طوال الطريق، لأن هناك أخبار

١- الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية والطبقات الصغرى، ج٢ ص١٣٩.

٢- عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، ج٣ ص١٩٤ عن رسالة الجاحظ في فضل بني هاشم. العلم الشامخ في تفضيل الحق على الاباء والمشايخ ص١٠.

٣- كشف الغمة عن رسالة الجاحظ، ج١ ص٣١.

٤- الطبقات الكبرى، ج٥ ص٢١١. المعارف، ابن قتيبة الدينوري ص٢١٤. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٣ ص١٣٣. تذكرة الحفاظ، ج١ ص٧٤. تهذيب التهذيب، ج٧ ص٣٠٤. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١ ص٢٢٩.

٥- شرح الأخبار، القاضي، ج٣ ص٢٦٥،٢٦٦. الإرشاد، ص٢٥٣. السرائر، ابن إدريس، ج١ ص٦٥٥.

تـدل عـلى أنه قاتل يوم عاشـوراء إلى أن جرح، ففي كتاب (تسـمية من قتل مع الحسـين عليه السلام من أهل بيته وإخوته وشـيعته) الذي جمعه المحدث الزيدي الفضيل بن الزبير، وهو من أصحاب الإمامين الباقر والصادق، قال:» وكان عـلي بن الحسـين عليلاً، وارتث، يومئذ، وقد حضر بعـض القتال، فدفع الله عنه، وأخذ مع النساء». وورود إسم الإمام زين العابدين في هذا الكتاب يدل، قبـل كل شيء، على أن المذكورين في الكتاب لم يقتلوا جميعا، بل بعضهم من أسر، ومن فر، ومن قتل قبل كربلاء، وهذا خلاف عنوان الكتاب، مما يجعلنا نظن أن سـقطاً طال العنوان وأنه(قاتل) بـدلاً من(قتل)[١]، لأنه يصرّح بأن الإمام علي بن الحسـين عليه السلام قاتل عندمـا قال إنه حضر بعض القتال، وارتث! لأن كلمة(ارتـث) تقـال لمن حمل من المعركة، بعد أن قاتل، وأثخن بالجراح، فأخرج من أرض القتال وبه رمق، كما صرح به اللغويون. فقد قال في لسان العرب: والمُرتثُّ: الصريع الذي يُثخنُ في الحرب ويُحملُ حياً ثم يموت، وقال ثعلـب: هو الذي يُحملُ مـن المعركة وبه رَمق، فإن كان قتيلاً فليس بمُرتثّ. وفي التهذيـب: يقـال للرجل إذا ضُربَ في الحرب فأُثْخِـنَ، وحُملَ به رمق ثم مات: قد ارتثّ فلانٌ، وهو افْتُعل، على ما لم يُسَمَّ فاعله، أي حُمِل من المعركة رثيثاً أي جريحاً وبه رمق[٢]. ويقوّي اشتراك علي بن الحسين زين العابدين في معركة الطف أن ابن شهرآشـوب ذكر أن أم علي بن الحسـين الأكبر هي شهربانويه![٣] وهي في الحقيقة ليلى العامرية أو برة بنت عروة الثقفي، وأما شهربانويه، فهي أم علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام! والإشتباه بين علي بن الحسـين وعلي بن الحسـين أقرب واسهل بكثير من الإشتباه بين شهربانويه وليـلى! مـا يجعلنا نقوّي الظن بأن علي بن الحسـين زيـن العابدين عليه السلام قاتل

١- تسمية من قتل مع الحسين عليه السلام، مجلة (تراثنا) العدد الثاني ص ١٥٠.

٢- المرتث، المغرب، المطرزي، ج١ ص١٨٤. راجع القاموس، ج١ ص١٦٧. لسان العرب، ج٥ ص١٣٥.

٣- مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص١١٨.

في كربلاء[١]. وروى أحمد بن حنبل أن سبب مرض زين العابدين عليه السلام أنه كان ألبس درعا، ففضل عنه، فأخذ الفضلة بيده ومزقها[٢]. ما يعني أنه كان يستعد للحرب، وأن قعوده عنها بعد ذلك إنما كان سببه أنه أصيب بالمرض بعد اشتراكه أول مرة في القتال وبعد أن ارتث وجرح، فيكون عدم الإذن له في القتال إنما وقع بعد أن جرح ومرض، ربما نتيجة الجراحة.

في مواجهة يزيد.

سئل الإمام علي بن الحسين عليه السلام عن الكلام والسكوت، أيهما أفضل ؟

فقال: لكل واحد منهما آفات، وإذا سلما من الآفات، فالكلام أفضل من السكوت! فقيل: وكيف ذاك يا بن رسول الله؟

قال: لأن الله عز وجل ما بعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت، وإنما بعثهم بالكلام. ولا استحقت الجنة بالسكوت. ولا استوجبت ولاية الله بالسكوت. ولا توقيت النار بالسكوت. ولا يجنب سخط الله بالسكوت. إنما كله بالكلام ! وما كنت لأعدل القمر بالشمس ! إنك تصف فضل السكوت بالكلام، ولست تصف فضل الكلام بالسكوت[٣]!

وكان الإمام يعلن، وهو في أسر بني أمية: «أيها الناس ! إن كل صمت ليس فيه فكر فهو عي، وكل كلام ليس فيه ذكر فهو هباء. ألا، وإن الله تعالى أكرم أقواما بآبائهم، فحفظ الأبناء بالآباء، لقوله تعالى: «وكان أبوهما صالحاً[٤] فأكرمهما. ونحن، والله، عترة رسول الله صلى الله عليه وآله، فأكرمونا لأجل رسول الله، لأن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: احفظوني في عترتي وأهل بيتي، فمن حفظني حفظه الله، ومن آذاني فعليه لعنة الله، ألا، فلعنة الله على من آذاني

١- مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص٨٥.

٢- مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٢٨٤ وط دار الأضواء، ج٤ ص١٥٥. العوالم ص٣٢.

٣- الاحتجاج ص٣١٥.

٤- القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية٨٢.

فيهم! حتى قالها ثلاث مرات. ونحن، والله، أهل بيت أذهب الله عنا الرجس والفواحش ما ظهر منها وما بطن[١]...

لقد كانت مرحلة الأسر أول وأبرز مظاهر المعارضة السياسية، وباكورة عمل الإمام زين العابدين عليه السلام، والتي بها شرع في أعظم عملية نخر للنظام الأموي، هي وما رافقها من أنشطة الدعاية السياسية طوال أربعين يوماً من أجل نثر دم الحسين عليه السلام، المسفوك في الغربة، في كل المناطق الإسلامية، من كربلاء إلى الكوفة إلى الشام إلى المدينة ومع أوسع عدد من الناس.

وكانت فترة الأسر قصيرة جداً إلا أنها كانت استكمالاً للشهادة الحسينية في كربلاء، واتسمت بالعنف والصلابة والحدّة والثورية الهادرة، فلا يسكت على حديث مهما كان صغيراً، ويردّ أمام الملأ بأجوبة تزلزل أركان العدو، ابتداءً من سوق الكوفة حيث قام هو وعمته زينب عليها السلام، وبرباطة جأش تجاوزت الفجيعة والمأساة، بتنوير الناس وإفشاء الحقائق. وفي الشام في مجلس يزيد، أو في المسجد الجامع، وأمام جميع الناس، يبين الحقائق بأبلغ بيان، فتضمنت خطبه وكلماته حقانية أهل البيت عليهم السلام في الخلافة وأفشت جرائم النظام الأموي، وبينت مدى التخدير الشديد الذي يمارسه النظام ضد الناس الغافلين، وشرحت أهداف ثورة الإمام الحسين، إذ أن معرفة الناس بقتل الحسين عليه السلام ولماذا قتل وكيف قتل سوف تؤثر على مستقبل الإسلام ومستقبل دعوة أهل البيت عليهم السلام.

تمكّن الإمام عليه السلام أن يكسر الحواجز، ويهدم الموانع التي فرضتها السلطة الطاغية، ويخترق الحواجز الإعلامية المفروضة على الناس، ويبيِّن الحقائق التي أُخفيت عليهم. سواء كانوا ساذجين، قلب الظالمون الأمر عليهم، فيواجههم برحابة صدره، كما حصل مع الشيخ الشامي الذي حمد الله على

١- بلاغة علي بن الحسين عليه السلام ص٩٥ عن المنتخب، الطريحي.

قتل الحسين عليه السلام وأهله! أو غيرهم مثل ما تكلّم الإمام عليه السلام مع مكحول صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله[١] أو منهال[٢]. فقد تمسّك الإمام عليه السلام بالقرآن، واستدل به، فهو أحسن طريق للاحتجاج به في هذا الظرف، لأن دولة معاوية منعت نشر الأحاديث التي فيها تفسير الآيات التي تدل على فضل ودور ومنزلة اهل البيت عليهم السلام منعاً كاملاً، كما وضعوا في قبالها أحاديث في شأن مبغضيهم! وحينما يسمع الشامي آيات قرآنية نازلة في شأن آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، كآية التطهير، والمودّة في القربى وغيرها، يرجع إلى فطرته، ويقول: أللهم إني تائب إليك مما تكلمته ومن بغض هؤلاء القوم، اللهم إني أبرأ إليك من عدوّ محمّد وآل محمد من الجنّ والإنس[٣].

ولم يتحمّل يزيد ذلك فأمر بقتل ذلك الشامي[٤].

وفي الشام وقف الإمام زين العابدين عليه السلام في مواجهة الطاغوت ومجابهته، وكسر كبريائه وسطوته، وقابله وهاجمه بقوة الإيمان وصلابة البيان: أنشدك بالله يا يزيد ما ظنّك برسول الله صلى الله عليه وآله لو رآنا مقرّنين في الحبال؟ أما كان يرقّ لنا؟ فأمر يزيد بالحبال فقطعت وعرف الانكسار فيه[٥]. فلم يبق في القوم إلا من بكى[٦]. وحينما تمثل يزيد، المدّعي خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، ببيت لشاعر

١- الاحتجاج، ج٢ ص٢٥٨. عنه بحار الأنوار، ج٤٥ ص١٦٢، وج٤٦ ص٣٢١. مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص١٨٢.

٢- تفسير القمي، ج٢ ص١٣٤. الفتوح، ابن أعثم، ج٢ ص١٨٧. تفسير فرات الكوفي ص١٤٩. مقتل الحسين، الخوارزمي، ج٢ ص٧١. بحار الأنوار، ج٤٥ ص١٣٠ وج٤٦ ص٣٢١. مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص١٢٨.

٣- الفتوح، ابن أعثم، ج٥ ص١٣٠. تفسير فرات الكوفي ص١٥٣، ح١٩١. الأمالي، الصدوق: ص٢٣٠. روضة الواعظين، ج١ص١٩١. الاحتجاج، ج٢ ص٣٣. اللهوف في قتلى الطفوف ص١٠٢. مقتل الحسين عليه السلام، الخوارزمي، ج٢ ص٦١. بحار الأنوار، ج٤٥ ص١٥٥،١٢٩.

٤- بحار الأنوار، ج٤٥ ص١٢٩. اللهوف في قتلى الطفوف ص٢١١. تسلية المجالس، ج٢ ص٣٨٤.

٥- بحار الأنوار، ج٤٥ ص١٣٢. تذكرة الخواص ص٢٦٢. الكامل في التاريخ، ج٢ ص٥٧٨. تاريخ مدينة دمشق، ج١٩ ص٤٩٣. مثير الأحزان ص٧٨. اللهوف في قتلى الطفوف ص١٠٤، ٢١٣. جواهر المطالب، ج٢ ص٢٩٤.

٦- تذكرة الخواص ص٢٦٢. بحار الأنوار، ج٤٥ ص١٣٢. اللهوف في قتلى الطفوف ص١٠٤.

جاهلي يجيبه الإمام عليه السلام بآية قرآنية، فيثقل ذلك على يزيد[١]، ولم يجد إلا أن يلتجئ لآية شريفة في غير موقعها، فيثبت الإمام عليه السلام له وللجميع عدم فقهه بالقرآن وعدم دركه معناه[٢]، هذا وهو مدّعي الخلافة الإسلامية.

ثم أمر يزيد الخطيب، أن يذكر للناس مساوئ الحسين وأبيه علي عليهما السلام. فصعد الخطيب المنبر، وأكثر الوقيعة في علي والحسين عليهما السلام، وأطنب في تقريظ معاوية ويزيد. فصاح به علي بن الحسين عليه السلام: ويلك أيها الخاطب ! اشتريت رضا المخلوق بسخط الخالق؟ فتبوأ مقعدك من النار.

ثم قال: يا يزيد، إئذن لي حتى أصعد هذه الأعواد، فأتكلم بكلمات فيهن لله رضا، ولهؤلاء الجالسين أجر وثواب.

فأبى يزيد، فقال الناس: يا أمير المؤمنين، ائذن له ليصعد، فعلنا نسمع منه شيئا.

فقال لهم: إن صعد المنبر هذا لم ينزل إلا بفضيحتي وفضيحة آل أبي سفيان!

فقالوا: وما قدر ما يحسن هذا ؟

فقال: إنه من أهل بيت قد زقوا العلم زقا.

ولم يزالوا به حتى أذن له بالصعود. فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم خطب خطبة أبكى منها العيون، وأوجل منها القلوب، فقال فيها: أيها الناس، أعطينا ستا، وفضلنا بسبع: أعطينا العلم، والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة، والمحبة في قلوب المؤمنين. وفضلنا بأن منا النبي المختار محمداً صلى الله عليه وآله، ومنا الصديق، ومنا الطيار، ومنا أسد الله وأسد الرسول، ومنا سيدة نساء العالمين فاطمة البتول، ومنا سبطا هذه الأمة، وسيدا شباب أهل الجنة. فمن عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي: أنا ابن مكة ومنى. أنا ابن زمزم والصفا. أنا ابن من حمل الزكاة بأطراف الردا. أنا ابن خير من ائتزر وارتدى.

١-- المعجم الكبير، ج٣ ص١٠٩، ح٢٨٠٦. تاريخ مدينة دمشق، ج١٩ ص٤٩٣، سير أعلام النبلاء، ج٣ ص٣١٩. مجمع الزوائد، ج٩ ص١٩٥.

٢- تفسير القمي، ج٢ ص١٣٤، الفصول المهمة في معرفة الأئمة ص١٩٥.

أنـا ابـن خير من انتعل واحتفى. أنا ابن خير من طاف وسـعى. أنا ابن خير من حج ولبى. أنا ابن من حمل على البراق في الهوا. أنا ابن من أسري به من المسجد الحرام إلى المسـجد الأقصى، فسـبحان من أسرى. أنا ابن من بلغ به جبرائيل إلى سدرة المنتهى. أنا ابن من دنى فتدلى فكان من ربه قاب قوسين أو أدنى. أنا ابن من صلى بملائكة السـما. أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى. أنا ابن محمد المصطفـى. أنا ابن عـلي المرتضى. أنا ابن من ضرب خراطيـم الخلق حتى قالوا: لا إله إلا الله. أنا ابن من ضرب بين يدي رسـول الله بسـيفين، وطعن برمحين، وهاجـر الهجرتـين، وبايع البيعتين، وصـلى القبلتين، وقاتل ببـدر وحنين، ولم يكفـر بالله طرفة عين. أنا ابن صالح المؤمنين، ووارث النبيين، وقامع الملحدين، ويعسـوب المسـلمين، ونور المجاهدين، وزين العابدين، وتـاج البكائين، وأصبر الصابرين، وأفضل القائمين من آل ياسـين، ورسـول رب العالمين. أنا ابن المؤيد بجبرائيل، المنصور بميكائيل. أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين، وقاتل الناكثين والقاسـطين والمارقـين، والمجاهد أعداءه الناصبين، وأفخـر من مشى من قريش أجمعين، وأول من استجاب لله، من المؤمنين، وأقدم السابقين، وقاصم المعتدين، ومبير المشركين، وسـهم من مرامي الله على المنافقين، ولسـان حكمة العابدين، ناصر دين الله، وولي أمر الله، وبستان حكمة الله، وعيبة علم الله، سمح سخي، بهلـول زكـي أبطحي رضي مـرضي، مقدام همـام، صابر صـوام، مهذب قوام، شجاع قمقام، قاطع الأصلاب، ومفرق الأحزاب، أربطهم جنانا، وأطلقهم عنانا، وأجرأهم لسـانا، وأمضاهم عزيمة، وأشـدهم شكيمة، أسد باسل، وغيث هاطل، يطحنهم في الحروب، إذا ازدلفت الأسنة، وقربت الأعنة، طحن الرحى، ويذروهم ذرو الريح الهشيم، ليث الحجاز، صاحب الإعجاز، وكبش العراق، الإمام بالنص والاسـتحقاق. مكي مدني، أبطحي تهامي، خيفي عقبي، بدري أحدي، شـجري مهاجري، من العرب سيدها، ومن الوغى ليثها، وارث المشعرين، وأبو السبطين،

الحسن والحسين، مظهر العجائب، ومفرق الكتائب، والشهاب الثاقب، والنور العاقب، أسد الله الغالب، مطلوب كل طالب غالب كل غالب، ذاك جدي علي بن أبي طالب. أنا ابن فاطمة الزهرا. أنا ابن سيدة النسا. أنا ابن الطهر البتول. أنا ابن بضعة الرسول. أنا ابن الحسين القتيل بكربلاء. أنا ابن المرمل بالدما. أنا ابن من بكى عليه الجن في الظلمات. أنا ابن من ناحت عليه الطيور في الهوا. حتى ضج المجلس بالبكاء والنحيب[١]، فخشي يزيد أن تكون فتنة، فأمر المؤذن أن يؤذن، فقطع عليه الكلام وسكت. فلما قال المؤذن(الله أكبر!) قال علي بن الحسين عليه السلام: كبرت كبيرا لا يقاس، ولا يدرك بالحواس، لا شي أكبر من الله. فلما قال:(أشهد أن لا إله إلا الله !)، قال زين العابدين عليه السلام: شهد بها شعري وبشري، ولحمي ودمي، ومخي وعظمي.

فلما قال:(أشهد أن محمدا رسول الله !) التفت علي عليه السلام من أعلى المنبر إلى يزيد وقال: يا يزيد، محمد هذا جدي أم جدك ؟ فإن زعمت أنه جدك فقد كذبت. وإن قلت إنه جدي، فلم قتلت عترته؟[٢].

وهكذا! بضربة واحدة تبخرت كل الدعايات المضللة، التي روجتها السياسة الأموية، بحق الأسرى، وأنهم من الخوارج ! فتبدلت نشوة الانتصار إلى هزيمة! وكأنه أراد إحداث ملازمة تكشف التناقض بينه وبين الأمويين! فهم قد حصلوا على السلطة بخلط أنفسهم بالإسلام، فكسبوا قدسية الخلافة! فكيف يكون ابن رسول الإسلام أسير حرب في أيديهم؟! فسلّط الضوء في خطبته على دائرة جهل الناس بكيفية وصول الأمر إلى هذه الحالة، ومركزها جهل أهل الشام بأهل البيت عليهم السلام، وحقد الحاكم الأموي عليهم، والذي تجسد في قتل الحسين عليه السلام في كربلاء. ولا شك أن مبلغاً من الاحتياط كان يلف خطبته، فهو في قبضة يزيد الذي يمكن أن ينكل به وبالأسرى، ويبيدهم، في ما لو أحس بخطرهم، وعلى

١- مقتل الحسين عليه السلام، الخوارزمي، ج٢ ص٧١.

٢- تسلية المجالس، ج٢ ص٣٩٥. الإحتجاج، ج٢ ص٣٨٥. مقتل الحسين، الخوارزمي، ج٢ ص٦٩، ٧١.

الأقل، سوف يمنعه من الكلام، فكانت اللغة الشخصانية فيها درعاً وقى به الإمام عليه السلام غايته السياسية ومانعا من إثارة غضب يزيد وحقده، فكشف حقيقة أهل البيت عليهم السلام ومركزهم وثقلهم في الإسلام بدون أن يتعرض لذكر مساوئ الأمويين وفضائحهم، بالرغم من توقع يزيد نفسه لذلك. بل ركّز على إعلان إسمه وهويته الشخصية فقط، وهو من أبسط ما يستطيعه الأسير، وبذلك نجا من شر يزيد، ولكنه أفهم الناس، في نفس الوقت، أن هذا الأسير الذي في هذا المجلس يتصل نسبه بالنبي، وبالإسلام، ويرتبط بكل حوادث تاريخ الإسلام وبالمواقف العظيمة التي لعبت دوراً حاسماً في انتصاره، ويحمل همومه وأعباءه. ففوجيء الناس بالموقف المخجل الذي وضعهم فيه الإمام، فلذلك ضجوا بالبكاء ! فإن الحكام الأمويين إنما حصلوا على مواقع السلطة من خلال ربط أنفسهم بالإسلام، فكسبوا لأنفسهم قدسية الخلافة ! وكان لجهل الناس الأثر الكبير في وصول الأمر إلى هذه الحالة، أن يروا ابن الإسلام أسيرا أمامهم !

وهكذا طبق الإمام عليه السلام هذه الحكمة البالغة، وأدى رسالته الإلهية من خلال خطبه وكلماته ومواعظه وأحاديثه، في جميع المواقف العظيمة التي وقفها، وهو في الأسر. وإذا كان الظالمون يعتدون على المصلحين والأحرار بالقتل والسجن، فإنما ذلك ليخنقوا كل صوت في الحناجر، ولئلا يسمع الناس حديثهم وكلامهم[1]. وإذا ذبح الحسين عليه السلام في كربلاء، فإن نداءاته ظلت تدوي من حنجرة الإمام زين العابدين عليه السلام في مسيرة الأسر، وفي قلب مجالس بني أمية، حيث وصل إلى الذروة في العمل السياسي! بضربة موفقة، في قلب عاصمة الأمويين، وفي معقلهم، وعقر دارهم، حيث نجح، في وضع أساس إفراغ انتصار يزيد من قيمته السياسية، وهو بيت القصيد في معركة الطف. وقد ظهرت آثار حركة الإمام عليه السلام

١- الحجاج بن يوسف ختم على مجموعة من الصحابة كي لا يسمعهم الناس، أسد الغابة، ج٢ ص٤٧١.

وخطبته على سياسة يزيد، مما يدل على حساسية الوضع في قصر يزيد وتحت إرهابه وقوته الأمنية، فقد قام بحبسه عليه السلام[١]، أو أمر باغتياله[٢]، واقترحت بطانته ذلك [٣]، فقد شاور يزيد جلساءه في أمره، فأشاروا بقتله»[٤] وقالوا: «يا أمير المؤمنين، لا يُتخذن من كلب سوء جرواً، اقتل عليّ بن الحسين حتى لا يبقى من ذريّة الحسين أحد»!

فسكت يزيد[٥]، وجاءه رجل من أصحاب رسول الله(!) فقال له: قد أمكنك الله من عدوّ الله وابن عدوّ أبيك! فاقتل هذا الغلام ينقطع هذا النسل، فإنك لا ترى ما تحبّ وهم أحياء! لقد رأيت ما لقي أبوك من أبيه، وما لقيت أنت منه، وقد رأيت ما صنع مسلم بن عقيل، فاقطع أصل هذا البيت، فإنّك إن قتلت هذا الغلام انقطع نسل الحسين خاصّة، وإلاّ فالقوم ما بقي منهم أحد طالبك بهم، وهم قوم ذو مكر، والناس إليهم مائلون، وخاصّة غوغاء أهل العراق، يقولون ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، ابن عليّ وفاطمة! اقتله فليس هو بأكرم من صاحب هذا الرأس.

فقال يزيد: لا قمت ولا قعدت، فإنّك ضعيف مهين، بل أدعهم، كلّما طلع منهم طالع أخذته سيوف آل أبي سفيان[٦].

وليست هذه هي المرة الأولى التي تعرّض فيها الإمام عليه السلام للتهديد بالقتل والاغتيال في مسيرته الطويلة، من كربلاء، لما حاول شمر بن ذي الجوشن

١- مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص١٧٣. الامالي، الصدوق، ص٢٣١. بصائر الدرجات ص٣٣٩. بحار الأنوار، ج٤٥ ص١٤٠.

٢- بحار الأنوار، ج٤٥ ص١٦٨و ٢٠٠. مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص١٧٣.

٣- تاريخ مدينة دمشق، ج١٩ ص٤٢٠. اثبات الوصية ص١٤٥، البداية والنهاية، ج٨ ص١٩٨.

٤- اثبات الوصية ص١٦٧، ١٤٢.

٥- البداية والنهاية، ج٨ ص٢١٣.

٦- تاريخ مدينة دمشق: ج١٠ ص٤٢٠، ذيل ترجمة ريا. البداية والنهاية، ج٨ ص٢٠٤. تاريخ الإسلام، الذهبي، ج٣ ص١٢. الجوهرة في نسب الإمام علي وآله، ج٢ ص٢١٨.

قتله فرمت زينب بنفسها عليه[١]، إلى الكوفة، لما حاول ابن زياد قتله فتعلّقت بـه زينب[٢]. إلى الشـام، وكان مقيّداً مغلـولاً، فقال يزيد لعنه الله: يا عليّ بن الحسـين، الحمد لله الذي قتل أباك!

فقال الإمام عليه السلام: لعنة الله على من قتل أبي!

فغضب يزيد وهمَّ بضرب عنقه»[٣]!

وبعـد أن واجه الإمام عليه السلام يزيد بالخطبة ورجـع إلى المنزل، قابل يزيد، فقال له: «يا يزيد، بلغني أنّك تريد قتلي، فإذا قتلتني فبنات رسول الله من يردّهن إلى منازلهـن وليـس لهن محرم غـيري؟[٤]، فإن كنت لا بـدّ قاتلي فوجّه مع هؤلاء النسوة من يردّهنّ»[٥].

ويبدو أن تعرض الإمام زين العابدين لخطر القتل ابتداء من سـاحة القتال في عرصـات كربـلا، إلى مراحل الأسر التي سـوف يقع فيها تحت السـيطرة التامـة للأمويـين، كان معلومـاً للإمام الحسـين عليه السلام فسـمى كلاً مـن أولاده الثلاثـة (عليـاً) حتى يضيّع على أعداء اللـه هدفهم، وهو قتل الوصي، في يوم الخطر الشـديد، يوم كربلا! وخص علياً شهيد كربلا بلقب(الأكبر) حتى إذا نشـب القتال واستشـهد علي الأكبر، فسـوف يظن مجرمو كربلا أنهم قتلوا وصي الإمام الحسين عليه السلام لأن العرب كانت تعتقد أن الوصية والولاية والإرث مـن نصيـب الإبـن الأكبر دائمـاً، وبقي هذا الإعتقـاد مترسـخاً قروناً، حتى زالت الدولة العباسـية، وحكم دولة الإسـلام الفرس والتركمان والسلاجقة والمماليـك والعثمانيين. وعندمـا مات يزيد ورفض ابنه معاوية تولي الحكم،

١- تذكرة الخواص ص٢٥٨.

٢- أعلام الورى ص٢٤٧.

٣- بحار الأنوار، ج٤٥ ص٢٠٠.

٤- بحار الأنوار، ج٤٥ ص١٦٨.

٥- بحار الأنوار، ج٤٥ ص١٦٢، ١٤٢.

رفض الأمويون وقبائل الشام تولي ابنه الآخر خالد الحكم لأنه كان صبياً والعرب لا تولي الصبيان الرئاسة. وحتى العرب من الشيعة كاد يتزلزل دينهم عندما استشهد الإمام الرضا عليه السلام وتولى الإمامة بعده ولده الصبي محمد الجواد عليه السلام، لولا ما أظهره الإمام من كرامات أدت إلى تماسك الصف الشيعي. وعندما وصل شمر بن ذي الجوشن إلى كربلا مبعوثاً برسالة التهديد والتخيير لعمر بن سعد، ونقل إليه أمر بن زياد له برض جسد الإمام بعد قتله بحوافر الخيل، يبدو أنه أخفى أمراً زائداً كلفه به عبيد الله بن زياد، ولم يتفوه به أمام عمر بن سعد لخطورته ووحشيته ولكونه من مختصات مصلحة بني أمية، وقد ظهر هذا الأمر عندما انتهت واقعة الطف وداهم أوباش الكوفة مخيم الإمام الحسين عليه السلام وكان على رأس النهابين السلّابين شمر بن ذي الجوشن، الذي ما أن وصل إلى خيمة الإمام زين العابدين عليه السلام ورآه حتى أمر بقتله([1]) ولكن عمته زينب عليها السلام تعلقت به وقالت للشمر: «حسبك من دمائنا، والله لا أفارقه، فإن قتلته فاقتلني معه»، وكان الشمر مصمماً على قتله رغم تردد عمر بن سعد لأن عبيد الله بن زياد أمره بقتل جميع أولاد الإمام الحسين([2])، ولكن متى أمره عبيد الله بن زياد بقتل جميع أولاد الإمام الحسين ؟ وهو بعد أن وصل إلى كربلا لم يعد إلى الكوفة بل مكث حتى اليوم العاشر وعاد مع عمر بن سعد إلى الكوفة! إذن! لا بد أنه حينما أتى إلى كربلا أتى بأمر قتل كل أولاد الحسين مع الرسالة التي أتى بها لعمر من ابن زياد! ولكنه أخفى الأمر عن عمر لما فيه من روح العصبية

١- الأخبار الطوال، ص١١٣.

٢- مرآة الجنان، ج١، ص١٣٥. الأخبار الطوال، ص٢٥٨. تاريخ الأمم والملوك،ج٣ ص٣٤٦و٣٤٧. الإرشاد،ج٢ ص١١٢. الكامل في التأريخ، ج٣ ص٢٩٥. اللهوف في قتلى الطفوف، ص١٨٠، الحدائق الوردية، ص١٢٣، نور العين في مشهد الحسين ص٤٥و ٤٦. الأمالي، الصدوق، ص١٣٩ ١٤٠ مجلس ٣١، ح٢. سير أعلام النبلاء ج٣ ص٣٠٣. مثير الأحزان، ص٧٦. بحار الأنوار، ج٤٥ ص٦٠-٦١. الفتوح لابن اعثم، ج٥ ص١٣٨. مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٢٥٩.

الأمويــة لبني أمية ضد بني هاشــم، ويبــدو أن هذا الأمر هو مهمة وتكليف شــخصي خاص بشــمر من ابن زياد، ولكن لماذا يهتم ابن زياد هذا الإهتمام بقتل كل أولاد الحسين؟ فليس معنى ذلك سوى استئصال العائلة الهاشمية التي يوجد في أحد أفرادها النص الإلهي بالإمامة، وهذا لا مصلحة لإبن زياد فيــه، بــل هذا مصلحة اســتراتيجية أمويــة لها صلة بالعــداوة الأصيلة لدين الإسلام، إذن لا بد أن يكون الأمر بقتل جميع أولاد الإمام الحسين بعد قتل الحســين قد جاء من دمشــق! من يزيد بن معاوية صاحب المصلحة الأولى في اســتئصال الإمامة! ولما قتل أوباش الكوفة علياً الأكبر، وهو بالتحديد الولد الأكبر للإمام الحسين، ظن شمر أن المهمة انتهت، فلما فوجيء بعلي آخر أراد أن يقتلــه احتياطاً، كمــا أراد أن يقتله كذلك، عبيد الله بن زياد! لولا زينب!

بعد هذه المقدمة، ســوف يدور الكلام حول ســمات الطور الاول من المرحلة الثانيــة مــن عمــل ائمة اهــل البيت، والــذي قاده وبــرز فيه الامــام علي بن الحســين(زين العابدين). ثم حول الاســتراتيجية التي اتبعها ائمة اهل البيت بعد كربــلا ودور الامام زين العابدين في هذه الاســتراتيجية.

الفصل الأول

السمات العامة للطور الأول من المرحلة الثانية من عمل أئمة أهل البيت عليهم السلام

أولاً: نقل الخلافة إلى القيصرية والكسروية

أسفرت معركة كربلاء عن انتصار المشروع الأموي بنقل مؤسسة الخلافة الإسلامية إلى القيصرية والكسروية، وأصبحت الأسرة الأموية هي التي تتوارث الحكم والخلافة، وأصيب أئمة أهل البيت عليهم السلام بانتكاسٍ في وضعهم السياسي، فقد انتقلوا من مرشحين للخلافة في الدرجة الأولى في المرحلة الأولى إلى مواطنين عاديين في المرحلة الثانية، فكان المرشح للخلافة بعد يزيد هو معاوية بن يزيد، وإلاّ فمروان بن الحكم، وإلا فعبد الملك بن مروان، ولم يكن الإمام زين العابدين أو الباقر أو الصادق من المرشحين لهذا المنصب. من جهة أخرى، بانتقال الخلافة إلى الوراثة الكسروية والقيصرية، تضاءل شأنها وخفُتَ نورها، وفقدت أهميتها التي كانت لها في المرحلة الأولى حيث كان الخليفة خليفة رسول الله، وكان قرب عهدها بالنبوة يعطي الخلافة وزناً وتأثيراً بالغاً في تأسيس القيم الدينية وتفسير القرآن وتبيان السنَّة النبوية، حتى استطاع عمر بن الخطاب أن ينتزع من العرب مرتبة تكاد تعادل مرتبة النبوّة فشرّع وحلّل وحرّم، وسنّ سياسة وقوانين، ورتّب أموراً وأشخاصاً، وقعت كلها عند العرب موقع المقدس الذي لا يجوز مسه أو تغييره. وأما في المرحلة الثانية، حيث أتى ملوك فسّاق يشربون الخمر بل ربما لا يصلّون من بني أمية، فلم يعد للخلافة ذلك الوزن، لأن الخليفة نفسه لا يهتم لشؤون الدين بقدر ما يهتم بالسلطة والقيان والمجون. وترافق ذلك مع انفتاح سوق الفكر والتفسير والكلام والفقه على مصراعيه، بدون

أن يسيطر على هذا الانفتاح قاعدة قرآنية ثابتة أو سنّة نبوية، فنبتت في جنبات وأنحاء عقيدة الأمة وأحكامها وحلالها وحرامها نباتات عشوائية تغلب عليها الرأي والاستحسان والقياس والمزاج الشخصي، فنشأت عشرات المذاهب والاتجاهات في الفقه والكلام والتفسير. وكان اكتساح المذاهب والفلسفات والمدارس سوق الفكر ونشوء العقدة الفكرية المستحكمة خارج نطاق التأثير السلطوي مما جعل ارتكاز الصراع بين الحق والباطل ومركز الإنتصار لفكرة أو غلبتها ودحضها على كل المستويات في سوق العقيدة والفكر والحوار والمسجد وحلقات العلماء والمتعلمين.. وليس عبر الخلافة والسلطة السياسية.

وهكذا هزلت الخلافة بعد أن استولى عليها يزيد بن معاوية وقتل الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، وهذا ما أشار إليه الإمام الحسين عليه السلام عندما قال: على الإسلام السلام إذ ابتليت الأمة براعٍ مثل يزيد.

ثانياً: إنتشار الخوف بين الناس:

فقد كانت المدخلية إلى هذه المرحلة مؤلمة جداً، حيث جرت حادثة كربلاء. التي هزت كيان الأمة، فأخذ الهول والفزع ينتابها، وقد شاهدت ورأت ما لم تكن تتوقعه وتظنه من التنكيل والبطش، والناس كذلك واجمون، بعد أن رأوا ركب أهل البيت عليهم السلام يرجع ليس فيهم إلا علي بن الحسين عليه السلام، وليس معه إلا أطفال ونساء! أما الرجال فقد ذبحوا على يد العصبة الأموية! وخرج علي بن الحسين عليه السلام، ومعه خرقة يمسح بها دموعه، وخلفه خادم معه كرسي، فوضعه له وجلس عليه، والناس يعزونه من كل ناحية، وهو لا يتمالك عن العبرة، وارتفعت أصوات الناس بالبكاء، وحنين النسوان والجواري، فضجت تلك البقعة ضجة واحدة[1]. ولم تصدر ردة فعل عن رجالات

١- اللهوف، ابن طاوس ص ٤، ٨٥. كامل الزيارات، أبو القاسم بن قولويه القمي ص١٠٠.

المدينة المعروفين، الذين اكتفوا بإظهار العواطف الحارة للإمام عليه السلام، ولم يتجاوزوا ذلك، خوفاً من التورط مع الحكومة الأموية، بعد قتل الحسين عليه السلام بهذه الصورة التي شرحها لهم الإمام زين العابدين عليه السلام. وإذا لم يتورع آل أمية من إراقة دم الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وآله، هكذا، وفي وضح النهار، وهو من هو! فمن سوف يأمن بغيهم وسطوتهم؟ فقد هجموا في سنة ٣٦ هجرية بقيادة مسلم بن عقبة على المدينة، وجرت واقعة (الحرة)، وربط بنو أمية خيولهم في الحرم النبوي، مما أدى إلى زيادة الخوف والرعب في المدينة، وانتشاره في كافة المناطق، حتى مكة على الرغم من قيام دولة عبدالله بن الزبير فيها، والكوفة، بالرغم من قيام ثورتي التوابين والمختار سنة ٤٦ و٥٦ هجرية وما أوجدتاه من جو «جديد» في البلاد، فإن ذلك لم يدم طويلاً وعاد الخوف ثانية بعدما استشهدوا كلهم حتى آخر شخص منهم.

سبّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

لما أفضت الخلافة إلى بني أمية وسفكوا في أيامهم الدم الحرام ، سّبوا أمير المؤمنين عليه السلام على منابرهم، واغتالوا شيعته في البلدان وقتلوهم واستأصلوا شأفتهم ، ومالأتهم على ذلك علماء السوء رغبة في حطام الدنيا وصارت محنتهم على الشيعة سبّ أمير المؤمنين عليه السلام، فمن لم يسبّه قتلوه. فلما فشا ذلك في الشيعة وكثر وطال! اشتكت الشيعة إلى زين العابدين عليه السلام وقالوا: يا ابن رسول الله أجلونا عن البلدان ، وأفنونا بالقتل الذريع ، وقد أعلنوا سبّ أمير المؤمنين عليه السلام في البلدان وفي مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله على منبره ، ولا ينكر عليهم منكر ، ولا يغير عليهم مغير ، فإن أنكر واحد منا على سبّه قالوا : هذا ترابي ورفع ذلك إلى سلطانهم وكتب إليه إن هذا ذكر أبا تراب بخير حتى ضرب وحبس ثم قتل ! فلما سمع ذلك عليه السلام نظر إلى السماء وقال : سبحانك ما أعظم شأنك إنك أمهلت عبادك حتى ظنوا أنك أهملتهم ، وهذا

كلـه بعينـك إذ لا يغلب قضاءك ولا يرد تدبير محتوم أمرك فهو كيف شـئت وأنى شـئت لما أنت أعلم به منا[١] .

ثالثاً: إنفجار النزاع بين يزيد بن معاوية وابن الزّبير

كان عبد الله بن الزبير من الذين تمنوا أن يغيب الإمام الحسين عليه السلام عن الساحة السياسـية حتـى يخلو له جو التصدي للسـلطة في وجه يزيـد، لأنه كان يرى في الإمـام المنافـس القوي له عـلى منصب الخلافة، ويرى نفسـه، مـن طريق أولى أحـق بهـا من يزيد بـن معاوية، وهو مع ذلك، لـم يظهر تمايزاً عـن بني أمية، فقـد كان عـلى رجالة عائشـة في حرب الجمـل، وهو الذي زيّن لها مسـيرها إلى البـصرة، وكان فاحشـاً، سـبّاباً، ما برح يسـب علي بن أبي طالـب[٢]، ويحرض أبـاه عليـه، حتـى صرِّح الإمـام عـلي عليه السلام حينذاك بقـول معبِّر عن شـخصية ابن الزبير: «ما زال الزبير رجلاً من أهل البيت حتى شبّ ولده المشؤوم عبد الله»[٣]. وبقدوم الامام الحسـين بن علي عليه السلام إلى مكة اشـتد الامـر على ابن الزبير لانه كان قد طمع أن يبايعه الناس، بينما أخذ الناس يختلفون إلى الحسـين عليه السلام، فشـق ذلك عليه وسـقط بيده وعلم أن أحدا لن يبايعه ما دام الحسـين عليه السلام بها([٤]). فلما قُتل الحسـين خطب في أهـل مكّة وعظّم مقتله وعاب على أهل الكوفـة خاصّـة وعلى أهل العـراق التغرير به. فقد دعوا الحسـين لينصروه ويولّوه عليهم. فلمّا قدم عليهم نكّلوا به فقالوا له إمّا أن يضع يده في أيديهم، فيبعثون به إلى ابن زياد بن سميّة، فيُمضي فيه حكمه، وإمّا أن يُحارب رغم قلّة عدد أصحابـه، فاختار الميتة الكريمة على الحياة الذليلة[٥].

١بحار الأنوار ج ٤٦ ص ٢٧٤.

٢- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٤ ص٧٩.

٣- نهج البلاغة، ج٣ ص٢٦٠. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١ ص٢٢.

٤- الامامة والسياسة، تحقيق الشيري، ج٢ ص٥.

٥- تاريخ الامم والملوك، ج٥ ص٤٧٤. أنساب الاشراف، ج٥ ص٣١٩.

لقد كان موقفه من قتل الحسين عليه السلام أشبه ما يكون بموقف معاوية من قتل عثمان، فقد ارتاح لقتله ثم استغل مصرعه للتشنيع على الأمويين، واستطاع أن يستغل الموقف بمهارة فكان يتباكى على الحسين عليه السلام ويتظاهر بعدم رغبته في الخلافة، وأنه منذ البداية رفض أن يبايع ليزيد، واعتكف في البيت الحرام في أكثر أوقاته، ويُظهر أنه عائذ بالبيت[1]، حتى سماه الناس بالعائذ بالبيت، كل ذلك ليظهر للناس زهده في الدنيا والخلافة وليزدادوا به تعلقاً وينسوا تاريخه الأسود وأطماعه في السلطة، فقد كان الحرم المكّي مجالاً مناسباً يقيم فيه سلطته، بما له من شرعيّة إلهية وتاريخية مرتبطة بقريش في الجاهلية والإسلام.

استراتيجية جديدة لأئمة أهل البيت

بعد أن جاهد النبي صلى الله عليه وآله وأسس أمة إسلامية، فاضت روحه وعينه على مرحلة الانتقال إلى ما بعد التأسيس، ولكن مفاهيم الولاء للقبيلة ووباء الطمع وحب الدنيا والمال والرئاسة، كانت قد اختبأت في الجسم الذي جاهد وتعب رسول الله على تصفيته وتنقيته منها، فظهرت هذه المفاهيم فوراً وبعد ساعة من انتقاله إلى الملكوت الأعلى، وابتدأت المحنة وضاعت من يد النخبة فرصة استلام الدولة، وتشكل رأس الجسر الذي سوف يكتمل مع عثمان، والذي سوف يعبر عليه معاوية ومن بعده، من أمويين وعباسيين، إلى التحكم بقيادة الأمة ومصيرها..

في يوم وفاة رسول الله، تم الإغماض عن أن القيادة شأن إلهي قرآني وأن النبي سمّى وعيّن القائد، وتم تقديم القيادة وكأنها إمتداد لأعراف ومفاهيم الجاهلية فطرح مفهوم القيادة من قريش، وهو في أصله مفهوم جاهلي طرحه كبار الصحابة مما جعل كثيراً من الناس يعتقدون أن ما يفعله

١- تاريخ الامم والملوك، ج٥ ص٤٧٥. أنساب الاشراف، ج٥ ص٣٢٠.

هـؤلاء هو من الإسـلام. وهكذا تم التشـويش على أوامـر تعيين علي بن أبي طالـب أميراً على الأمـة من موجات قريبة جداً، وهم الصحابة، بحيث اختلط الأمـر على جمهور المسـلمين، ولم يتضح لهم فداحـة الموقف ودقّته وخطره على مسـتقبل الرسالة، فلم يكن المسلمون يتصورون خطورة ما حدث، لأنه لم يتغير عندهم شيء ! سـوى أن شـخصا اسـمه علي جعله الله تعالى خليفة قد أقصي من مقام الحكم وجعلوا مكانه أبا بكر خليفة! فالمسـألة هي فقط مسـألة تغيير حكم واحد من أحكام الله لا أكثر، أما بقية الجهات فقد بقيت على حالها، بقيت الصلاة كل يوم خمس مرات، وبقيت الزكاة وبقي الفقراء يُعطَـوْن منهـا، وبقي كتاب الله يقرأ في المسـاجد، وبقيت الجماعات تقام في أوقاتهـا، وبقـي بيت الله يحج إليه عـشرات الآلاف من الناس، وبقي العرب يفتحون بلاد الله الواسـعة بلداً بلداً

إن ما جرى بعد وفاة النبي، بنظر أهل البيت عليهم السلام، وتبعهم شيعتهم على ذلك، لم يمس ميداناً واحداً من الميادين التي كان يعتمد عليهـا الإسلام وحسب، وهو أن شـخصاً أراده الله تعالى لقيـادة الأمة بعد النبي رضي الله عنهما قد أقصي وعين آخـر بدلاً عنه! فتكون المسـألة حينئذ ظلماً شـخصياً للإمـام عليه السلام، بل كان ما جرى تعريضاً للتجربة الإسـلامية للفشل ولخطر الانهيار. فقد كانت أهمية شخص هذا الحاكم، وهو علي بن ابي طالب، بحيث أنه يوجب مجرد تغييره تزعزع كيان الإسـلام، لـولا الجهود التي بذلها هـو وبذلها بعده أئمة أهل البيت، فليس الإسـلام مجرد نظرية مكتوبة في كتاب، وكل ما على الإنسـان هو أن يقرأها ويستفيد منها، والأمر متروك إليه، فقد بلغه النبي رضي الله عنهما وانتهى الأمر! بل الإسـلام رسـالة تربية لهذا الإنسـان من أجل أن تبنيه من جديد، والمربي لا يستطيع أن يربي شخصاً ما لم يهيمن عليه، وإذا لم يهيمن عليه فسـوف يكونا مجرد أستاذ وتلميذ، الأسـتاذ يلقي النظرية العلمية للتلميذ،

فإن شـاء التلميذ قبل وإن شـاء رفض، وهذا باب التلمـذة والبحث، وفيه لا يمكن أن يربي المعلم الإنسان التربية الشاملة الكاملة وفقاً للرسالة التي جاء بها بشـكل تجعله متميزاً كلياً عن إنسان الجاهلية.

وأمـا باب التربيـة فإنه باب الهيمنة وهو يتوقف على المربي بحيث يسـيطر عـلى كل المجـالات الفرديـة، مع ربه ومـع الآخرين في النطـاق العائلي، ومع الأفراد الآخرين في المجال الاجتماعي، لأنه لو لم يسـيطر على واحد من هذه المجـالات فمعنـى هذا أنه لم يسـيطر على جزء من الإنسـان، لأن الإنسـان يتفاعـل مـع كل هذه المجـالات، إذن فالهيمنة هي الشرط الأسـاسي للتربية، وهي كلما كانت أوسـع نطاقاً، كلما كانت أكثر إنجاحاً لعملية التربية. كذلك لا بـد للإسـلام أن يهيمـن على الإنسـان العربي الآتي من ظلمـات الجاهلية ليستطيع أن يربيه، وهذا يتوقف على الهيمنة على كل ميادين حياته، لأن من لـم يمتلـك زمام كل تلك الميادين، لا يمكن أن يهيمن على كل أبعاد الإنسـان، وهـذا مـا صنعه رسـول الله صلى الله عليه وآله، فقـد هيمن عـلى العلاقـات الاجتماعية في المجتمع الذي أنشـأه، لأنه تزعمه وقاده بنفسـه وخطط له وبنى داخله كل علاقات الإنسان، مع نفسه، ومع ربه، ومع عائلته، ومع بقية أبناء مجتمعه، في مختلـف المجـالات والحقول، الاجتماعية والشـخصية، حتـى صارت كل هذه الأمور تحت هيمنة النبي صلى الله عليه وآله، فحينئذٍ اسـتكمل الشرط الأسـاس للتربية الناجحة، ولذلك نجح ذلك النجاح الباهر، وغيّر اتجاه المئات من القبائل من عبادة الأوثان إلى التوحيد، وأسـس منها أمة ومجتمعاً ودولة، ولا شـك أنه لو كان قد امتد العمر برسول الله صلى الله عليه وآله أو امتدت التجربة الإسلامية من بعده على يد خلفائه الذين أرادهم، أعني علي بن أبي طالب والأئمة من أهل البيت، لقُدِّر لهذه التجربة وتلك التربية أن تؤتي ثمارها. ولكن أمراً خطيراً حصل، يـوم وفـاة القائد رسـول اللـه صلى الله عليه وآله، أدى إلى حدوث صدع في جـدار التجربة

الإسلامية، فالمربي الذي أراده الله أو قيادة الدولة، قد حلّ محله رجل آخر، فكان من المفروض، بسبب ذلك الإستبدال، بحسب طبيعة الأشياء، أن يتفاقم هـذا الصـدع، الذي بدأ فسـخاً أو شـقاً في الرأس، أي في قيـادة التجربة، ثم كلما تعرضت التجربة لمصاعب وتطورات وزلازل واهتزازات، كلما تشـعب واتسع وامتد وتعمق هذا التصدع، ليصيب في النهاية كل التجربة الإسلامية، فتصبـح مليئـة بالتناقضات من كل جهة، وتصبح الدولة عاجزة عن مواكبة الحد الأدنى من حاجات الأمة ومصالحها، وغير قادرة على تطبيق الإسلام في أبعاده الاجتماعية والعسـكرية والسياسية والعقائدية والفقهية، فتعلن عن إفلاسـها نهائياً، بل تصبح عاجزة حتى عن حماية نفسـها، وبالتالي سـوف تسـتنفذ إمكانية البقاء والاستمرار على مسرح التاريخ.

وإذا ما سـقطت الدولة، فلن تستطع الأمة حمايتها من السقوط، لأنها أصلاً لا تجني منها الخير الذي تفكر فيه، ولا تحقق منها الآمال التي تصبو إليها فلا ترتبط بأي ارتباط حياتي حقيقي معها. وحينئذ سوف يأتي دور الأمة بالتصدع، لأنها عاشـت الإسـلام الصحيح الكامل زمناً قصيراً جداً، هو زمن طفولتهـا بقياس أعمار الأمم، وهو الزمن الذي مارس فيه القيادة شـخص معصوم عيّنه الله هو الرسـول الأعظم صلى الله عليه وآله، ولما اسـتلم هذه القيادة شخص غير معصوم فقد قصّر عمر التجربة، وبترها من أولها، فدخلت الأمة تجربة لم تسـتطع أن تعمق فيها الرسـالة والمسـؤولية تجاه عقيدتها، ولم تثقفها وتحصنهـا وتزودهـا بالضمانـات الكافية لعـدم الانهيار أمـام أي حضارة وأفـكار وتقاليـد ومفاهيـم أخرى، سـوف تؤثر عـلى الأمة التـي لم تعرف الإسلام معرفة حقيقية كاملة، لأنها لم تشب ويتصلب عودها عليه، ولم تجد في التجربة التي لا يقودها المعصوم بل شخص عادي، ما تحصن به نفسها ضـد مـا يطرأ عليها من الاندماج مع هذا العالم القوي الذي كانت تظن أنها

تغـزوه، مع أنهـا كانت تذوب وتتنـازل عن عقيدتها وعـن آدابها وأهدافها وأحكامها، وعن أصل القيم التي من أجلها، ومن أجلها فقط، نشأت وتأسست. إن أول نتائـج ذلـك هو أنه سـوف يخرج الناس من دين اللـه أفواجاً، وهذا ما أشارت إليه رواية عن أحد أئمة أهل البيت يقول فيها بأن أول ما يتعطل من الإسـلام هو الحكم بما أنزل الله سـبحانه وتعالى، وآخر ما يتعطل من الإسـلام هو الصـلاة، أي أن الزعامة والقيادة للدولـة إذا لم تكن معصومة أشرف على تربيتها الله تعالى، فسـوف يتعطل الحكم بما أنزل الله. وسوف يتـدرج الأمـر بحيث ينتهي حتماً إلى أن تتعطـل الصلاة، وهو مرحلة تنازل الأمة عن عقيدتها، والتنازل عن العقيدة هو الإنهيار لأن العقيدة هي المقوّم الأساس للأمة، وبدونها ينعدم أصل وجود الأمة، التي تصبح خبراً وحكاية تحكى في ليالي السـمر، بعد أن كانت أمراً حقيقياً على مسرح التاريخ، وبهذا ينتهي دور الإسـلام ويتهدَّم ذلك البناء الذي لأجله بعث الآلاف من الأنبياء. فليسـت القضية إذن مجرد اسـتبدال شخص بشـخص آخر! بل كان يشكل بدايـة خطر على التجربة الإسـلامية كلها وظلماً لهـا وبالتالي لكل البشرية، لأن المتسلم للقيادة الفعلية والممسك بزمام التجربة بعد النبي صلى الله عليه وآله كان يعيش رواسـب جاهلية وليس معصومـاً، والعصمة شرط أسـاس لقيادة التجربة الإسـلامية، لأن الـذي يريـد أن يكون قائداً للدول والأمـم يجب أن يكون في فكره وعقله وصفاته ودينه ومعارفه بمستوى خطورة وعظمة هذه المهمة، فالقائـد الـذي يمارس زعامة التجربة الإسـلامية يجـب أن يكون معصوماً بمقاييس إسـلامية، ولذلك وجه الشـيعة من أصحاب علي بن أبي طالب عليه السلام إلى الخلفـاء الذين تولوا الخلافة بعد رسـول الله صلى الله عليه وآله، تهمة أنهم غير مهيئين لأن يكونوا قادة للتجربة الإسـلامية وأنهم سوف يتسببون في انهيار الدولة والمجتمـع والأمة، لأنهم غير معصومين.

والفرق بين العصمة في الإسلام والعصمة في الإتجاهات العقائدية الأخرى، هو أن العصمة في الإسلام أوسع نطاقاً، لأنها تنبع من طبيعة سعة الإسلام نفسها، لأن الرسالة الإسلامية تعالج الإنسان من كل نواحيه، وتأخذه بيده ولا تفارقه، وهو في فراشه، وفي بيته، وبينه وبين ربه، وبينه وبين نفسه، وبينه وبين أفراد عائلته، في السوق، وفي المدرسة، والمجتمع، وفي السياسة والإقتصاد، ولهذا تكون العصمة على أساس الرسالة الإسلامية أوسع نطاقاً وأقسى شروطاً، وأقوى من ناحية مفعولها وامتدادها في كل أبعاد الحياة الإنسانية.

فكان ينبغي أن يتوفر للتجربة العقائدية الإسلامية قيادة عقائدية معصومة تمتلك فعالية عالية جداً من العلم والنزاهة والتجرد والموضوعية والصفات النفسانية، بينما نجد أن الصحابة الذين حلوا محل الحاكم المعصوم، علي بن أبي طالب، وتسلموا التجربة وتولوا قيادة الدولة بعد رسول الله، وهم أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، كانوا رجالاً عاديين من هذه الأمة، يستبطنون أفكارها وعواطفها ومشاعرها التي ورثوها من الجاهلية، ولم يكونوا معصومين حتى بأدنى مراتب العصمة، ولا مصممين من قبل صاحب التجربة وواضع شروطها وقوانينها، وهو الله تعالى، بل كانوا بشراً تحتشد في أنفسهم أفكار وشهوات تعرضهم للخطأ، إذ لم يكونوا معصومين لا من ناحية المفاهيم الفكرية ولا من الناحية العملية، بل هم تلك الكتلة من العواطف والمشاعر والافكار، التي لو افترضنا أن بعضها إسلامي فسوف يبقى بعضها الآخر من الافكار والعواطف غير الاسلامية والجاهلية، مما يعني أن الحاكم قد أصبح مزدوج الشخصية، وبالتالي سوف يكون قطعاً عرضة للوقوع في الخطأ، ووقوع الخطأ من رأس الدولة والأمة والمجتمع هو رأس الأخطاء.

وبقطع النظر عن جهة بقاء الراسب الجاهلي في نفوسهم أو عدم بقائه، لكنهم لم يهيأوا أبداً لأن يكونوا قادة وحكاماً! لأن للحاكم أو القائد سلوكه الخاص وثقافته الخاصة، خصوصا إذا كان في صدد دعوة جديدة ذات ثقافة جديدة، فلا بد وأن يكون مهيئاً بصورة مسبقة تهيؤاً ثقافياً وعلمياً وروحياً لأن يكون حاكماً. ولكن بما أن خضم الصراع العسكري والسياسي شغل رسول الله صلى الله عليه وآله والصحابة في كيفية حماية الدولة، والدفاع عنها، والمساهمة في حروبها، فقد حصلت عشرات المعارك والتحركات العسكرية والأزمات بحيث لم يتوفر للنبي الوقت من أجل تدريب الصحابة أو تثقيفهم عالياً على مستوى القيادة، بل كان يمارس معهم تثقيفاً عاماً لأجل إيجاد أمة تتمتع بالحد الأدنى من الوعي، بوصفها رعية، أي بالمقدار الذي تتطلبه الرعية الواعية من فهم وثقافة، كما أن الصحابة، في المقابل، لم يكونوا أيام النبي حريصين على أن يثقفوا أنفسهم ويهيئوها لكي يتسلموا الحكم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فعمر بن الخطاب نفسه، بعد أن أصبح حاكماً، حينما كانت تأتيه مشكلة ولا يعرف الجواب عنها ويتكرر عجزه ويقف موقفاً سلبياً تجاه المشاكل من الناحية الدينية، كان يعتذر عن ذلك ويقول: شُغلنا أيام رسول الله صلى الله عليه وآله بالعمل في الأسواق عن تعلم هذه الأحكام، أي دون الشغل بوضع الدولة الإسلامية وظروفها السياسية والعسكرية، فكان يبعث للمهاجرين والأنصار ليستفتيهم مرة ثانية وثالثة ورابعة، كذلك الأمر بالنسبة لأبي بكر، لأنه لم يكن عندهم تثقيف لفترة ما بعد الرسول صلى الله عليه وآله.

بل نجد أن الصحابة في أيام عمر وأبي بكر قد اختلفوا في المسائل الواضحة جداً، كحكم الصلاة على الميت التي كان يمارسها رسول الله صلى الله عليه وآله أمام أعينهم مدة طويلة، ومع هذا فقد اختلفوا، وخصوصا هؤلاء القادة، في عدد التكبيرات في صلاة الميت، مع أن هذه المسألة عبادية صرفة بعيدة

عـن كل مجالات الهوى والسياسـة والإقتصاد، ممـا يدل على أن الإختلاف هنا ناشئ من الجهل حقيقة وليس من الهوى، ويدل على أنهم كانوا في أيام النبي صلى الله عليه وآله متكلين عليه، فكان الواحد منهم يأتي ويأتم بالنبي صلى الله عليه وآله ولا يخطر على باله في مرة من المرات أن يحسب عدد التكبيرات، فعاشوا هذه الإتكالية في عـصر النبي صلى الله عليه وآله، ولم يكونوا متهيئين بعد وفاتـه تهيؤاً فكرياً وعقائدياً لتحمل أعباء الرسالة..

إذن فرسـول الله صلى الله عليه وآله لم يهيء الذين تصدوا لقيادة الأمة بعده، ولا اشـتغل لتهيئـة مجموعـة من الأمة لتحكم الناس، يعني مدرسـة كـوادر، وإنما هيأ قائـداً معينـاً مـن أهل البيت هو عـلي بن أبي طالـب عليه السلام الذي اختـاره الله سـبحانه وتعالى لكي يخلف النبي صلى الله عليه وآله في قيادة الدولة الاسلامية بعده، وهو الذي كان يتلقى منه التوعية على مسـتوى القيادة وعلى مسـتوى الحاكمية. كما أن التاريخ يشـهد بأن هؤلاء الصحابة الذين تسـلموا زمام الحكم طيلة خمسـة وعشرين سـنة، التي هي اغلى خمسـة وعشرين عاماً من عمر الأمة المنتقلـة من الجاهلية إلى الإسـلام، قد عاشـوا الجزء الأكـبر من حياتهم قبل الإسلام في إطار التفكير الجاهلي عاطفياً وفكرياً وعقائدياً. فلم تستأصل بذور الجاهليـة من أفكارهم وعقولهم، وكانت، لرسـوخها، تظهر على تصرفاتهم ومواقفهـم، فيعـترض عمر بن الخطاب على متعة الحج، مع أن رسـول الله صلى الله عليه وآله قال إن التشريع من الله تعالى، فهي عمل عبادي خالص، لا علاقة له بأي مصلحـة من مصالح الدنيا، فلا يمكن أن يدرك إنسـان بعقله وأن يحكم أن العمرة المسـتمرة إلى الحج أحسـن من العمرة المتحلل منها التي يأتي بعدها الحج، والتي نزل جبريل عليه السلام بتشريعها وسـماها الرسـول صلى الله عليه وآله متعة الحج! فهي مسـألة عبادية ثابتة، فلماذا يرفـض عمر هذا التشريع الذي لا مدخلية للعقل البشري في تقرير الصواب فيه؟ إذن لم يتأثر عمر في احتجاجه بعقله،

لأن العقل لا يدرك أيهما الأفضل، بل يبدو أنه تأثر بتربيته وعاداته وتقاليده لأن الجاهلية قبل الإسلام كانت ترفض التحلل بين العمرة والحج.

لقد بقيت هذه الرواسب في نفس عمر بن الخطاب إلى درجة أن يرد على رسول الله ﷺ وجهاً لوجه في ذلك، وتبدو منه نزعة الإستقلال بالرأي وروح الأنا في مقابل الله ورسوله، والتمرد على التعبد بما جاء بها الرسول ﷺ، وليس هذا سوى اثر للتناقض بين الإسلام وبين مفاهيمه وأفكاره وعواطفه الجاهلية، التي لم تكن تشكل خطراً على الدولة والأمة قبل موت رسول الله ﷺ، حينما كان عمر بن الخطاب إنساناً عادياً في المجتمع الإسلامي، لأن رسول الله ﷺ كان هو قائد هذا المجتمع، ولكن عندما تولى عمر وأصحابه زمام قيادة الدولة، شكلت هذه النزعة خطراً على الدولة والمجتمع والأمة، إذ أن عمر سوف يحل قضايا الدولة، وسوف يُعبِّر عن مفاهيم الإسلام على وفق الموروثات الجاهلية، وعلى وفق رواسبه العاطفية والنفسية التي خلفها له آباؤه وأجداده، لا التي خلّفها له رسول الله ﷺ، وبدا هذا واضحاً منذ اللحظة الأولى في الحجة التي أوردها ضد الأنصار، في السقيفة، في يوم وفاة رسول الله ﷺ: «من ينازعنا سلطان محمد ونحن قومه وعشيرته!» فلم تكن نظرته إلى الخلافة نظرة إسلامية، بل نظرة ظهرت فيها كل الرواسب الفكرية والعاطفية للجاهلية التي سوف تعمل عملها في سلوكه وفي تخطيطه المالي والسياسي والعسكري والإداري للدولة..

ففي التخطيط السياسي والعسكري للدولة بدا هذا واضحاً في مشروع الفتوحات التي فتح أبو بكر وعمر بن الخطاب الباب على مصراعيه لها بدون أخذ أهداف وغايات الإسلام بعين الإعتبار وبدون التبصر في ما سوف يؤدي إليه فتح هذا الباب من مخاطر ونتائج خطيرة وهائلة تخرج من إمكانية السيطرة عليها وضبط نتائجها واستيعاب آثارها، فقد فتحت هذه الفتوحات

على الدولة الإسـلامية الفتية في عمرها، والضعيفة في كادرها المثقف، أبواب تحول كمي هائل، كما فتحت على الأمة الإسلامية بعد النبيﷺ أبواب تحول إجتماعي وسياسي كبير وضخم جداً.

فقـد كانـت الخطة النبوية تحقيـق فكرة المجتمع العالمي، بـأن يضم العرب والفرس والترك والهنود وجميع شعوب الأرض، ولكن إلى أن توفي النبيﷺ لـم يمتد نفوذه إلى أكثر مـن جزء، ولو كان كبيراً، من الجزيرة العربية، فلم يتحقق من الخطة النبوية سوى مجتمع عربي كان لا يحمل من العالمية، حتى ذلك الوقت، سـوى الفكرة. فكان من المفروض أن يستمر العمل على تطبيق الخطة النبوية بعد وفاة رسـول الله ﷺ، وأن يبنى هذا المجتمع الإسـلامي العالمـي، ولكن هذه المهمة كانت صعبـة وعظيمة جداً تختلف كل الإختلاف عن الظروف الموضوعية للمرحلة النبويةﷺ، فإنها تحتاج عند الذي سـوف يقود الأمة بعد النبيﷺ إلى عقلية رسـالية وإلى نزاهة عن كل شـائبة وعن كل إنحطاط فكري وعاطفي يمثله الإنسـان القبلي أو القومي أو العشـائري الـذي لا يمكـن أن يقـود بهذه العقلية عمليـة بناء المجتمـع العالمي النبوي.

ولكن أبا بكر وعمر بن الخطاب وضعا الدولة الإسـلامية والأمة الإسـلامية أمـام إشـكالية تاريخية، فالأمة التـي خلفها النبيﷺ والتـي تحمل عاطفة وحماسـاً فقـط ولا تحمل وعياً ولا علماً ولا معرفة بدينها وبقرآنها وسـنة نبيها، قد حزمت حقائبها وغادرت بلادها بدون أن تستدرك شيئاً من ذلك، وحتـى وإن كان بعضها قد رأى رسـول اللهﷺ بـأم عينه في لحظة قصيرة من تاريخ الإنسانية، وعرف نظرية الإسلام في المجال السياسي والإقتصادي والعسـكري والإجتماعي، وسـمعه يقول: الناس سواسـية كأسـنان المشط، شـعاراً للحياة وللمجتمع، ولكن هذه الدولة فتحت على نفسها، بالفتوحات، بـاب توسـيع دائـرة الأمة، إذ ضمـت إليها شـعوبا اخرى فارسـية وتركية

وكردية وهندية وأفغانية وأوروبية وغيرها. ولم تكن هذه الشعوب قد رأت رسول الله ﷺ او سمعت منه كلمة من القرآن، فإن هذه الشعوب التي دخلت في الإسلام جديداً والتي لا تعرف شيئاً أصلاً عن هذه النظرية الإسلامية للحياة الإجتماعية، لم تكن قد سمعت شيئا من هذا، وإنما تعرف الواقع الذي يتجسد خارجاً والذي عاشته كواقع وهو أن فاتحاً عربياً، سلاّباً نهّاباً، مسلماً، سيطر على بلادها، واستولى على أموالها، وسبى نساءها واطفالها، وباعهم في أسواق النخاسة.

وهكذا! تحولت النظرية الإسلامية للحياة الإجتماعية إلى نظرية أخرى وفق خط القيادة الجديدة للدولة، أبي بكر وعمر وعثمان، وتجسدت في سلوكهم وتصرفاتهم حقيقة أخرى، بعيدة كل البعد عن تلك التي عمل رسول الله ﷺ على تجسيدها في حياته، بل طمست نظرية هؤلاء للحكم، كما طبقوها سياسياً وإقتصادياً، تلك النظرية النبوية الصالحة فكرياً وروحياً ليس فقط لإدارة الجزيرة العربية بل لإدارة العالم، بينما لم تكن تجربتهم مع النبي ﷺ تصلح لإدارة حالة الاتساع الذي حصل، مما سوف يؤدي إلى حصول سقطات فكرية وعاطفية تجعلهم دون مستوى تحقيق فكرة المجتمع العالمي، وقد تكون هذه السقطات بذرة صغيرة جداً في عهد ما، ثم تكبر هذه البذرة بعد هذا وتصبح بلاءً كبيرا وشراً مستطيراً.

ومن الشواهد على ذلك موقف عمر بن الخطاب من نصارى العراق الذين كانوا يعطون الجزية، فقد عاتبوه وقالوا له: بأن في الجزية ذلا فيجب أن لا ندفعها لأننا عرب وإن كنا نصارى. فأعفاهم عمر من دفع الجزية، وأذن بأخذ المال منهم بعنوان الزكاة !! و لم تكن الزكاة بأقل من الجزية، لأن المشرك يدفع الجزية والمسلم يدفع الزكاة، غاية الأمر كأن الجزية بحسب نفسها علاقة فيها مهانة، وعمر بدل الجزية بالزكاة.

هـذه البـذرة الصغـيرة والطفيفـة جداً لم تنطبـق إلا على عشـيرة واحدة لا أكثر من عشائر النصارى في العراق وهم العرب، ولكنها على مر الزمن أتت الشر المسـتطير، ولعلها هي الأسـاس في كل الشرور التي مني بها وعاشـها المسـلمون في العراق نتيجـة للكيانات القومية العربية والفارسـية والتركية والهنديـة وغيرهـا مـن الكيانـات القوميـة الكافرة التـي أُنشـئت في العالم الإسـلامي وزعزعت الإسلام وحطمت الرسـالة الإسلامية.

وهكذا، وقعت القيادة التي اسـتلمت الدولة تحت مسؤوليات تاريخية كانت فوق طاقتها وقدرتها على الإستيعاب، فقد تراكمت، فوق أمة خارجة للتو من ظلمات الجاهلية، أمم جديدة غارقة في الكفر والشرك، فمن أين يبنون لهذه الأمم الجديدة وعياً دينياً إسلامياً، وأمتهم التي غزت تلك الأمم لم تكن تملك وعيـاً اصلاً، وفاقد الشيء لا يعطيه؟ ومـن أين يجعلون لهذه الأمم الجديدة حتى عاطفة وحماسة دينية! وتلك العاطفة والحماسة التي كانت عند أمتهم إنمـا كانـت نتيجة جهادها تحت قيادة أعظم قائد في تاريخ الإنسـانية، وأما هذه الشـعوب التي دخلت حظيرة الإسـلام فلم تكن قد عاشـت هذا الجهاد المسـتمر مـع هذا القائد، بل وجدت نفسـها تحت قيـادة رجل آخر، هو عمر بن الخطاب، له نظرة عشـائرية وقبلية وقومية إلى الناس وإلى أمم الأرض. ولكـن الذي حصل بالفتوحات أيضاً، من جهة أخرى، هو اندماج أمة عربية مولـودة من الجاهلية بأمم عاشـت حضارات عريقـة في التاريخ، في ميادين التمدن والسياسـة والفلسـفة والإجتماع! ما سـوف يجعل الفتوحات عامل ضعـف في مناعـة هذه الأمة، وبالتالي سـوف تضعف قدرتها عـلى الحماية، وسـوف تفتح بالتـالي مجالات القصـور والتقصير أمام عمـر بن الخطاب، الذي لم يكن مهيئاً نفسياً لأن يحكم ويقود الأمة المحدودة في مجتمع المدينة، فكيـف يكون مهيئاً نفسـياً وفكرياً وثقافيـاً لأن يحكم بلاد كسرى وقيصر

ويجتث أصول الجاهلية الفارسية والهندية والكردية والتركية إضافة إلى إجتثاث الجاهلية العربية؟ وكانت كل واحدة من هذه الجاهليات تحتوي على قدر كبير من الأفكار والمفاهيم العديدة، والمتضاربة فيما بينها عاطفياً وفكرياً، وكلها سوف تنضم الى بعضها في مجتمع واحد وفي حالة من عدم وجود ضمان لتجاوز هذه الجاهليات لا على مستوى الحاكم، ولا على مستوى الأمة !

إن مهمة إنشاء مجتمع عالمي تحتاج إلى قيادة تختلف عن طبيعة هؤلاء الخلفاء، ولذا كان أمراً طبيعياً أن يعمل قادة أهل البيت على الدخول في صراع سياسي مع هؤلاء الخلفاء ومع الزعامات المنحرفة التي جاءت بعدهم وهم يحملون في أيديهم مشعل تلك النظرية الحقيقية للإسلام عن الحياة وعن المجتمع والدولة والإقتصاد والسياسة وعن الآخرة، وكان الهدف الآني للصراع هو بث الوعي في المسلمين والشعوب الجديدة التي دخلت في الإسلام على هذه النظرية، ويبينوا لهم بصدق ما هو مفهوم الإسلام في هذه المجالات وصولاً إلى ترسيخ هذه النظرية في أذهانهم.

وهذه النظرية وإن كانت موجودة في القرآن، وفي السنة، ولكن هذا لم يكن يكفي وحده للوصول إلى الهدف، لأن تلك النظرية كانت ما زالت حبراً على ورق، فلا تكفي لأن تعطي صورة واضحة عن الحقيقة الصادقة في أذهان الناس. ولإن الأمم الجديدة التي دخلت في إطار الدولة الإسلامية لم تكن قد فهمت القرآن والسنة ولم تكن قد سمعت عنهما سوى ما سمعته عن طريق الصحابة، فلا بد حينئذٍ من تجسيد حي لهذه النظرية الإسلامية، وحيث لم يكن بالإمكان تجسيده عن طريق الحكام الذي تصدوا لإدارة الدولة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة، كان من الضروري تجسيده عن طريق المعارضة المتمثلة في أئمة أهل البيت.

ولكـن هـؤلاء الخلفاء، الذين ظلمـوا علياً عليه السلام، وتعدوا عـلى حقه المنصوص عليـه من قِبل النبي صلى الله عليه وآله، لم يكونوا يشـعرون بأنهم بعملهم هذا قد أسـاؤوا إلى الإسـلام، وأن عملهم سـوف يـؤدي إلى هدم الكيان الإسـلامي، ولعلهم لـم يكـن لهم دقة نظر وفهـم لمنطق الأحداث ومنطق التاريـخ، ولم يكونوا يقدرون أنه بعد خمسـين سـنة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله سوف يشرب خليفة المسـلمين الخمر في بيته وفي قصره بسـبب عملهم هذا.

لكنهـم عـلى أي حـال كانوا يشـعرون بأنهم غصبـوا علياً عليه السلام حقـه، ولهذا أرادوا أن يـبرروا ذلك بينهم وبين أنفسـهم، وظهر هـذا على كلماتهم فقال عمر بأن رسول الله صلى الله عليه وآله حاول أن يولي علياً لكني أنا منعته إحتياطاً للإسلام وحرصاً على مصلحة الإسلام، لكن هذه التبريرات أنتجت إنحرافاً خطيراً في الثقافـة الإسـلامية، وهو أنه لا يلزم التقيد بما يقوله رسـول الله صلى الله عليه وآله، ولقد تبلور هذا المبدأ في نفوسـهم بالتدريج كتبرير للدفاع عن العملية التي قاموا بها، وانفتحت بقيامه كل البدع والاخطاء فلم ير عمر بن الخطاب مانعاً من أن يقول: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أنا أحرمهما وأعاقب عليهما، وانفتـح بعد هذا باب البدع على مصراعيه.

ولم تكن الامة قادرة على ممارسـة التوجيه والمراقبة للحاكم، بل كانت غير واعية وعياً مسـتنيراً يجتث أصول الجاهلية فيها وإنما كانت تحمل عواطفاً واحاسـيس ووعيـاً عاديـاً بحيث أنهـا لم تكن قـادرة على حمايـة التجربة الإسـلامية وعلى وضع حد للحاكـم والوقوف في وجهه.

نعـم ! كان مـن الممكن أن تبلغ الامة هـذه الدرجة من خلال التربية الطويلة التدريجية التي أسس لها وأرادها الله عز وجل، والمبتنية على أن يتوالى ائمة أهل البيت على قيادة الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، الذي قام بنقلها من الوثنية إلى التوحيد، فيقوموا هم بعملية بناء الأنسـال الجديدة المتطورة من الإنسـانية،

فكراً وسلوكاً في كل مجالات الحياة، وإذا كان الله تعالى قد عيّن اثني عشر إماماً وقائداً معصوماً بعد رسول الله لقيادة وتربية أمة العرب أو الدفعة الاولى التي ستكون الأمة الأولى، ثم الأمم المتناسلة منها واللاحقة بها، فهذا يعني أن بناء الانسانية وتغيير العالم، لكي يصبح عالماً تسوده العدالة ولا يعبد فيه غير الله تعالى، يحتاج إلى اثني عشر مرحلة بناء، توسعاً وتعمقاً، فيتحقق ما أراده الله تعالى حينما قال لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً! قَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟

قَالَ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ!

وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ: أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ !

قَالُوا: سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ !

قَالَ: يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ !

فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ[1].

فرسول الله وأهل البيت هم الاسماء، وهم الذين زرعهم الله تعالى في صلب آدم ولم يزرعهم في صلب الملائكة لأن الملائكة لا صلب لهم، فأدركهم آدم وعلمهم علماً حضورياً، فاستطاع أن ينبيء الملائكة بأسمائهم، ولم يستطع الملائكة أن يفعلوا ذلك! وهم الذين عيّنهم الله تعالى لبناء الأنسال النهائية للبشرية والتي سوف تختتم بإقامة دولة العدل العالمية التي لا يعبد فيها غير الله تعالى! هذا هو المشروع الإلهي وغيب السماوات والأرض الذي ادخره الله عز وجل جواباً على الإحتمالات التي طرحها الملائكة حينما رأوا من آدم أنه سوف

١- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآيات ٣٠-٣٣.

يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولكن هذا المشروع وُجّهت إليه ضربة في لحظة انتقاله، يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، من مرحلة التنزيل والتأسيس النبوي إلى مرحلة التنسيل والبناء الأولى على يد اول أئمة أهل البيت الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام! فتحققت مخاوف الملائكة وسفكت الدماء وأُفسد في الأرض! ولذلك كان هدف إقامة الحكومة الإسلامية، أو استرداد قيادة الدولة، دائماً، نصب أعين أئمة أهل البيت، علي والحسن والحسين عليهم السلام، الذين رابطوا، في المرحلة الأولى، على جبهة إسترداد قيادة الدولة، فكانوا حريصين على البقاء في دائرة الطبقة السياسية الأولى، ومواجهة مهام إسترداد الدولة أو الدفاع عنها حينما كانت بأيديهم، بالسياسة والسلاح، وطلبوا من الأمة أن تتبعهم وتتفهم موقفهم وتتعاطف معهم فجهروا بهدفهم ونوعه، وكانت الخلافة ما زالت في الخمسين سنة الأولى ذات وهج وتأثير، وما زال يمكن أن تحشد الأمة في سبيل تحقيق أهدافهم، ولكن على قاعدة أن الدولة ليست سوى وسيلة لتحقيق العدالة الاجتماعية وإقامة الدين، فهي في ذاتها لا قيمة لها. ولكن هذه الرسالة لأئمة أهل البيت لم تستطع أن تحقق الهدف الاساس في العمل السياسي، وهو الوصول إلى إقامة دولة العدل، سوى لخمس سنوات من حكم الإمام علي عليه السلام.

وبعده كان زمن إقامة دولة العدل يختلف من إمام إلى آخر، ليس بمعنى أن كل إمام منهم كان بصدد إقامة حكومة إسلامية في زمانه وعصره، بل المقصود هو أن كل إمام منهم كان جزءاً من البرنامج الالهي للإنسانية والذي كان هدفه يتضمن قطعا إقامة تلك الحكومة، وأما متى تتحقق هذه الحكومة فأمر آخر، إذ ربما تتحقق في عصره، أو في المستقبل القريب، أو البعيد. كل ذلك مرهون بنتائج السعي الجديد الذي سوف يقوم به أئمة أهل البيت وأتباعهم على جبهة الأمة الإسلامية وجبهة الحكومات الجائرة.

ولكن سعي ائمة أهل البيت لإقتلاع جذور دولة الإرهاب الأموي وإسترداد قيادة الدولة الإسلامية حال دونه القضاء في كربلاء بإعلان فوز الدولة الجائرة الإرهابية في السباق، حيث رمى أهل البيت بآخر ما لديهم من قوة، سبعين أو ثمانين رجلاً، وبقي ثلاثة أو أربعة، قتلوا بعد ذلك واحداً تلو ألاخر، وانتهت معركة كربلاء بانتصار المشروع الأموي بجعل الخلافة الإلهية قيصرية وكسروية. ولكن هزيمة كربلاء العسكرية لم تؤد الى بعثرة جهود أهل البيت وتشتيت شملهم وتمزيق صفوفهم، ولا إلى النتيجة التي كان يتوخاها الحاكمون، وهي التخلي النهائي عن حقهم الإلهي في قيادة الدولة، كما لم تستطع حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي، وثورة التوابين، وثورة ابن الأشعث، وثورات الخوارج المختلفة في العراق، التي نشبت ضد النظام الاموي، والضربات الأخرى التي وجهت إليه، أن تزحزح الجبل الأموي، فقد كانت محاولات غير تامة ولا كاملة، بل كان يشوبها النقص والثغرات المختلفة، السياسية والتنظيمية والعقائدية والعسكرية، واتصفت بالتفكك، ومعاداتها لبعضها البعض، وسوء تقدير الموقف وعدم توفر قيادة حكيمة لها، واستعجالها وارتجالها.

وعندما لا تكون الضربة الموجهة إلى دولة الجور تامة وكاملة، وتنجز عملية إسقاطه قبل أن يلتقط أنفاسه، فإن النظام الجائر سوف ينظم قواته، ويستفيد من قوته الامنية والسياسية ويستنفرها إلى اقصى الدرجات، وينقض على اعدائه وينتزع منهم زمام المبادرة، خصوصاً إذا كان ذا جذور سياسية وأمنية راسخة، وكان أعداؤه متفرقين بل معادين لبعضهم البعض، فسوف ينقض عليهم واحداً تل الآخر، وسيصبح كالنمر الجريح فتكاً وتنكيلاً، وسوف يزداد خبرة ومراناً وتجربة على جميع المستويات، كما سوف يترك تكرر الفشل في إسقاط النظام الطاغوتي الجائر أثراً سلبياً

في نفـوس المعارضين والتواقـين للحرية فيكبر اليـأس والقنوط من إحداث تغيـير في النظـام الظالم، مما سـوف يجعل عملية إسـقاطه بعـد ذلك أكثر صعوبة، وتحتـاج إلى جهد مضاعف.

وكان واضحـاً لأئمـة أهل البيت أن الدولة الأموية قـد تطورت تطوراً حاداً وتحولت إلى دولة راسـخة أمنية وإرهابية، ابتداءً من أيام مؤسسها معاوية المدعـوم من عمر بـن الخطاب وعثمان بن عفان ونهايـة بأيام عبد الملك بن مروان الذي استطاع أن يبطش بكل أعدائه بأن يستفردهم واحداً تلو الآخر وهم لم يسـتطيعوا توحيد قوتهم للأسباب التي ذكرناها أعلاه.

أمام هذا الواقع استخلص أئمة أهل البيت عليهم السلام نتيجة كلية هي أن اقتلاع بني أميـة يحتاج إلى أمة قادرة مؤمنة تسـتطيع أن تجـرف ذلك الجبل، وأن من الخطـأ بمكان أن نفرِّط بهـذه الأمة، وأن نقذف إلى آتون الصراع معها بكل مجموعة واعية تهتدي إلى الطريق. إذن! أصبح ممنوعاً عند أهل البيت عليهم السلام أن يبـادر كل مئة رجـل أو أكثر أو أقل إلى الإنتفاضة والقيام بحركة مسـلحة، فيقتلون ويتركون الدولة الأموية أكثر قوة ومنعة ويتركون الحركة الثورية أشدّ يأساً وقنوطاً.

من هنا حدَّد أهل البيت، في المرحلة الثانية، بعد كربلاء، اسـتراتيجية جديدة لمواجهة كل طواغيت الزمان، وليس فقط الدولة الأموية، بل كل نظام ظالم ينشـأ عبر التاريخ. وهي الكف عن اسـتراتيجية المرابطة على تخوم إسترداد الدولة عبر الخطاب العام وشهر السلاح، وأعتماد أساليب العمل التي كانوا قـد اعتمدوهـا في المرحلة الأولى، وبدأوا بما كان مـن المفروض أن يبدأوا به يوم وفاة رسول الله رضي الله عنهما، ولكن منعتهم حوادث السقيفة، ألا وهو بناء الأمة الواعية العارفة بهم وبدورهم، وبوزنهم عند الله وبانهم قادة الأمة الواجب عليها طاعتهم والإقتداء بهم.

ولذلك كان عملهم في هذه المرحلة استراتيجياً بعيد المدى، ليس من الضرورة أن تتحقق نتائجه في عصر أي منهم، بل يمكن أن تتحقق في عصر الغيبة، وهي قيام أمة مسلمة مطيعة ومنقادة لأوامرهم ولو لم يكونوا ظاهرين، وقيام كادر نخبوي طليعي يقود هذه الأمة ويسترد بها القيادة المغتصبة للدولة. فهم، إذن في هذه المرحلة الثانية كانوا يحتاجون إلى إعداد سابق من دعوة وتنظيم وتحريض، فكان ينبغي تقديم فكرة واضحة أيضاً للأمة لكنها لا تتحدث عن السلاح ولا تقترب منه طوال ما تقتضيه من زمن، ولذلك ترك أهل البيت في هذه المرحلة الثانية التعرض لذكر الثورة المسلحة حتى تحت شعار التحضير والإعداد، حذراً من الخلط بين طورين في العمل، إذ سوف يؤدي ذلك إلى التسبب بضربة مبكرة للعمل من قِبل الحاكم الأموي فتتم مواجهته في معارك غير متكافئة، خصوصاً وان أهل البيت قد قدموا بين يدي الثورة والشهادة آخر دفعة كانت في أيديهم، وأي إنتفاضة أو ثورة أخرى سوف تودي بكل ما تبقى من الشيعة، وهذا اقرب إلى المغامرات والتهور منه إلى العمل الواعي. كذلك يعني هذا وقوع أهل البيت في أزمة مع الحاكم الأموي من جهة تعدد خطابهم، إذ سوف يقوم الدليل عنده أنهم يقودون الثورة المسلحة سراً، وبما أن العمل الثوري في عصر حضور وظهور أهل البيت كان ذا سمة تزيده صعوبة وهو ظهور وانكشاف القيادة العامة لهذا العمل وهم الأئمة شخصياً، فقد كانت إزدواجية الخطاب تحمل مشكلة المواجهة المبكرة مع النظام مما كان يؤدي إلى إمكانية توجيه ضربة مركزية لرأس أهل البيت في كل زمان وبالتالي تراجع الحركة الثورية. ولذلك نجد الإمام علي بن الحسين ﷺ يعبر عن خشيته على الشيعة، الذين هم الصفوة في الأمة الإسلامية، والذين كانوا يتعرضون لمختلف أنواع الاضطهاد، والبلايا في الدولة الأموية، فكان يظهر تذمره من عدم مراعاتهم للظروف والمناسبات،

وهـو يـرى حـدة اندفاعهم نحو إظهار أمرهم، بسـبب شـعورهم بضرورة إبلاغ كلمة الحق، فقال: «وددت أني افتديت خصلتين في الشيعة ببعض لحم ساعديّ: النزق وقلة الكتمان»(١).

وما بدا من عدم إقدام أئمة أهل البيت على عمل مسـلح ضد الوضع الحاكم، سـاعد على تصور اعتزال الائمة وتخليهم عن الجانب السياسي من قيادتهم، وهـذه الفكـرة تعتمد على إعطاء الجانب السـياسي من القيـادة معنى ضيقا لا ينطبـق إلا عـلى العمـل المسـلح، مع أن كل إمـام من أئمة أهـل البيت كان دائما مسـتعدا لخوض عمل مسـلح إذا وجدت لديه القناعة بوجود الانصار والقدرة على تحقيق الاهداف الاسـلامية من وراء ذلك العمل المسـلح(٢).

وفي نصـف القـرن الاول بعد وفـاة النبي صلى الله عليه وآله كانـت قيادة أهـل البيت، بعد إقصائها عن الحكم، تقف على ثغور محاولة اسـتعادته، معتمدة على قواعد شـعبيه واعيـة، أو في طريـق التوعيـة من المهاجريـن والانصـار والتابعين باحسان، ثم حمايته والدفاع عنه معتمدة على دائرة التشيع السياسي الكبرى التي أحاطت بها.

ومنـذ اللحظـة الأولى للإنهيـار في السـقيفة، وحتـى في حالـة عـدم وجـود الظـروف الموضوعية والذاتية المؤاتية لخوض المعارك من أجل تسـلم زمام الحكـم مـن جديد، كان أئمة أهل البيت، الى جانب سـعيهم الدؤوب من أجل اسـترداد الدولة، يعملون على إيجاد قواعد واعية في الأمة، وتعميق الرسـالة فيها فكرياً وروحياً وسياسياً لبناء مناعتها ومنع إنهيارها. وكان ذلك جزءاً مـن السـعي العظيم الذي يصـب في خانة محاولة اسـترداد الدولة ومنصب الإمامـة، فقد كانت الحكومـة أول وأهم هدف لأهل البيت.

١- سـفينة البحـار، ج١ ص٧٣٣. بحـار الأنـوار، ج٦٨ ص٤١٦. وج٧٢ ص٦٩. وج٧٥ ص٦٩،٧٢. عن الخصـال ج،١ص٢٤. الكافي، ج٢ ص٢٢١.

٢- الكافي، ج٢،ص١٩٠، باب في قلة عدد المؤمنين، الطبعة الاسلامية طهران، ١٣٨٨هـ.

ولكـن بعد نصف قـرن، وبعد أن نشـأت الدولة الإرهابيـة الأمنية الأموية، وبعـد أن نشـأت أجيال مائعـة[١] في ظل الانحراف، لم يعد بإمكانهم تسـلم السـلطة، فكان لا بد من العمل من أجل بناء القواعد الشـعبية الواعية التي تهيء ارضية صالحة لتسـلم السلطة..

فـترك الائمة إذن العمل المسـلح بصورة مباشرة ضد الحـكام لم يكن يعني تخليهـم عن الجانب السـياسي من قيادتهم وانصرافهـم الى العبادة، بل كان ترتيباً لأولويات العمل، وكان أول من أسس لتنظيم أولويات المواجهة للنظام المتسلط هو الإمام علي عليه السلام، عندما أصدر توجيهاً استراتيجياً لشيعته، يعلمهم فيـه كيـف يهادنون العـدو الثانوي عندمـا يكون هناك عـدو رئيس ينبغي تسـليط النـار عليه، فقال: لا تقاتلوا الخوارج بعـدي، فليس من طلب الحق فأخطـأه، كمن طلـب الباطل فأصابه. وكان أهل البيت يقولون لشـيعتهم: مـا زالـت الزيدية لكم وقاء أبـداً، وذكر من خرج من آل محمـد أمام الامام الصـادق عليه السلام، فقـال: لا أزال أنـا وشـيعتي بخـير ما خـرج الخارجي من آل محمـد، ولـوددت أن الخارجي من آل محمد خـرج وعلي نفقة عياله[٢].

هـذه هـي ركيـزة المرحلـة الثانيـة التـي تبتـديء مـن أوائـل حيـاة الإمام زيـن العابديـن عليه السلام حينمـا كان وحيداً أسـيراً مغلولاً يوم الحـادي عشر من المحـرم، بعـد معركـة كربلاء، وقد كاد يفنى الشـيعة ولم يبق منهم سـوى ثلاثـة أو أربعـة، فبدأ عمل عظيـم جديد لأهل البيت عليهم السلام، زيـن العابدين عليه السلام، والباقـر عليه السلام، والصادق عليه السلام، متناسـق مع بعضه البعض، يشـكل كياناً فكرياً

١- راجع ما احدثته السياسـة الاموية في اوسـاط الامة من نشر اللهو وإشـاعة المجون وشرب الخمر ثم اسـتخدام سياسـة البطش والقمع ضد كل المناوئين. مروج الذهب، ج٣ ص٢١٤ وما بعدها. العقد الفريـد، ج٥ ص٢٠٠، ٢٠٢. الاغانـي، ج٧، ص٦. وراجـع حـول عبـث الامويين في الامـوال: العدالة الاجتماعية في الاسـلام، سيد قطب.

٢- السرائر، ابن ادريس، مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ج٣،ص٥٦٩.

وسياسياً وتنظيمياً واحداً متماسكاً ويسير حسب خطة واحدة، على جبهة النظام الأموي والعباسي، وعلى جبهة الأمة، ما أن انتهت المرحلة الثانية سنة ٨٤١هجرية حتى أوصل التشيع لأهل البيت إلى الذروة والكمال وتمام النضوج على مستوى العقيدة والأصول والفروع، كما نشر التشيع لهم في أصقاع الأرض، وغدا الشيعة، رغم ثمانية وثمانين عاماً من الحصار، أمراً واقعاً مسلّماً في كل بقعة من بقاع هذا العالم.

فلم يعتزل أئمة أهل البيت، من أبناء الامام الحسين عليه السلام، السياسة، بعد مذبحة كربلاء، ولم ينصرفوا الى الارشاد والعبادة، والانقطاع عن الدنيا، بل أداروا معركة استرداد الدولة الإسلامية من النظام الجائر المستولي على السلطة، ولكن على المدى الطويل الذي لا ينحصر بزمنهم، واضطروا إلى سحب العمل العسكري وشهر السيف من التداول، وعدم التورط في مواجهة عسكرية مباشرة مستعجلة مع الدولة الأموية أو العباسية! وعملوا، على بناء وتأسيس قواعد الظرف الذاتي المستعد والمهيّأ، عندما تهب الرياح المؤاتية، وينشأ الظرف الموضوعي المناسب للأنتقال من التكتل ذي الأبعاد الدينية إلى إقامة دولة العدل والإنصاف التي أمر الله بها. فدار عملهم على ثلاثة محاور، بناء أس الإمامة، وبناء الكتلة الشيعية، والنخر الدائم لبدن وكيان الدولة الجائرة.

المحور الأول

بناء أس الإمامة

ويـدور حوله دفع الشـبهات عنها وإعادة تنظيم ركائزهـا الفكرية، وطرح إمامة أهل البيت، وتبنيها، والدعوة إلى أنفسهم، وإعلان إمامتهم، وأن بها تقبل الأعمال، ونفي إمامة غيرهم، والتكتم على الإمام الجديد في كل مرحلة إنتقالية، وتبيان الطرق التي اعتمدوها لإثبات الإمامة وتوجيه أنظار الشـيعة إليهم، وحل الإشكاليات التي حصلت مع ابن الحنفية وزيد والحسنيين والعباسيين. وهـذا أخطـر محاور عمل أهل البيت بعد كربلاء، وأشـدها حساسـية، لأنها هي التي كانت تكلفهم حياتهم. فقد كانت إمامة علي بن أبي طالب والحسن والحسـين لا إشـكال ولا ريـب فيها ليـس بنص القرآن والنبي صلى الله عليه وآله وحسـب بل كانت هي السـائدة والمنتشرة والمعروفة في أوسـاط المسلمين واقترنت في أذهانهـم بالحكم والقيادة السياسـية للأمة والدولة، فجـاءت وقعة كربلاء لتقصـم ظهـر دعـوى الإمامـة في أهل البيـت بمقتل الحسـين عليه السلام فقد كانت مؤونـة علي بن الحسـين عليه السلام في ذلـك هي النص فقط دون الشـهرة والإقرار العام والإنتشـار، فهان في أعين الناس، بل في أعين حتى أقرب المقربين إليه، فهـا هو الحسـن المثنى الـذي قاتل بـضراوة في كربلاء تحت قيـادة (إمامه الحسـين عليه السلام) يتصرف بنحو سيء جداً مع الإمـام زين العابدين عليه السلام، وها هو محمـد بـن الحنفية يدَّعيها لنفسـه، وها هي الأمة تخاطـب يزيد! ومروان! وعبـد الملك! وكل حثالات بني أمية وبني العباس بلقب(إمام). فنشـبت بعد كربلاء، إضافة لمآسيها، معركة إعادة الإعتبار لمسألة أن الإمامة في أهل البيت دون سـواهم. فإن مفهوم الإمامة يشـكل ركناً أساسـاً من أركان العقيدة، ومبدأً خطيراً من مبادئ الحياة السياسية والفكرية والإجتماعية في الإسلام، وفي الحياة الإنسـانية، فالإسـلام نظـام حكم، ومنهج سياسـة، وقيادة أمة،

وقانـون حياة، وطريقـة عبادة، وهو لا يفصل بين السياسـة والعبادة أبداً، بل السياسـة عنده عبادة، لأنها الرعاية والإهتمام بشؤون الأمة وقيادتها في طريق الهدى والوصول بها إلى غايات الشريعة من إصلاح البشرية ومكافحة الفسـاد والرذيلة وتربية الإنسان تربية ربانية.

وليسـت الإمامـة مقابـل الخلافـة والحكومة بل هـي منزلة الأنبيـاء وإرث الأوصياء، فالإمام هو الزعيم السـياسي في المجتمع الإسـلامي الذي يجب أن يكـون منصوباً من الله، بإعلان مـن النبي صلى الله عليه وآله، ويجب أن يكون قائداً فكرياً ومفسراً للقرآن وعالماً بكل دقائق الدين ورموزه، ويجب أن يكون معصوماً مـبرءاً من كل عيب خلقي وأخلاقي.

وهـو قائـد المجتمع، الذي نتعلم منه الدين وتكـون بيده إدارة الدنيا، بحيث تكون إطاعته في أمور الدين والدنيا واجبة، فالإمام الصادق عليه السلام عندما كان يخاطـب النـاس في منى أو عرفـات بقوله: « أيها الناس إن رسـول الله هو الإمـام « كان يشـير إلى أن الإمام هو ذلك الإنسـان الذي يتـولى أمور الناس الدينية والدنيوية...

وبذلـك فإن الإمامة كانت في العرف الإسـلامي خلال القرنين الأول والثاني تعني القيادة أيضاً، وليسـت كما يراها أصحاب النظرة السـطحية مفهوماً منحصراً بالأمور المعنوية والروحية والفكرية، بل إنها في الفكر الشـيعي « قيادة الأمة « في شؤون دنياها وما يرتبط بذلك من تنظيم للحياة الإجتماعية والسياسية، وأيضاً في شؤون التعليم والإرشاد والتوجيه المعنوي والروحي وحل المشاكل الفكرية وتبيين الفكر الإسلامي.

وكانت حقيقة مسألة الإمامة قد ابتعدت عن أذهان الناس، واتخذت اتجاها منحرفا بعيدا عن الاصول الاسلامية بسبب ما تعرضت له سنَّة النبي صلى الله عليه وآله من التزوير والكذب، وبسبب أحاديث نسبت الى النبي صلى الله عليه وآله تأمر المسلمين بطاعة

كل من يسمي نفسه إماماً مطلقا، مثل هذا الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وآله: « لا تكفروا أهل ملتكم وإن عملوا الكبائر، وصلوا خلف كل إمام وصلوا على كل ميت وجاهدوا مع كل أمير»[١]. ومثل:» إذا كان الامام عادلا كان له الاجر وعليك الشكر. وإذا كان جائرا كان عليه الوزر وعليك الصبر[٢].

وجلس الحسن البصري في مسجد البصرة وأمامه جموع غفيرة، وأفتى بوجوب طاعة الملوك الأمويين، وبأنه « لا يستقيم الدين إلا بهم وإن جاروا وإن ظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون « حتى قيل: لولا لسان « الحسن « وسيف « الحجاج « لوئدت الدولة المروانية في مهدها. وخاطبهم يروي لهم الحديث قائلاً: « قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تذموا الولاة لأنهم إذا أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وإن أساؤوا فقد عصوا وعليكم بالصبر ! وهم عذاب الله ينتقم بهم ممن يشاء، فلا تستقبلوا عذاب الله بالعصبية والسخط، بل استقبلوه بالخضوع والتضرع».

لذا كان من الضروري عند أهل البيت توضيح مسألة الامامة للناس لتقبلها أذهانهم، ففي المجتمع الإسلامي أيام حكم عبدالملك بن مروان وفي عصر الإمام زين العابدين عليه السلام كان معنى أن الإمامة في نظام الدولة الإسلامية هو أعلى المناصب الحكومية، يفهم بشكل خاطئ، لأن امامة المجتمع وهي إدارة شؤون حياة الناس قد سلبت من أهلها وأعطيت إلى من لا أهلية لهم بها، ولذا كان الحكام يسمون أنفسهم أئمة للناس، وأمراء للمؤمنين، بلا منازع. فالناس كانوا يُطلقون لقب الإمام على عبد الملك، ومن قبله أبيه، وقبلهما يزيد وغيره، وقد قبلوهم على أساس أنهم قادة المجتمع وحكام الناس، حتى فقهاء أهل العامة كانوا يطلقون لفظ الامامة على حكام بني العباس وبني أمية، ففي شرح الموطأ جاء أن رأي مالك وجمهور السنة على

١- سنن ابن ماجة، ج١ ص٤٨٨. مجمع الزوائد، الهيثمي، ج١ ص١٠٦. المعجم الأوسط، الطبراني، ج٣ ص١٧٥.
٢- عيون الأخبار، ابن قتيبة، ج١ ص٥٥. نهاية الارب في فنون الأدب، النويري، ج٦ ص٣٤.

أنه: إذا ظلم الإمام فالطاعة أولى من الخروج، فلا يستطيع أحد غير الحاكم أن يدعي لنفسه منصب الإمامة، إلا إذا لم يعترف بالحاكم ولا حكومته، ومعنى هذا الادعاء أنه معارض للنظام ولمقام الخليفة نفسه، وكان الشيعة أول وآخر من دفع ثمن ذلك، فتعرضوا لأبشع التنكيل، وأصبحوا عبرة لكل من يقول بالإمامة، وانتشر بين العامة أن القول بالإمامة من مختصات الشيعة المعارضة للسلطان، الروافض، الخارجة عن الجماعة، فكان الشيعة بحاجة للقائد الذي يشد العزائم ويشحذ الإرادات، فكان على الإمام زين العابدين عليه السلام آنذاك أن يُبين للناس معنى الإمامة وشروطها وجهتها، وما هي الأمور المفروض توفُرها في الإمام وما هي الأمور التي بفقدانها لا يمكن أن يكون الشخص أماماً. ولذلك، أثناء عرض زين العابدين عليه السلام للعقائد الأصيلة والمطالب الأساسية للإسلام كالتوحيد والنبوة والقرآن، كان يبين هذه النقطة الأساسية بقوله: إنك ستسأل عن إمامك في القبر، فهل اخترت الإمام المناسب والصحيح ؟ وهل أن ذلك الشخص الذي كان يحكمك ويقود المجتمع الذي تعيش فيه هو حقاً إمام ؟ وهل هو ممن رضي الله عنه ؟ فكان على الإمام عليه السلام أيضاً أن يعلن نفسه (إماماً) بكل وضوح وصراحة ومن دون أية تقية وخفاء، لأن عدم إعلان ذلك سوف يؤدي بالعقيدة إلى تضعضع لم يسبق له مثيل! وإلى يأس في النفوس، ولأن فساد بني أمية وخروجهم عن الإسلام، وعدم صلاحيتهم لحكم المسلمين وإدارة البلاد، فضلا عن الإمامة، بلغ من الوضوح ما لم يمكن ستره على أحد! فكان من اللازم على الإمام زين العابدين عليه السلام، رغم الخطر المحدق به بسبب جور بني أمية وطغيانهم وقسوتهم في مواجهة المعارضين، أن يعلن عن إمامته وإمامة أهل بيته، كي تنكسر دعوى بني أمية ويقدّم للأمة النموذج الصحيح للإمام، وإن لم يكن هذا الإمام حاكماً فعلاً, وإلاّ فسوف ينحط هذا المنصب انحطاطاً لا صعود

بعـده.. لذلـك كان إعلان الإمامة أهم ما يرتبط باسـتمرار العقيدة! وسـببا للملمة الكتلة الشـيعية مـن جديد، ورص الصفوف ثانية، واسـتعادة الثقة بالنفس، والتركيز على ترسـيخ القواعد الأصلية للإسـلام من أن تحرف أو يشـوبها التشـويه لتكوين الأرضية الصالحة لبذر علوم آل محمد على أيدي الأئمة الآتين، لا سـيما الباقر والصادق عليهما السلام.

فقـد رأى أبـو المنهال نصر بـن أوس الطائي الإمام زيـن العابدين، فقال له الإمـام: إلى من يذهب الناس ؟

قال: يذهبون هاهنا وهاهنا !

قال الإمام: قل لهم يجيئون إلي[١].

وقال له أبو خالد الكابلي: يا مولاي ! أخبرني كم يكون الأئمة بعدك؟

فقال: ثمانية، لأن الأئمة بعد رسـول الله صلى الله عليه وآله اثنا عشر إماما، عدد الأسـباط، ثلاثـة مـن الماضين، وأنـا الرابع، وثمانيـة من ولدي، أئمة أبـرار، من أحبنا وعمـل بأمرنـا كان في السـنام الأعـلى، ومن أبغضنـا أو رد واحـدا منا فهو كافر بالله وبآياته[٢], نحن أئمة المسـلمين، وحجج الله على العالمين، وسـادة المؤمنـين، وقـادة الغر المحجلين، وموالي المؤمنين، ونحـن أمان أهل الأرض، كما أن النجوم أمان لأهل السماء، ولو ما في الأرض منا لساخت بأهلها، ولم تخل الأرض، منذ خلق الله آدم، من حجة لله فيها، ظاهر مشـهور أو غائب مستور، ولا تخلو، إلى أن تقوم الساعة، من حجة لله فيها، ولولا ذلك لم يعبد اللـه[٣]. نحـن أفراط الأنبياء، وأبناء الأوصيـاء، ونحن خلفاء الأرض، ونحن أولى الناس باللـه، ونحن أولى الناس بدين الله[٤].

١- تاريخ مدينة دمشق، الحديث٢١. مختصر تاريخ مدينة دمشق، ابن منظور، ج١٧،ص٥٣١.

٢- كفاية الأثر، الخزاز ص٢٣٦، ٢٣٧.

٣- أمالي الصدوق، ص١١٢. الاحتجاج ص٣١٧.

٤- بلاغة علي بن الحسين، جعفر عباس الحائري ص٦٠. الصحيفة السجادية، الدعاء رقم٤٧.

وكان يقـول في دعائـه يوم عرفة: اللهم ! إنك أيـدت دينك في كل أوان بإمام أقمتـه علمـا لعبادك ومنـارا في بلادك بعد أن وصلت حبلـه بحبلك، وجعلته الذريعـة إلى رضوانك، وافترضت طاعته، وحذرت معصيته، وأمرت بامتثال أوامره، والانتهاء عند نهيه، وألا يتقدمه متقدم، ولا يتأخر عنه متأخر، فهو عصمـة اللائذين، وكهف المؤمنين، وعروة المتمسـكين، وبهاء العالمين. اللهم فـأوزع لوليـك شـكر ما أنعمت به عليـه، وأوزعنا مثله فيـه، وآته من لدنك سـلطانا نصيرا، وافتح له فتحا يسـيرا، وأعنه بركنك الأعـز، وأقم به كتابك وحدودك وشرائعك وسنن رسولك صلواتك، اللهم، عليه وآله، وأحيي به ما أماته الظالمون من معالم دينك، وأجل به صدأ الجور عن طريقتك، وابن به الضراء من سـبيلك، وأزل به الناكبين عـن صراطك، وامحق به بغاة قصدك عوجا، وألن جانبه لأوليائك، وابسـط يده على أعدائك[١].

وهكـذا! يحـدد الإمـام بكل جـرأة ما يجـب أن يكون عليه الإمـام الحق من صفـات، ومـا يجب عليه وما له من حقوق، ويترك لقاريء دعاءه وسـامعه اسـتنتاج أنـه لا يوجـد شيء منها عنـد كل من يدعي الإمامة من السـلاطين والفراعنة المنغمسـين في الرذيلة والظلم والجهـل، في كل زمان ومكان، وأن أهـل البيت يتفردون بذلـك دون غيرهم! فكان يقول في دعائه ليوم الجمعة، والأضحـى: اللهـم إن هذا المقـام لخلفائك، وأصفيائـك، ومواضع أمنائك في الدرجـة الرفيعـة التـي اختصصتهم بها، قـد ابتزوها، وأنـت المقدر لذلك لا يغالـب أمـرك. حتى عاد صفوتـك وخلفاؤك مغلوبـين، مقهورين، مبتزين، يـرون حكمك مبـدلا، وكتابك منبوذا، وفرائضك محرفـة عن جهة إشراعك، وسـنن نبيك متروكة. اللهم العن أعداءهم من الأولين والآخرين، ومن رضي بفعالهم وأشـياعهم، وأتباعهم[٢].

١- الصحيفة السجادية، الدعاء رقم٤٧.

٢- الصحيفة السجادية، الدعاء رقم٤٨.

ثـم يعلن الإمام بأن ادعاء الإمامة لمن ليسـت لـه من الذنوب الكبرى التي يعاقب الله عليها بالنار فيقول لولده محمد الباقر: بني! إني جعلتك خليفتي من بعدي، لا يدعيهـا في مـا بيني وبينك أحد إلا قلده الله يوم القيامة طوقا من النار[١]. بل، يعلن خلافة ولده الباقر وإمامته بحيث يصل الكلام إلى أذن الأمويين، فقد دخل عليـه الزهـري، وهو من علمـاء البلاط الأموي، في مرضه الـذي توفي فيه، فقال له: يا بن رسول الله، إن كان أمر الله، ما لا بد لنا منه، فإلى من نختلف بعدك ؟

فقـال عليه السلام: يـا أبـا عبد اللـه، إلى ابني هذا، وأشـار إلى محمـد الباقر عليه السلام، فإنه وصيـي، ووارثي، وعيبـة علمي وهو معـدن العلم وباقره.

قال الزهري: هلا أوصيت إلى أكبر ولدك ؟

قـال عليه السلام: يـا أبا عبد اللـه، ليسـت الإمامة بالكـبر والصغر، هكذا عهـد إلينا رسـول الله صلى الله عليه وآله وهكـذا وجدنـاه مكتوبا في اللـوح والصحيفة.

قال الزهري: يا بن رسول الله، كم عهد إليكم نبيكم أن يكون الأوصياء بعده ؟

قـال عليه السلام: وجدنـاه في الصحيفة واللوح (اثنا عشر اسـماً) مكتوبـة إمامتهم. يخـرج من صلب محمد ابني سـبعة من الأوصيـاء فيهم (المهدي)[٢].

وفي سيل وافر من الاحاديث والاخبار يقوم أهل البيت بشرح مفهوم الامامة وإعطائها عمقا من المعاني، وأن بإمامتهم تقبل الأعمال: (إن الإمامة خلافة الله وخلافة الرسـول ومقام أمير المؤمنين، وميراث الحسـن والحسـين، إن الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين، إن الإمامة أسّ مـن الإسـلام النامـي، وفرعه السـامي، بالإمـام تمام الصـلاة والزكاة والصيـام والحـج والجهـاد، وتوفـير الفـيء والصدقات، وإمضـاء الحدود والأحكام ومنـع الثغور والأطراف)[٣].

١- كفاية الأثر، الخزاز ص٢٤٠، ٢٤١.

٢- كفاية الأثر ص٢٤٣.

٣- الكافي، ج١ ص٢٠٠.

وقـد أدى موقـف الأئمة هـذا الى بغض وعـداء الحكام المتعاقبـين لهم، فقد فهمـوا وأدركوا ما يقوم به الأئمة من أعمال وتبليغ، ولذلك كانت معاملتهم للأئمة تتشـابه من حيث القهر والإضطهـاد، وكانت خلفية هذا العداء وهذا القهر والاضطهاد هو الخوف منهم والحسـد لمقامهم المعنوي ولحب الناس لهـم، لأن العلمـاء والزهّـاد، مـن أمثال أبي حنيفة وأبي يوسـف والحسـن البصري وسـفيان الثوري ومحمد بن شـهاب، كانوا كُثراً، وكانوا معروفين بـين النـاس، وكان لهم الكثير مـن المحبين والأصحاب والأتبـاع والمريدين، ومع ذلك فإن الحكام والسـلاطين لم يحسـدوهم ولم يبغضوهم، بل كانوا يحبـون بعضهم، بينمـا كانوا يعادون أهـل البيت عداوة انتهـت إلى قتلهم، لا لسـبب إلا لمطالبتهم بحقهم الالهي في الإمامة والخلافة وهذا ما لم يدعيه الآخـرون، فعلى مدى مئتي سـنة، وهي الفترة الممتـدة من واقعة كربلاء إلى الغيبة الصغرى كانت نشاطات ائمة أهل البيت والأحداث المتعلقة بهم دائماً من أخطر ما تواجهه أنظمة الخلافة المتعاقبة ويهدد كيانها، بحيث أنه غالباً ما كانت تتلقى حركات التشـيع ضربة قاسـية من خلال الحصار والهجوم على المحور الأسـاسي والأصلي للثورة والذي يمثل شـخص الإمام.

ولذلك كان الإمام في كل زمان غالباً ما يحاصر ويُزَجَّ به في السجن أو يُقتل. وعندمـا يصـل الدور إلى الإمام الذي يليه، كان يواجه جواً شـديد من القمع مليئـاً بالضغوطـات إلى حد أنه كان يحتاج إلى فـترة طويلة لتهيئة الأرضية من جديد. والأئمة، في هذا الخضم من المصاعب كانوا يعبرون بالتشـيع من هـذه المحطات الصعبـة والخطرة بسرعة وثبات، وبذلك لـم يتمكن الخلفاء الأمويون والعباسـيون من أن يقضوا على فكرة الإمامة وتأثيرها وفاعليتها من خلال القضاء على شـخص الإمام. فبقي هذا الفكر نورا يهدي، وجرحاً عميقاً في خاصرة خلفاء أنظمة الجور، ومصدر تهديد يسـلب منهم الراحة.

وهكـذا! كان طـرح وتبيـين إمامتهم، والدعـوة إليها أهـم وأول عنصر من عنـاصر نخـر بدن النظام الظالـم، فينبغي أن يقال له: لسـت شرعياً، وأنت مغتصب لمنصب ليس لك، حتى ولو أدى الأمر إلى قتل الإمام الحقيقي، لأنه لو سلّم بإمامته ولم يطرح إمامة نفسه فسوف يخسر نفسه ويقتل ويخسر شرعيـة الإمامـة إلى الأبـد، هو والأئمة الآتـون بعده، فكان صـدم المغتصب للإمامـة بأنـه ليس إمامـاً وأن الإمام هذا هو، أصعب مهمـة أمام أهل البيت لأنهـا كانت هي السـبب المباشر دائمـاً في قتلهم..

التكتم على الإمام الجديد في كل مرحلة إنتقالية

ولأن الإمامة كانت سـلاحاً ماضياً ينخر بدن الظالمين، أصبح التستر ووقاية وحفـظ الإمام مـن أولى المهمات، فكان أئمة أهل البيـت يتكتمون على الامام الجديـد حتى يتم الإنتقال، ويعرفه الشـيعة، وبعد ذلك يجري الإعلان، فقد تكتم الامام الحسـين عليه السلام على إمامة ولـده زين العابدين عليه السلام حتى على محمد بن الحنفية والمقربين مثل الحسـن المثنى! ولقب ولده الاوسـط بعلي الاكبر حتـى إذا استشـهد في كربـلا يظن الأعـداء أنهم قتلوا الـوصي! وعندما توفي الامام الصادق عليه السلام قال أبو جعفر المنصور لأحد أعوانه: هذا كتاب محمد بن سـليمان والي المدينة يخبرني أن جعفر بن محمد قد مات، فإنا لله وإنا إليه راجعـون وأين مثل جعفر! ثم قال له: اكتب!

«إن كان أوصى إلى رجل بعينه فقدمه واضرب عنقه».

فرجـع الجـواب من والي المدينة أنه أوصى إلى خمسـة: أبـي جعفر المنصور ومحمـد بن سـليمان وعبدالله ومـوسى بن جعفر وحميـدة، فقال المنصور: ليس إلى قتل هؤلاء من سـبيل.

ويبـدو من وصية الإمام الصادق عليه السلام لهؤلاء الخمسـة أنه كان يقدر حراجة الموقـف ويخاف على خليفته من أولئك الطغاة فصاغ وصيته على هذا النحو

وأخـبر ثقاة أصحابـه بخليفته الشرعـي وأوصاهم بالتكتـم حتى عن عامة الشـيعة ريثما يتهيأ الجو المناسب.

والملاحـظ هنـا، أن الكـوادر الرئيسـة للتنظيم الشـيعي في كل مـكان كانت تقف في هذه المحطة التاريخية، قبيل استشـهاد أي إمام من ائمة أهل البيت، وتسـأل الإمام عن القائد الجديد فكان يعرّفها عليه فتتم عملية الإتصال، ثم يتم نقل إسم الامام القائد إلى كل قواعد الشيعة المنتشرة، بل يظهر من هذه المحطـات أن هـؤلاء الكـوادر كانوا مزودين بحاسـة عميقة اكتسـبوها من الإمام السـابق تسـتطيع لوحدها كشف التزوير واكتشـاف الإمام الحقيقي والدعوة له ومواجهة عناصر الإنحراف كما حصل مع أركان الواقفية الذين طمعـوا في المال فوقفوا على الإمام مـوسى الكاظم عليه السلام وادعوا أنه لم يمت.

الطرق التي اعتمدها أئمة أهل البيت لإثبات الإمامة:

لم يكن ائمة أهل البيت يستعملون التقية في إثبات أنهم الأحق بالإمامة، وإثبات النص على علي عليه السلام، رغم خطورة ذلك على حياتهم، بل اسـتفادوا من بعض الأساليب لإقناع الناس بهذا الأمر الخطير، ولكنهم كانوا يركزون في إثبات ذلك على إظهار أن لديهم مميزات وعلوماً خاصة، ورثوها عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي:

أولاً: النـص، ويبتـدئ من النص على الإمام علي بـن أبي طالب عليه السلام بالخلافة من رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

ثانيـاً: الوصية بالامامـة، وفي حالة غياب النص الواضح على أحد الأئمة، يتم الاسـتدلال على «الإمام» بالوصية العادية من أبيه عليه، كما حدث مع الإمام زيـن العابدين أو الباقر أو الصادق أو بقية الأئمة[2].

ثالثـاً: إتيـان المعاجز والخـوارق للطبيعة، وكان أهل البيـت يلجأون إلى ذلك لإثبـات الإمامـة في حالة غمـوض الوصية أو عـدم وجودها كمـا حدث مع

١- الكافي، كتاب الحجة، باب ما نص الله ورسوله على الأئمة واحداً بعد واحد، ح رقم٦.

٢- الكافي، كتاب الحجة، باب ما نص الله ورسوله على الأئمة واحداً بعد واحد، ح رقم٦.

الإمام زين العابدين عليه السلام وعمه محمد بن الحنفية، عند احتكامهما إلى الحجر الأسود[١]. وعندما جاءه، بحضور وشهادة الزهري الذي روى الحادثة، رجل من أصحابه، فقال له علي بن الحسين عليه السلام: ما خبرك أيها الرجل ؟

فقال الرجل: خبري يا ابن رسول الله أني أصبحت وعلي أربعمائة دينار دين لا قضاء عندي لها، ولي عيال ثقال ليس لي ما أعود عليهم به.

فبكى علي بن الحسين عليه السلام بكاءا شديدا!

فقال له الزهري: ما يبكيك يا ابن رسول الله ؟

فقال عليه السلام: وهل يعد البكاء إلا للمصائب والمحن الكبار ؟!

فقال الحاضرون في مجلسه، وكانوا خليطاً من شيعته ومخالفيه: كذلك يا بن رسول الله!

فقال الإمام عليه السلام: فأية محنة ومصيبة أعظم على حر مؤمن من أن يرى بأخيه المؤمن خلة فلا يمكنه سدها ويشاهده على فاقة فلا يطيق رفعها!؟

فتفرقوا عن مجلسهم ذلك، فقال بعض المخالفين، وهو يطعن على الإمام عليه السلام: عجبا لهؤلاء! يدعون مرة أن السماء والأرض وكل شئ يطيعهم، وأن الله لا يردهم عن شئ من طلباتهم، ثم يعترفون أخرى بالعجز عن إصلاح حال خواص إخوانهم!

فاتصل ما قاله المخالفون بالرجل صاحب الامام، فجاء إلى علي بن الحسين عليه السلام فقال له: يا ابن رسول الله بلغني ما قالوا، وكان ذلك أغلظ علي من محنتي!

فقال علي بن الحسين عليه السلام: فقد أذن الله في فرجك.

ثم خاطب الإمام جاريته: احملي سحوري وفطوري!

فحملت قرصتين، فقال الإمام للرجل: خذهما فليس عندنا غيرهما فان الله يكشف عنك بهما وينيلك خيرا واسعا منهما.

١-- الكافي، كتاب الحجة، باب ما يضل به بين دعوى المحق والمبطل في أمر الإمامة، ح رقم٥.

فأخذهمـا الرجل ودخل السـوق لا يدري ما يصنـع بهما يتفكر في ثقل دينه وسـوء حال عياله، ويوسوس إليه الشيطان: أين موقع هاتين من حاجتك!

فمر بسـمّاك قد بارت عليه سـمكة قد أراحت، فقال له: سـمكتك هذه بائرة عليك وإحدى قرصتي هاتين بائرة عليّ، فهل لك أن تعطيني سمكتك البائرة وتأخذ قرصتي هذه البائرة ؟

فقال: نعم!

فأعطـاه السـمكة وأخـذ القرصة، ثم مـر برجل معه ملح قليـل مزهود فيه فقال: هل لك أن تعطيني ملحك هذا المزهود فيه بقرصتي هذه المزهود فيها؟

قال: نعم!

فجاء الرجل بالسـمكة والملح فقال: أصلح هذه بهذا، فلما شق بطن السمكة وجـد فيه لؤلؤتين فاخرتـين فحمد الله عليهما فبينما هو في سروره ذلك، إذ قـرع بابه، فخرج ينظر من بالباب، فإذا صاحب السـمكة وصاحب الملح قد جـاءا يقـول كل واحد منهما لـه: يا عبد الله جهدنا أن نأكل نحن أو أحد من عيالنا هذا القرص فلم تعمل فيه أسناننا، وما نظنك إلا وقد تناهيت في سوء الحال ومرنت على الشقاء، قد رددنا إليك هذا الخبز وطيبنا لك ما أخذته منا، فأخذ القرصتين منهما.

فلما اسـتقر بعد انصرافهما عنه، قرع بابه، فإذا رسول علي بن الحسين عليهما السلام، فدخـل فقـال: إنه يقول لك إن الله قد أتاك بالفـرج فاردد إلينا طعامنا فإنه لا يأكله غيرنا!

وبـاع الرجل اللؤلؤتين بمال عظيم قضى منه دينه وحسـنت بعد ذلك حاله، فقال بعض المخالفين: ما أشـد هذا التفاوت، بينا علي بن الحسين لا يقدر أن يسـد منه فاقة إذا أغناه هذا الغناء العظيم، كيف يكون هذا ؟ وكيف يعجز عن سـد الفاقة من يقدر على هذا الغناء العظيم ؟

فقال علي بن الحسين عليه السلام: هكذا قالت قريش للنبي صلى الله عليه وآله: كيف يمضي إلى بيت المقدس، ويشاهد ما فيه من آثار الأنبياء، من مكة ويرجع إليها في ليلة واحدة من لا يقدر أن يبلغ من مكة إلى المدينة إلا في اثني عشر يوما ؟! وذلك حين هاجر منها. ثم قال علي بن الحسين عليه السلام: جهلوا والله أمر الله وأمر أوليائه معه، إن المراتب الرفيعة لا تنال إلا بالتسليم لله جل ثناؤه، وترك الاقتراح عليه والرضا بما يدبرهم به، إن أولياء الله صبروا على المحن والمكاره صبرا لم يساوهم فيه غيرهم فجازاهم الله عز وجل بأن أوجب لهم نجح جميع طلباتهم، لكنهم مع ذلك لا يريدون منه إلا ما يريده لهم[١].

وعن الزهري، قال سعيد بن المسيب: كان القراء لا يحجون حتى يحج زين العابدين عليه السلام وكان الناس لا يخرجون من مكة حتى يخرج، وكان يتخذ لهم السويق الحلو والحامض، ويمنع نفسه، فخرج وخرجت معه، فنزل في بعض المنازل فسبق يوما إلى الرحل فصلى ركعتين فألفيته وهو ساجد، يسبح في سجوده، فوالذي نفس سعيد بيده لقد رأيت الشجر والمدر والرحل والراحلة يردون عليه مثل كلامه، فلم يبق شجر ولا مدر إلا سبحوا معه، ففزعت منه فرفع رأسه، فقال: يا سعيد أفزعت؟

قلت: نعم يا ابن رسول الله!

قال: هذا التسبيح الأعظم[٢].

رابعاً: علم الإمام بالغيب إذا أراد: وتتم أيضاً معرفة الإمام وتمييزه عن بقية الناس بواسطة تحدثه عن الغيب، كإخباره بأمور لا يمكن أن يعرفها غيره بصورة اعتيادية، فإن من يراجع الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت يجد أنهم هم الذين صرّحوا بهذا الأمر وأعلنوه وأشاعوه، فهو مأخوذ منهم وعنهم. على أن الحديث عما لديهم من علوم، وعن كيفية حصولهم عليها

١- بحار الأنوار، ج٤٦ ص ٢٠،٢٢. عن أمالي الصدوق، ص ٤٥٣. وأخرجه الفتال في روضته ص١٦٨.
٢- بحار الأنوار، ج٤٦ ص٣٧. مناقب آل أبي طالب، ابن شهرآشوب، ج٣ ص٢٧٩.

هو بحد ذاته من الأمور الغيبية التي لا سبيل لعقل بشري إليها، فلا بد من أخذها عنهم لأنها لا تعرف إلا من قبلهم[١].

خامساً: امتلاك سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله، فيتم التعرف على الإمام عبر امتلاكه لسلاح رسول الله صلى الله عليه وآله[٢]، فقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «مثل السلاح فينا كمثل التابوت في بني إسرائيل. كانت بنو إسرائيل في أي بيت وجد التابوت على أبوابهم أوتوا النبوة. ومن صار إليه السلاح منا أوتي الإمامة. ولقد لبس أبي درع رسول الله صلى الله عليه وآله فخطت عليه الأرض خطيطاً. ولبستها أنا وكانت. وقائمنا من إذا لبسها ملأها إن شاء الله»[٣].

ولكن هذا السلاح لم يكن ظاهراً، وقد سأل الإمامَ الصادقَ عليه السلام أحدُ أصحابه، عن علامة الإمامة، فأجابه قائلاً: «يُعرف صاحب هذا الأمر بثلاث خصال لا تكون في غيره: هو أولى الناس بالذين قبله وهو وصيه، وعنده سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله».

فقال صاحبه: إن ذلك مستور مخافة السلطان؟

قال الإمام: لا يكون في ستر إلا وله حجة ظاهرة[٤].

سادساً: يعرف الإمام بالعلم والفضل، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أما والله عندنا ما لا نحتاج إلى الناس وأن الناس ليحتاجون إلينا. إن عندنا الصحيفة، سبعون ذراعاً بخط علي عليه السلام وإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله... فيها من كل حلال وحرام»[٥].

سابعاً: يعرف الإمام بالسكينة والوقار والهيبة، فقد أجاب من سأله عن كيفية التعرف على الإمام من بعده، قائلاً: «يعطى السكينة والوقار والهيبة»[٦].

١- رجال الكشي، ج٢ ص٣٣٦.

٢- بصائر الدرجات ص١٧٦ و١٧٨.

٣- الكافي، كتاب الحجة باب ما عند الأئمة من سلاح رسول الله ومتاعه، ح رقم١.

٤- الكافي، كتاب الحجة، باب ما يجب على الناس عند مضي الإمام، ح رقم٢.

٥- بصائر الدرجات ص١٤٢.

٦- الكافي، كتاب الحجة، باب ما يجب على الناس عند مضي الإمام، ح رقم٣.

ثامناً: الإشارة الضمنية، ويتم التعرف على الإمام بواسطة الإشارات الضمنية العامة، كقول الامام الباقر عليه السلام، في إشارة إلى ابنه الصادق عليه السلام: هذا من الذين قال الله سبحانه وتعالى: « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ»[1]. وقوله: «إن من سعادة الرجل أن يكون له الولد، يعرف فيه شبه خلقه وخلقه وشمائله وإني لأعرف من ابني هذا شبه خلقي وشمائلي»[2]، وقوله له لما حضرته الوفاة: «يا جعفر أوصيك بأصحابي خيراً»[3].

تاسعاً: يعرف ائمة أهل البيت بتوجيه أنظار المسلمين إليهم في المنعطفات الصعبة والخطيرة التي تمر بها الأمة، باعتبارهم حمَلة مشعل الوحي والرسالة بعد الرسول صلى الله عليه وآله لارتباطهم بالرسول صلى الله عليه وآله، ولفضلهم الذي كان يفوق فضل مَنْ سواهم بالرغم من كلّ التحدّيات التي مورست والتعتيم على فضلهم وكمالاتهم من قِبل السلطة وعمّالها.

فقد قام الإمام زين العابدين، بخطوة حساسة في ساعة حساسة من تاريخ أمة الإسلام، بعد أن سيطر الأمويون بقيادة الحجاج على مكة وقتلوا ابن الزبير وقصفوا الكعبة بالمنجنيق، وأصبحت مكة تحت سيف الإرهاب الأموي، وفي أجواء أمنية حساسة، أخذ الإمام عليه السلام، في تحد سافر لولاية الحجاج، مقادير الكعبة، وأركانها وطولها وعرضها وارتفاعها وموضع الباب والحجر، لئلا تضيع معالم أكبر محور لرحى الدين، فلما هدم الحجاج الكعبة، فرق الناس ترابها، فلما جاءوا إلى بنائها وأرادوا أن يبنوها، خرجت عليهم حية، فمنعت الناس البناء حتى انهزموا. فأتوا الحجاج، فأخبروه،

١- ألقرآن الكريم، سورة القصص، الآية٥. الكافي، كتاب الحجة، باب الإشارة والنص على جعفر الصادق، ح رقم١.

٢- الكافي، كتاب الحجة، باب الإشارة والنص على جعفر الصادق، ح رقم٣.

٣- الكافي، كتاب الحجة، باب الإشارة والنص على جعفر الصادق، ح رقم٢.

فخاف أن يكون قد منع بناءها، فصعد المنبر، وقال: أنشد الله عبدا عنده خبر مـا ابتلينا به، لما أخبرنا به.

فقـام شـيخ فقال: إن يكن عنـد أحد علم، فعند رجل رأيته جـاء إلى الكعبة، وأخذ مقدارها، ثم مضى.

فقال الحجاج: من هو ؟.

قال: علي بن الحسين.

قـال الحجـاج، في اعـتراف بقـدر أهل البيـت عند اللـه تعالى، وقـد جحدها واسـتيقنتها نفسـه: معدن ذلك!

فبعـث إلى الإمام زين العابديـن عليه السلام، فأخبره بما كان من منع الله إياه البناء. فقال له الإمام، في تبكيت واضح، وفي إشارة إلى أن هذا تراث أهل البيت دون غيرهم: يا حجاج ! عمدت إلى بناء إبراهيم، وإسماعيل عليهما السلام وألقيته في الطريـق وانتهبـه النـاس، كأنك ترى أنـه تراث لك. إصعد المنبر، فأنشـد النـاس أن لا يبقى أحد منهم أخذ منه شـيئا إلا رده.

ففعل الحجاج ما طلبه منه الإمام، وأنشد الناس أن لا يبقى منهم أحد عنده شئ إلا رده! فردوه. فلما رأى جمع التراب، أتى الإمام عليه السلام ووضع الأساس، وأمرهـم أن يحفروا. فتغيبت عنهم الحيـة، وحفروا حتى انتهى إلى موضع القواعد. فقال لهم الإمام عليه السلام: تنحوا!

فتنحـوا، فنـزل إلى القواعـد وحده، فدنا منها، وربط نفسـه بهـا أمام أعين الناظريـن، إثباتـاً لحقه في إقامتهـا دون غيره، فغطاها بثوبـه، ثم بكى، ثم غطاهـا بالتراب، ثـم دعا الفعلة، فقال: ضعوا بناءكـم. فوضعوا البناء، فلما ارتفعـت حيطانه، أمر بالـتراب فألقي في جوفه. فلذلك صـار البيت مرتفعا يصعـد إليه بالدرج[1].

١- بحـار الأنـوار، ج٤٦ ص ١١٥،١١٦. الـكافي، ج ٤،ص ٢٢٢. علـل الشرائع ص٤٤٨ طبع النجف. مناقـب آل أبي طالـب، ج٣،ص٢٨١، ط النجف الأشرف، وج٤ ص١٥٢، ط الأضواء.

ولما أرادوا أن ينصبوا الحجر الأسود، كان كلما نصبه عالم من علمائهم، أو قاض من قضاتهم، أو زاهد من زهادهم، يتزلزل ويضطرب ولا يستقر في مكانه، فجاءه الإمام زين العابدين عليه السلام وأخذه من أيديهم وسمى الله ثم نصبه، فاستقر في مكانه، وكبر الناس[١]. ولقد الهم الفرزدق في قوله:

يكاد يمسكه عرفان راحته		ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم[٢]

في مواجهة ابن الحنفية

يبدو أن توهم إمامة الأكبر سناً كان يراود بعض أبناء الإمام علي عليه السلام، منذ وقت مبكر قبل كربلاء، فلما استشهد علي أمير المؤمنين عليه السلام، طلب محمد بن الحنفية من أخويه الحسن والحسين ميراثه من العلم، فدفعا إليه صحيفة، لو اطلعاه على غيرها لهلك، وكان في هذه الصحيفة ذكر لدولة بني العباس. فصرح ابن الحنفية لعبد الله بن العباس بالامر، وفصله له[٣]، فاستدعى الإمام الحسن عليه السلام ابن الحنفية عند موته، وحذره قائلاً: «يا محمد بن علي إني أخاف عليك الحسد... أما علمت أن الحسين بن علي بعد وفاة نفسي، ومفارقة روحي جسمي، إمام من بعدي، وعند الله اسمه في الكتاب، وراثة من النبي صلى الله عليه وآله أضافها الله عز وجل له في وراثة أبيه وأمه، فعلم الله أنكم خيرة خلقه، فاصطفى منكم محمداً صلى الله عليه وآله وأختار محمد علياً، واختارني علي بالإمامة، واخترت أنا الحسين»[٤].

فكان محمد بن الحنفية مسبوقاً بموقف صارم من أئمة أهل البيت في ما يخص مسألة الإمامة، ولكن لما قتل الحسين عليه السلام أرسل محمد بن الحنفية إلى علي بن الحسين.. فخلا به فقال له: يا ابن أخي قد علمت أن رسول الله

١- بحار الأنوار، ج٤٦ ص٣٢. عن الخرائج والجرايح ص١٩٥.

٢- هذا البيت من قصيدة تزيد أبياتها على أربعين بيتا قالها الفرزدق الشاعر في مدح الإمام زين العابدين عليه السلام وقد ذكرها ما يقرب من عشرين عالما من حفاظ السنة ومؤرخيهم، بحار الأنوار، ج ٤٦ ص ٣٢.

٣- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٧ ص١٤٩، ١٥٠.

٤- الكافي، كتاب الحجة، باب الإشارة والنص على الحسن بن علي، ح رقم١ و٢ و٥.

ﷺ دفع الوصية والإمامة من بعده إلى أمير المؤمنين ثم إلى الحسن، ثم إلى الحسين، وقد قتل أبوك رضي الله عنه وصلى على روحه ولم يوصِ، وأنا عمك وصنو أبيك وولادتي من علي في سني وقديمي أحق بها منك في حداثتك، فلا تنازعني في الوصية والإمامة ولا تحاجني.

فقال له علي بن الحسين عليه السلام: يا عم اتق الله ولا تدَّعِ ما ليس لك بحق إني أعظك أن تكون من الجاهلين، إن أبي يا عم صلوات الله عليه أوصى إلي قبل أن يتوجه إلى العراق وعهد إلي في ذلك قبل أن يستشهد بساعة، وهذا سلاح رسول الله ﷺ عندي، فلا تتعرض لهذا، فإني أخاف عليك نقص العمر وتشتت الحال، إن الله عز وجل جعل الوصية والإمامة في عقب الحسين، فإذا أردت أن تعلم ذلك فانطلق بنا إلى الحجر الأسود حتى نتحاكم إليه ونسأله عن ذلك.

وكان الكلام بينهما بمكة، فانطلقا حتى أتيا الحجر الأسود، فقال علي بن الحسين لمحمد بن الحنفية: ابدأ أنت فابتهل إلى الله عز وجل وسله أن ينطق لك الحجر ثم سل! فابتهل محمد في الدعاء وسأل الله ثم دعا الحجر فلم يجبه، فقال علي بن الحسين عليه السلام: يا عم لو كنتَ وصياً وإماماً لأجابك!

قال له محمد: فادع الله أنت يا ابن أخي وسله، فدعا الله علي بن الحسين بما أراد ثم قال: أسألك بالذي جعل فيك ميثاق الأنبياء وميثاق الأوصياء وميثاق الناس أجمعين لما أخبرته من الوصي والإمام بعد الحسين بن علي؟ فتحرك الحجر حتى كاد أن يزول عن موضعه، ثم أنطقه الله عز وجل بلسان عربي مبين، فقال: اللهم إن الوصية والإمامة بعد الحسين بن علي إلى علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ.

فانصرف محمد بن علي وهو يتولى علي بن الحسين عليه السلام»[1].

١- الكافي، كتاب الحجة، باب ما يضل به بين دعوى المحق والمبطل في أمر الإمامة، رقم٥. بصائر الدرجات، ج١٠ ص٥٠٢. الإمامة والتبصرة من الحيرة، ابن بابويه ص٦٠.

ولـم يكن أبو خالد الكابلي، خادم محمد ابن الحنفية، يشـك في إمامته، فلـم يكن يعـرف الامام الحقيقي المعيّن من الله تعـالى، حتى أتاه ذات يـوم فقـال له: جعلت فـداك إن لي حرمة ومـودة وانقطاعاً، فأسـألك بحرمة رسـول الله وأمير المؤمنين إلا أخبرتني أنت الإمام الذي فرض الله طاعته على خلقه؟

فقـال لـه محمد ابن الحنفيـة: «يا أبا خالد حلفتنـي بالعظيم، الإمام علي بن الحسـين عليه السلام عليَّ وعليك وعلى كل مسلم».

فأقبـل أبـو خالـد لمـا سـمع مـا قالـه محمـد بـن الحنفيـة، إلى عـلي بـن الحسـين عليه السلام، فاسـتأذن عليـه، فلمـا دخـل عليـه دنـا منهـا، فقـال لـه علي بـن الحسـين عليه السلام: مرحبـاً بك يـا «كنكر» ما كنت لنـا بزائر ما بـدا لك فينا؟ فخرّ أبو خالد سـاجداً شـاكراً لله تعالى مما سـمع من علي بن الحسـين عليه السلام فقـال: الحمد لله الذي لـم يمتني حتى عرفت.

فقال له علي بن الحسين عليه السلام: وكيف عرفت إمامك يا أبا خالد؟

قال: إنك دعوتني باسـمي الذي سـمّتني أمي التي ولدتني، وقد كنت في عميـاء من امري، ولقد خدمـت محمد بن الحنفية عمراً من عمري ولا أشـك إلا وأنه إمـام، حتى كان قريباً سـألته بحرمة الله وبحرمة رسـوله وبحرمـة أمير المؤمنين فأرشـدني إليك وقال هـو الإمام علَيَّ وعليك وعلى خلق الله كلهم، ثم أذنت لي فجئت فدنوت منك فسميتني باسـمي الذي سـمتني أمي فعلمت أنك الإمام الذي فرض الله طاعته عليّ وعلى كل مسلم[1].

١- رجال الكشي، ج٢ ص٣٣٦.

ألمحور الثاني

بناء الكتلة الشيعية

إن انفراط أمر الشيعة بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وتشتُت قواهم، كان من أعظم الأخطار التي واجهها أئمة أهل البيت في المرحلة الثانية، وقد تمكّنوا بعملهم الهادئ من استجماع القوى وتكميل الإعداد وبثّ العزم في النفوس، بكل قوة، وبحكمة، وسلامة وجدّ، وتحمّل الإمام زين العابدين عليه السلام عبء استيعاب آثار الصدمة في كربلاء وما نتج عنها من خوف، وإعادة لملمة صفوف الشيعة وتنظيمهم، وإبقاء الأمة على درجة من الحياة والصلابة تحصنها ضد التنازل المطلق عن شخصيتها ودورها للحاكم. والعمل على بناء الكتلة الشيعية، وهي القواعد الشعبية الواعية التي تهيء الأرضية الصالحة لتسلم الدولة، وتشكل الحضور الشعبي والجماهيري، الذي ينبغي أن يكون جاهزاً، حينما تسنح الفرصة التاريخية، لتوجيه الضربة الأخيرة للنظام الجائر في كل زمان ومكان، ودفعه نحو الإنهيار الكامل، إذا ما وصل به الإهتراء والتآكل إلى غايته، فكان على الإمام زين العابدين عليه السلام أن يعمل على دائرتين على مستوى الأمة:

الدائرة ألأولى لعمل الإمام زين العابدين عليه السلام:

الدائرة الخاصة، وهي المجموعة المنظّمة المجاهدة والمضحية، وهو التنظيمات والتشكيلات التي تقوم بدور التعبئة الدينية والعقائدية والسياسية للأمة والإتصال بها وإدارتها تحت إشراف أئمة أهل البيت. فإن نشر مباديء الدعوة الإسلامية الحقة، وإعداد الأرضية النفسية لتقبل الفكر الإسلامي الصحيح في جميع أرجاء العالم، يستلزم إعداد أفراد مضحين متفانين يشكلون العمود الفقري للدعوة. وهذا هو سر صعوبة الدعوة على طريق الإمامة الحقة، فالدعوة الرسالية التي تستهدف القضاء على الطاغوت وعلى

التجبر والعدوان والظلم في المجتمع، والتي لا بد أن تستند إلى إرادة الجماهير وقوتها وإيمانها ونضجها، ينبغي أن تلتزم بمعايير إسلامية عالية، لا أن ترفع شعار محاربة الطغاة وهي تمارس في الوقت نفسه أعمال الطغاة والظلمة في حركتها دون أن تتقيد بمبادئ أخلاقية وإجتماعية إسلامية اصيلة، فمثل هذه الدعوات لا تواجه الصعوبات التي تواجهها الدعوات الرسالية الهادفة، وهذا هو سر عدم تحقق أهداف حركة الإمامة على المدى العاجل، وهو أيضاً سر الإنتصار السريع للحركات الموازية لحركة الإمامة، مثل حركة العباسيين.

وكان بناء هذه التنظيمات والتشكيلات للشيعة من أهم المحاور العملية وأكثرها حساسية، ومن أغمض فصول حياة أهل البيت وأشدّها إبهاما، فقد ظهر ثمة ارتباط منظم فكري ومالي بين أئمة أهل البيت وأتباعهم، وكانت الأموال تُحمل من أطراف العالم إلى المدينة وتتقاطر الأسئلة الدينية عليها. كذلك اتسعت الرقعة الموالية لآل البيت، خاصة في البقاع الحساسة من العالم الإسلامي، فبعد عشرين عاماً من صلح الإمام الحسن عليه السلام، وبعد موت معاوية، ترد على الإمام الحسين عليه السلام آلآف الرسائل تدعوه أن يأتي إلى الكوفة لقيادة الثورة. وبعد استشهاده يلتحق الآلاف بحركة «التوابين» أو ينخرطون في جيش المختار ضد الحكم الأموي. وفي مرحلة ما بعد كربلا يتجمع عدد غفير من المحدثين والرواة الخراسانيين والسيستانيين والكوفيين والبصريين واليمانيين والمصريين حول أئمة أهل البيت يستمعون إليهم. إن هذه الظواهر التاريخية الثابتة، والمنسجمة والمتناسبة مع بعضها، قد حدثت في ظل سيطرة سياسية كانت جادة كل الجدّ في إلغاء حتى إسم علي وآل علي، وكانت تسبّه على المنابر، وفي ظل حالة شهدت إنسحاب أئمة أهل البيت من ساحة النشاط العلني، وشهدت تسليط أنواع البطش والإرهاب على أتباعهم.

إن هذه الظواهر من شـيوع الفكر الموالي لآل البيت تشـير إلى وجود نشاط منظم متحد في الخطة والهدف! فإن الإعلام الهائل الذي وجهته السلطة الأموية عـن طريـق مئات القضاة والولاة والخطباء لا يمكن إحباطه وإفشـاله دون إعلام مضاد مخطط مرسوم ينهض به تنظيم منسجم موحد غير مكشوف. إن الأخبار تتحدث عن قاعدة شعبية عريضة موالية لآل البيت تطوي آلاف الأميـال للوصـول إلى الحجاز والمدينة لكي تطلـب العلم على أئمة أهل البيت وتأخذ عنهم الإسـلام وتتحدث معهم عن الثورة على الوضع الفاسـد، وعن مسائل القيام والخروج، مما يدل على وجود شبكة منظمة للدعوة إلى إمامة أهـل البيـت، عملت عـلى نشر فكرهم واتسـاع قاعدتهم الشـيعية في الحجاز والعراق وخراسان ومصر.

ولا يوجـد وثائـق صريحـة مـن الإمام أو أحد أصحابـه تعترف بوجود هذه التنظيمات السياسية الفكرية، فهذا مما لا يمكن الكشف عنه، بل الشيء المعقول هو أن ينفي الإمام وأصحابه بشـدة وجود مثل هذا التنظيم السري ويعتبرون ذلك تهمة وسوء ظن فيما لو تعرضوا لاستجواب جهاز السلطة، فهـذه هي خاصية العمـل السري، ولكن هناك قرائن وشـواهد وحوادث في حياة الأئمة خلال قرنين ونصف القرن من حياتهم تجعلنا نطمئن إلى وجود مثـل هذه التنظيمات التي تعمل تحت قيادتهـم، ليس بمعنى الحزب المنظم بالمفهـوم المعروف اليوم، بمعنى وجود كـوادر منظمة ذات قيادات إقليمية مرتبطـة إرتباطاً هرمياً، بل بمعنى وجود جماعة ذات هدف مشـترك تقوم بنشاطات متنوعة تتجه نحو ذلك الهدف وترتبط بمركز واحد، وقلب واحد، ودماغ مفكر واحد، وتسـود بين أفرادها روابط دينية وعاطفية مشتركة.

ولقـد شرع أئمـة المرحلـة الاولى، علي والحسـن والحسـين(عليهم السـلام) ببنـاء هـذه التنظيمات والتشـكيلات، حتى ولو جاءت الأمـة إلى علي بن أبي

طالب عليه السلام متأخرة عن أوانها كثيراً، ولكنه أقدم على القبول ببيعتها لأنه لم يكن عنده بدٌّ من المواجهة ليحول دون خروج حركة الإسلام برمتها عن خطها الرسالي فلا يبقى بعد ذلك إلا الشعار، ووقف حينئذٍ على مفترق طرق: إما استرداد الأمة كلها بمجموعها، بعد أن ضاعت يوم السقيفة وما بعدها! وأصبحت إعادة توحيدها، كما كانت أيام النبي صلى الله عليه وآله، تكاد تكون مستحيلة. وإما التدرج في ذلك عبر بناء النخبة، ولو كانت قلة قليلة يحافظ بها على ما تبقى من الرسالة(فوالله ما دفعت الحرب يوما إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي وتعشوا إلى ضوئي وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها)[1].

وقد أوجد علي بن أبي طالب عليه السلام هذه الجماعة خلال السنوات الخمس والعشرين بين وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وبيعته للخلافة، وكان يجمعها الإيمان بأحقية الإمام في الخلافة، وكانت تعلن وفاءها الفكري والسياسي له، غير أنها كانت تحذو حذوه في عدم إثارة ما يزلزل المجتمع الإسلامي الوليد، كما كانت تنهض بما كان ينهض به في تلك السنوات من مهام رسالية تستهدف صيانة الإسلام ونشره ومحاولة الحدّ من الإنحرافات واتخذ لواؤها هذا إسم «شيعة علي»، ومن وجوههم المشهورة: سلمان وعمار وأبو ذر وأبي بن كعب والمقداد وحذيفة وغيرهم من الصحابة الأجلاء. وهؤلاء كانوا يشيعون بين الناس فكرهم بشأن إمامة علي عليه السلام بشكل حكيم، وعملهم هذا كان مقدمة لإلتفاف الناس حول الإمام وإقامة الحكم العلوي.

وبعد أن استلم الإمام علي عليه السلام مقاليد الأمور سنة ٥٣ هجرية، ومع تصديه للخلافة أخذت النخبة تتكون حوله وتتشكل في صنفين من الناس، صنف عرف الإمام ومكانته وفهم معنى الإمامة وآمن بها، وهم شيعته

١- بحار الأنوار، ج٣٢ ص٥٥٦.

الذين تربوا على يده بشكل مباشر أو غير مباشر، وكلما كان يسير خطوة في صراعه ضد أعداء الإسلام، من الناكثين والقاسطين والمارقين، كلما كانت جذور هذه النخبة تنغرز عميقاً في أرض الإيمان بالعقيدة. وصنف هو عامة الناس الذين عاشوا أجواء تربية الإمام ونهجه ولكنهم لم يكونوا مرتبطين فكرياً وروحياً بالجماعة التي رباها الإمام تربية خاصة ولذلك نجد بين هذين الصنفين تفاوتاً كبيراً.

وقد ترك استشهاد الإمام أثراً سلبياً على هذه النخبة، فكان الحسن بعده حريصاً على المحافظة عليها وإبقائها في صلحه مع معاوية (إني رأيت هوى عظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب، فلم أحب أن أحملهم على ما يكرهون، فصالحت بقيا على شيعتنا خاصة من القتل، فرأيت دفع هذه الحروب إلى يوم ما، فإن الله كل يوم هو في شأن)[1]. وعندما قدم جمع منهم، بعد حادثة الصلح برئاسة المسيب بن نجبة وسليمان بن صرد الخزاعي على الإمام الحسن في المدينة التي اتخذها الامام قاعدة لعمله الفكري والسياسي بعد عودته من الكوفة، يقترحون عليه إعادة قواهم وتنظيماتهم العسكرية والإستيلاء على الكوفة والإشتباك مع جيش الشام، قام الإمام باستدعائهما واختلى بهما وحدثهما بحديث لا نعرف فحواه، فخرجا بعده بقناعة تامة بعدم جدوى هذه الخطة. وحين عاد الإثنان إلى من جاء معهما افهماهم باقتضاب أن الثورة المسلحة مرفوضة، ولا بد من العودة إلى الكوفة لاستئناف نشاط جديد فيها.

هذه حادثة مهمة لها دلالات كبيرة حدت ببعض المؤرخين إلى اعتبار ذلك المجلس الحجر الأساس في إقامة التنظيم الشيعي. والواقع أن الخطوة الأولى لإقامة التنظيم الشيعي لو كانت حقاً قد اتخذت في ذلك اللقاء بين

١- ألأخبار الطوال، إبن قتيبة الدينوري ص٢٢٠.

الإمـام الحسـن والرجلـين القادمين من العـراق، فإن مثل هـذه الخطوة قد أوصى بهـا الإمـام علي عليه السلام من قبل حـين أوصى المقربين من أصحابه بقوله: «لـو قـد فقدتمونـي لرأيتم بعدي أشـياء يتمنى أحدكم المـوت مما يرى من الجور والعدوان والإثرة والإسـتخفاف بحق الله والخوف على نفسـه، فإذا كان ذلـك فاعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وعليكم بالصبر والصلاة والتقية واعلموا أن الله عز وجل يبغض من عباده التلون، لا تزووا عن الحق وأهله فإن من استبدل بنا هلك، وفاتته الدنيا وخرج منها آثماً [بحسرة][1]».

فهـذا النص يرسـم بوضوح الوضع المأسـاوي في العـصر الأموي، ويوجه المؤمنـين إلى التلاحـم والتعاضد والتنسـيق، وهو وثيقـة تنظيمية في حركة أهل البيت تدل على مشروع تنظيمي، لم يكن كل أتباع أهل البيت مطلعين عليه، حتى صدر من بعض صحابة الإمام الحسـن عليه السلام ما صدر من إعتراض وإنتقـاد. وكان المعترضـون يواجهون قـول الإمام الـذي مضمونه: «.. من يدري لعله اختبار لكم ونفعٌ زائل لأعدائكم...» وفي هذه الإجابة إشارة خفية إلى سياسة الإمام وتدبيره.

وبمـا أن الإضطهـاد يـؤدي إلى إنسـجام القوى المضطهـدة وتلاحمها وتجذرهـا بـدل تبعثرها وتشـتتها فقد التزم الحسـين عليه السلام الصمـت محاذراً المجازفة بالنخبة التي بقيت تتصل به سراً واتجهت اسـتراتيجيته الى العمل عـلى تجميـع القوى الأصيلـة الموالية وإعادة تشـكيلها وتنظيمهـا وتعبئتها فكريـاً طيلـة عشرين عامـا وحفظها من بطش الجهـاز الأموي في إطار من السريـة الشـديدة وكان يضبـط في هذه الفترة حالات الغليـان والثورة التي كانـت تظهـر على السـطح بين الحين والآخـر في صفوفها (لِيَكُـنْ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ حِلْسـاً مِنْ أَحْلاسِ بَيْتِهِ ما دامَ هذَا الرَّجُلُ حَيّاً، فَإِنْ يَهْلِكْ وَأَنْتُمْ أَحْياءٌ

١- الخصال، الصدوق، ص ٦٢٦. تحف العقول عن آل الرسـول، ابن شـعبة الحراني ص١١٥. بحار الأنوار، ج٦٥ ص٦١.

رَجَونـا أَنْ يَخـيرَ اللهُ لَنـا، وَيُؤتينا رُشْـدَنا، وَلا يَكِلَنـا إلى أَنْفُسِـنا، (إِنَّ اللهَ مَـعَ الَّذِيـنَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِـنُونَ)[1] (فألصقـوا رحمكم الله بالأرض واكمنـوا في البيوت واحترسـوا من الظنة مادام معاوية حياً)[2] وفيه تنبيه إلى اليقظة الدائمة، ومتابعة بناء التشكيلات، ونشر الفكر الإسلامي الأصيل في دائرة محدودة، ولكن بشـكل عميق، وكسـب الأفراد إلى صفوف الموالين، وانتظـار الفرصـة المؤاتية للثورة لكي تتحقق بها السـلطة العادلة يوماً ما، خصوصاً وأن معاوية كان شديداً في مطاردة هذه النخبة فقام باختراق أبرز عناصرها السرية بزياد بن أبيه الذي ألحقه بنسبه وعينه حاكماً على العراق وكان مطلعـاً عـلى رموز النخبة. ووجه ضربة شـديدة لهـا بقتله لحجر بن عدي وأصحابه، وهو من أبرز الشخصيات الشيعية في الكوفة والموالية لأهل البيـت ولاءً مطلقـاً، وقد أدخل قتلـه الإطمئنان على قلوب الأمويين مما يدل على عظيم خطره عندهم.

وقبيل وفاة معاوية تزايد نشاط هذا الجهاز العلوي المنظم وتصاعدت سرعة عمله، حتى أن والي المدينة يكتب إلى معاوية ما مضمونه: « أما بعد، فإن عمر بن عثمان (وهو عين والي المدينة على الامام الحسين) أخبرنا بأن رجالاً من العراق وبعض شخصيات الحجاز يترددون على الحسين بن علي، وتدور بينهـم أحاديث حول رفع راية التمرد والعصيـان... فاكتبوا لنا ماذا ترون. وبعد واقعة كربلاء، وعلى أثر الصدمة النفسـية التي أصيبوا بها بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام، تضاعف النشاط التنظيمي لشيعة العراق، يقول الطبري: فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب والإسـتعداد للقتال ودعاء الناس في السر من الشـيعة وغيرهـا إلى الطلب بدم الحسـين عليه السلام، فكان يجيبهـم القوم بعد

١-- بحار الأنوار، ج٣٠ ص٨٠.

٢- ألأخبار الطوال، ابن قتيبة الدينوري ص٢٢٢.

القـوم والثغر بعـد الثغر، فلم يزالـوا كذلك حتى مات يزيد بـن معاوية[١].
ولكن الإمام زين العابدين عليه السلام، وقف على مفترق طرق:
إمـا أن يعمـد إلى دفـع أصحابه نحـو حركة عاطفيـة هائجـة، ويدخلهم في مغامـرة، لا تلبث شـعلتها، بسـبب عدم وجـود المقومات اللازمـة فيهم، أن تخمد جذوتها وتنطفئ، وتبقى الساحة بعد ذلك خالية لبني أمية، يتحكمون في أمـة خيّـم عليها اليأس والقنوط مـن إمكانية تحقيق النصر.
أو أن يسـيطر عـلى العواطف والمشـاعر الفائرة، ويعد المقدمـات للعملية أو العمليـات الكـبرى القادمة حتمـاً، والمتمثلة في بناء كتلة شـيعية تجرف كل الطواغيـت، وأن يصون حياته وحياة الشـيعة المتبقية لتكون النواة الثورية للتغيير المسـتقبلي، ويبتعـد عن أعين بني أمية ويواصل نشـاطه الدائب على جبهة بناء الكتلة الشيعية فردا فردا! وبذلك يقطع شوطاً على طريق الهدف المنشـود، ويكون الإمام الذي يليه أقرب إلى هذا الهدف.
ولذلك يقول الإمام زين العابدين عليه السلام مخاطباً هذه الفئة: «إن علامة الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة تركهم كل خليط وخليل ورفضهم كل صاحب لا يريـد ما يريدون»[٢] فـإن ذلك نوع آخر من الخطاب يبين أن المقصودين به هم تلك النخبة الخاصة من أصحابه المطلعين والمحافظين على أسرار الإمامة وهـدف الإمام آنذاك، تصلح لأن تكون قاعدة وأساسـاً للعمل في المسـتقبل.
ويبـدو أن هـذه الفئـة الخاصة هـي المقصـودة بتعبير»الشـيعة»، أي الذين كانوا يتمتعون بمسـتوى عال من المسؤولية، أما القاعدة الشعبية العريضة، الساخطة على بني أمية فكانت أوسع من المجموعة الشيعية المنظمة، وكانت هذه القاعدة تنضم إلى كل حركة ذات صبغة شيعية، ومن هنا فإن المتحركين

١- تاريخ الأمم والملوك، ج٤ ص٤٣٢.
٢- تحف العقول عن آل الرسول، ابن شعبة الحراني ص٢٧٢.

ضد بني أمية وإن رفعوا شعارات شيعية لا ينبغي أن نتصورهم جميعاً بانهم في عداد الشيعة، أي في عداد الكتلة الشيعية الخاصة المرتبطة بأئمة أهل البيت، فإسم الشيعة بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام أطلق فقط على المجموعة التي كانت لها علاقة وثيقة بالإمام الحق، تماماً كما كان الحال في زمن أمير المؤمنين عليه السلام وهذه المجموعة هي التي عمدت بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام إلى تأسيس التشكيل الشيعي بأمر الإمام، وهي التي نشطت في كسب الأفراد إليه، ودفع أفراد أكثر، لم يرتفعوا في الفكر والنضج العملي، إلى مستوى الإنخراط في التيار العام للحركة الشيعية.

وحينما ذكر الإمام الصادق عليه السلام أن عدد المؤمنين بعد حادثة عاشوراء لم يتجاوز الثلاثة أو الخمسة، يبدو أنه قصد أفراد هذه المجموعة الخاصة.. أي هؤلاء الذين كان لهم الدور الرائد الواعي في مسيرة حركة التكامل الثورية العلوية.

وبعبارة موجزة، فإن إسم الشيعة في القرنين الأول والثاني الهجريين وفي زمن الأئمة ما كان يُطلق على الذين يحبون أهل بيت النبي أو المؤمنين بحقهم وبصدق دعوتهم فقط من دون إشتراك في مسيرتهم الحركية. بل إن الشيعة كانوا يتميزون بشرط أساسي وحتمي وهو عبارة عن الإرتباط الفكري والعملي بالإمام، والإشتراك في النشاط الفكري والسياسي، بل والعسكري الذي يقوده لإعادة الحق إلى نصابه، وإقامة النظام العلوي الإسلامي. هذا الإرتباط هو نفسه الذي يطلق عليه في قاموس التشيع إسم « الولاية «.

الدائرة الثانية لعمل الإمام زين العابدين عليه السلام:

وهي الدائرة العامة، وهي كل الأمة، أو الجماهير الإسلامية العريضة، أو الدائرة التي سوف يتم منها وفيها صياغة الكتلة الشيعية العامة المتراصة المأمولة، والتي سوف يقوم عليها بناء وتأصيل وتأسيس أعادة صياغة

المسلم الموحد الاصيل. وهي الكتلة التي تتعرض للمخاطر الثلاثة الكبرى: الثقافية والأخلاقية والسياسية، وكان على الإمام أن يقوم برعايتها من كل الجوانب الفكرية والسياسية والإقتصادية، من أجل تزويدها بإطارها التفصيلي الخاص بها بالذي سوف يجعلها جزءاً من الكتلة المؤمنة والمحافظة على الخط الحقيقي للإسلام، المنضوية تحت لواء أهل البيت، تحمل فكر الإمامة وتهضمه، وتتطلع بشوق إلى تطبيقه، وتشكل المادة الكبرى التي سوف تحسم الصراع في يوم ما، وتُسقط النظام الجائر، إما بقيادة أهل البيت أنفسهم، وإما بقيادة النخبة من أنصارهم، ولا يعني هذا أن أئمة المرحلة الأولى لم يعملوا لإبراز الكتلة الشيعية، بل أن نشاطهم في هذا المجال كان ثانوياً وعلى مستوى خاص، فالإطار التفصيلي الخاص للكتلة الشيعية لم يكن متميز المعالم محدد الإطار لكل الناس في زمان المرحلة الأولى، التي أظهرت معركة كربلاء، في نهايتها، أن النخبة الإسلامية، منفردة وبعيدة عن الأمة، التي كانت بمعظمها من أهل العامة، هي التي اضطرت لأن تخوضها في وجه الجيوش الجرارة المرتزقة، التي حشدها يزيد من نفس الأمة، فاستفرد النظام الأموي بالإمام الحسين وأصحابه وأهل بيته.

إذن سوف يكون من أركان عمل أهل البيت من الآن فصاعداً غرف الكتلة الشيعية المتراصة من بحر الأمة العام، وبناؤها عقائدياً وسياسياً، وتنظيمها وتعبئتها استعداداً ليوم تكون فيه جاهزة لكي تقوم بتكليفها وتعيد الحق إلى نصابه.

ولكن الفتوحات أدت إلى انفتاح البيئة الإسلامية العامة على الحضارات الأخرى وعلى ثقافات متنوّعة وأعراف تشريعية وأوضاع إجتماعية مختلفة بحكم تفاعل المسلمين مع الشعوب، ودخول الأفواج الكبيرة منهم في رحاب الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، ولم يكن المسلمون مزودين بمناعة تحميهم من هذه الثقافات، بسبب إخراجهم المستعجل من ديارهم لفتح

العالم! كما أدت الفتوحات إلى موجات من الرخاء سادت المجتمع الإسلامي في أعقاب ذلك الإمتداد الهائل؛ والغنائم والمكاسب المادية الكثيرة التي دخلت إلى المجتمع الإسلامي، فتعرّض إلى خطر الإنسياق مع ملذات الدنيا والإسراف فيها، وانطفاء الشعور بالقيم الخلقية والصلة الروحية بالله واليوم الآخر. وكانت، خلال الخمسين سنة الأولى من عمر الأمة الإسلامية، قد ابتدأت تظهر آثار الفتوحات والتطور الإقتصادي والحضاري للعرب، مما أدى الى الإنحطاط الفكري وضعُف أساس الإيمان عند الناس، فعمّ الخواء العقائدي في نفوسهم وانهارت القيم الأخلاقية، ثم ساهم الحكام الأمويون بقدر كبير في تشجيع حياة اللهو والطرب والميوعة بين أبناء الأمة الإسلامية، حتى أنه في حدود سنة ثمانين الى تسعين هجرية ولمدة خمسين أو ستين عاما كان معظم المطربين والعازفين والمغنين يتواجدون في مكة والمدينة، وكلما رغب الخليفة أو أي مترف في الأمصار، في الشام وغيرها، بسماع الغناء والعزف أو طلب مغنيا أو عازفاً، كان يبعث بطلب ذلك إلى مكة والمدينة مركز الغناء والطرب، وأسوأ أنواع الشعر وأكثره مجوناً كان مصدره هاتين المدينتين اللتين كانتا مهبط الوحي فتحولتا إلى مركز للفساد والمجون.

وهكذا انكشف الإنسان المسلم أمام ثلاثة أخطار، الخطر الثقافي، والخطر الاخلاقي، وخطر الإستسلام السياسي أمام الدولة الأموية الظالمة المستندة إلى الإرهاب والقمع، وعندما أجاب الإمام علي بن الحسين عليه السلام على من انكر عليه ترك الجهاد، بأنه إذا وجد هؤلاء الذين صفتهم أنهم تَّائِبُونَ وْعَابِدُونَ وْحَامِدُونَ وسَّائِحُونَ ورَّاكِعُونَ وسَّاجِدُونَ وآَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ، فالجهاد معهم يصبح هو الأولى من غيره من العبادات، كان هذا الجواب إشارة إلى أن أسلوب عمل ومنهج أهل البيت والإمام زين العابدين في مرحلة ما بعد كربلاء، قد انتقل من مرحلة

البنــاء العام والخطاب العام إلى مرحلة التركيز في مواجهة تلك الأخطار عبر تأسيس الكتلة الشيعية الخاصة بعد أن تسابق أئمة أهل البيت الثلاثة الأول، في المرحلــة الأولى، مع الأخطار الثلاثة فســبقتهم آثــار ونتائج تلك الأخطار، حيث ظهر ذلك جلياً على ارض كربلاء، وكانت البيئة الإســلامية العامة هي المجتمع الذي ســوف يجري التركيز عليه لبناء الكتلة الشيعية الخاصة، فقد كانت الدائرة العامة التي سوف يجري عليها التركيز ومنها سوف يتم فرز وبنــاء الكتلة الشــيعية هي الدائــرة التي تعرضت وخضعــت لتلك الأخطار الثلاثــة، وهــي الدائــرة العامة للنــاس، أو عموم الجماعــة، وكان لا بد حين توجيه الخطاب إلى الأفراد الذين ســوف يشــكلون الكتلة الشيعية، ملاحظة وضع الدائرة العامة، ففيها ومنها ســوف يتم بنــاء الكتلة الفولاذية المؤمنة بأهل البيت وقضيتهم.

إن انفــراط أمــر الشــيعة بعــد مقتل الحســين عليه السلام، كان من أعظــم الأخطار التــي واجهها الإمام زيــن العابدين عليه السلام بعد رجوعــه إلى المدينة، وكان عليه أن يعمل على استجماع القوى، وإعدادها من جديد، نفسياً وعقيدياً، وإحياء الأمــل في القلــوب، وبــث العزم في النفــوس. وقد تمكن مــن الشروع في هذه الاســتعادة، والإعــداد، والتمهيد، بكل قــوة، وحكمة، وجــد. وكما قد يكون تأســيس بناء جديد، أســهل وأمتــن من ترميم بناء متهــرئ، فكذلك، إن بناء فكرة في الأذهان الخالية من الشبهات، أسهل من ترميم فكرة ميؤوس منها، لهــا ســابقة إخفــاق، وقد أبيــد قادتها وأنصارهــا. فإن عامة الناس ســوف يقفون منها موقف الحيرة والشــك، ويحاولون الانســحاب، أو الوقوف على الحياد، وانتظار التغيرات! فكان الإمام زين العابدين عليه السلام، إذا وجد من أنصار الحــق تذمرا، أو وهنا، أو تألما من مجــاري الأحداث حولهم، يهب لنجدتهم، وتقويتهم روحيا ومعنويا، فيقول: فما تمدون أعينكم ؟ لقد كان من قبلكم،

ممن هو على ما أنتم عليه، يؤخذ فتقطع يده ورجله ويصلب ! ثم يتلو قوله تعالى:(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء)[١]

فقد مني المسلمون بإخفاق ويأس مما في الإسلام من فكر ثوري يدعو إلى التخلص من العبودية والفساد، عندما رأوا الأمويين، قد استولوا على الخلافة، وبدأوا يقتلون أصحاب هذا الدين من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، وأنصارهم، ويعيثون فسادا في أرض الإسلام بالقتل والفجور، وكل منكر، حرمه الإسلام.

لقد كان على الإمام زين العابدين عليه السلام أن يحمل ثقل الرسالة على عاتقه، وأن يجمع القوى، ويلملم الكوادر المتفرقة، ويعيد الأمل إلى النفوس، ويقاوم الأعداء، ويفند مزاعمهم، ويكشف دسائسهم! فقام بناء الكتلة الشيعية، أولاً وقبل كل شيء، على تقديم الأطروحة التي يقوم الإمام زين العابدين عليه السلام بتقديم نفسه قدوة وأنموذجاً لها، عبر تطبيق برنامج متكامل، وهو تأسيس مدارس الزهد، والعبادة، والدعاء، والبكاء على سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، والإنفاق على الفقراء والمساكين، ونبذ التمييز القبلي والعنصري، وإعتاق العبيد، والتربية، والتعليم، وهي بمجموعها كانت أركان خطته في هذا الطور الخطير الذي نشأ بعد كربلاء وحمل، بسبب الفتوحات وقيام الدولة الأمنية الإرهابية الأموية، أخطاراً ثقافية وأخلاقية وسياسية سوف تؤدي حتماً إلى إنهيار الأمة الإسلامية وخضوعها واستسلامها وضياعها..

وقد قام برنامج الإمام زين العابدين عليه السلام على محورين، محور نظري، قائم على تقديم خطاب يتلاءم مع الوضع الثقافي والسياسي والإجتماعي والديني والأخلاقي للأمة، فينسج لها نسيج تدرجها وسلوكها من حال إلى حال. ومحور عملي، سلوكي، تطبيقي، يقوم على نفس الطريق الذي سلكه

١- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٢١٤. بحار الأنوار، ج٦٧ ص١٩٧.

أمـير المؤمنين عـلي بن أبي طالب عليه السلام، ويدور حول تقديـم القدوة والنموذج للإنسـان المؤمـن، في الزهد، والعبادة، وطرق المعـاش، والإيثار، والتواضع، وكل تفصيـل مـن تفاصيل حياة الإنسـان الكامل. فالكلام هنا، في مدرسـة الإمـام زيـن العابدين عليه السلام يقع في مقامين، مقـام الخطاب، ومقام العمل.

أولاً: مقام الخطاب

إن الأمة التي سوف يتوجه الإمام إلى بحرها بشباكه ليستخرج منها اللآليء، لآلىء الكتلة الشيعية، كانت هي أصعب عقبة في وجه أئمة أهل البيت في طريق تنفيذ مهمتهم، فإن العوام لا يملكون الموازين الشرعية والعقلية لتمييز الحق مـن الباطل، فإذا طُرحت عليهم قضية، كقضية الخلافة مثلاً، سـوف يكون تعاملهـم معها ناتجـاً عن الهـوى والعصبية، فتأييدهـم لا ينفع، ورفضهم يضر، ويجعلهم أعداءً، لأن عوام الأمة أُشـبعوا بقداسة رموز الخلافة، لأنهم اقـترن اسـمهم بالفتوحات، أعظـم خطوةٍ قامت بها أمة العـرب في تاريخها الطويـل، بل كانت بنظر الأعـراب أو العوام أخطر من الدعوة النبوية، لأنها نقلتهم من البداوة إلى السـيطرة على العالم، ولذلك كانت شـخصية الخلفاء مغروزة ومقدسـة في قلـوب العامة. لقد كانت الأمة مشـبعة بفكرة شرعية السلطة مطلقاً وحرمة الإعتراض عليها مهما ترتكب من صنوف المظالم، بل سيرفض الإعتراض إن لم تقاومه الأمة.

وبعد أن حصلت فتنة عثمان، وانقسـمت الأمة إلى عثمانية وشـيعة وخوارج ودب الخـلاف والنـزاع، وبـرزت فكـرة وعاظ السـلاطين وعقـلاء العامة بالدعوة إلى عدم الدخول فيما شـجر بـين الصحابة، وعدم التدقيق في المحق والمبطـل منهم والسـكوت عن ذلـك، في محاولة غبية لإنشـاء مصالحة، ولو كانت مصالحة عمياء وعلى حسـاب الحق، فنشـأت كتلـة كبرى من جماهير العامـة مقتنعـة بفكرة إرجاء مـا حصل بين الصحابة إلى اللـه تعالى، وعدم

تحديد الحق والباطل فيما بين ذلك، هذه الكتلة كان قيامها على حساب الحق فعلاً وقولاً فقد كانت هذه الكتلة تحضر صلاة الجماعة خلف السلطان، وتدعو له، وتقاتل في جيوشه، وتدافع عنه وتصونه. لقد نجح السلطان في استثمار ذلك الركام الهائل من الأحاديث الموضوعة التي أشبع بها عقل الأمة، وأدت إلى انغراز مفاهيم غريبة عن دين الإسلام، مثل الجبر، وقبول الحاكم الظالم، والإرجاء! فزود الأمة بمادة المفاهيم اتي تتكفل بأن تعمي بصر الأمة وبصيرتها، بعد أن تقتنع بها الأمة وتتلبس بها وتصبح إيديولوجيتها، وتتكفل الأمة بعد ذلك بتبني مواقف وفكر السلطان بكامل اختيارها وقناعتها، ويرتاح السلطان، وبدلاً من أن يشهر سيفه ليواجه أعداءه فقد تعهدت الأمة بنفسها أعداءه، لقد كان يزيد في دمشق، وكان في خدمته ثلاثون ألفاً من أهل الكوفة! فقتلوا له الإمام الحسين عليه السلام الذي ثار لأجلهم وحباً بهم وللدفاع عن مصالحهم! بل كان الحديث في تمييز الحق من الباطل مع العامة، ليس لا طائل تحته وحسب، بل هو سبب لأبلغ الضرر، إذ سوف ينتج أعداءً مجَّانيين لأهل البيت، عشوائيين، تقودهم عصبية عمياء، ولذلك كان التعرض لمسؤولية الشيخين الشرعية والقانونية والتاريخية عن كل ما جرى للأمة أمام العامة سوف يؤدي إلى كسب عداوة العامة مجاناً، بينما كان الأمويون والعباسيون بعدهم ينامون مطمئنين خلف الجدار الذي بنته كتلة العامة من إخلاصها للشيخين واعتبار أن ما شجر بين الصحابة أمرٌ ممنوعٌ الحديث فيه، ولذلك كان أئمة أهل البيت عليهم السلام ابتداءً من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وانتهاءً بالإمام الحسن العسكري عليه السلام يجيبون أهل العامة إذا ما سألوهم عن الشيخين وعثمان بما يرضيهم، ويطفئ نار العصبية والهوى، ويخرج أهل البيت من جوابٍ خاسرٍ في النهاية، ولذلك صدرت منهم عبارات إيجابية بخصوص الشيخين، بينما نجدهم في مجالسهم الخاصة

ومع شـيعتهم المقربـين الموثوقين المخلصين ومع النـاس العقلاء يصرحون بحقيقة موقفهم وحقيقة مسـؤولية الشـيخين الكبرى حـول كل ما حصل، وحقيقة ما جرى ويحددون المسـؤوليات.

وكان الأمويـون يخوضـون معركـة ضاريـة مـع التشـيع ورمـوزه، منـذ معاويـة، مـروراً بكربـلاء وتصفية الأعـداد الكبيرة من أنصـار أهل البيت، وانتهـاء بالدعايـة، وإثـارة الناس الغوغاء عـلى كل ما يمـت إلى أهل البيت، وقد اسـتفادوا من نشـوء الكتلة العامة الموالية للشـيخين، والمرجئة لتحديد الحـق مـن الباطـل، والتي كانـت في خدمتهـم في الحقيقة والواقـع! فكانت إثارة موضوع أبي بكر وعمر سـبباً لمزيد من الحصار وتضييق الخناق على أئمـة أهل البيت وشـيعتهم، ويصـب في مصلحة الأمويين، إذ سـوف يجابه أهـل البيت وشـيعتهم، لو نطقوا بالحقيقة التاريخيـة والشرعية والقرآنية، بالاسـتنكار العنيف من قبل عامة أهل السنة وعلمائهم، ويعتبرونهم كفاراً، ويحلون دماءهم.

فـكان موقـف الإمام زيـن العابديـن عليه السلام متصفـاً بالحكمة والحنكـة، هدفه إحباط ذلك المسـعى الخبيث. فقضية ثبوت إمامـة أئمة أهل البيت، وبطلان خلافـة الخلفـاء، قضية أدق من أن يسـتعمل فيها مجرد الرفـض، واللعن، والتكفـير، والقذف، والسـب، وبالتـالي إثارة الخصم ودفعـه نحو الضجيج والعجيـج، وكيـل التهم، والتنفير، والاسـتهزاء، والتهجين، فقـد قال الإمام زين العابدين عليه السلام، مصوراً المسـتوى الثقافي والمعرفي للأمة غداة الفتوحات:» ما ندري، كيف نصنع بالناس! إن حدثناهم بما سـمعنا من رسـول الله رضي الله عنهما ضحكوا، وإن سكتنا، لم يسعنا»[١]. وكان الإمام الباقر عليه السلام يقول: بلية الناس علينا عظيمة، إن دعوناهم لم يستجيبوا لنا، وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا[٢].

١- الكافي،ج٣ ص٢٣٤.

٢- الإرشاد،المفيد ص٢٦٦.

وأمـا عنـد العقـلاء، فقضية ثبـوت إمامة أئمـة أهل البيـت، وبطلان خلافة الخلفـاء، هـي قضية ينشـأ عنهـا قناعة واعتقـاد نتيجة الإسـتدلال بأرقام، ونصـوص، وحقوق، وصفات، وفضائل. وهي عند أهل البيت قضية هداية وإيمـان، محورهـا (الحق) الذي أمـر الله بالتواصي به، والصـبر عليه. وإذا تصـدى لهـا أئمة أهـل البيت، وطالبوا بهـا فليس لحاجة في أنفسـهم إليها، بـل إنما من أجل أولئك الناس أنفسـهم، وهدايتهم إلى (الحق). فتعاطوا مع موضوع الخلافة والإمامة على اسـاس أنها مصلحة للناس، وهم المسـلمون في كل عـصر ومـصر، وعلى أسـاس الحفـاظ على دينهم الحق وهو الإسـلام المحمدي. فلم يسـمحوا للغوغـاء الطغام، والهوجـاء، أن يتحكموا في قضية الخلافة كي لا يقعوا ضحية عصبيتهم وهواهم، ولا يصبحوا ألعوبة في أيدي حكام الجور والضلالة، بإستعمالهم أداة في إثارة الفتنة بين المذاهب، وجيشاً يقمعون به أعداءهم. فإن الغوغاء لا يدخلون في أية قضية على أساس المنطق والعقل والشرع، بل يمارسـون ما تمليه عليهم طبيعتهم من الجدل، واللعن والإسـتنكار، والتمسـك الأعمى بالموروث والمنتشر الشائع بينهم بدون تدبر أو تامل. وقد كان الأمويون يستفيدون من إثارة القضية على مستوى العوام لكي يقضوا على وحدة المسـلمين، باتهام أهل البيت وشيعتهم، وهم يمثلون المعارضـة الجدية لهم. ولقد كان موقف الإمـام زين العابدين عليه السلام في إحباط هذا المسار، شجاعا، وصريحا، ومدروسا في عدم التورط مع العامة لمصلحة الأمويين، فهو عليه السلام لما سـئل عن منزلة الشيخين عند رسول الله صلى الله عليه وآله، أشار إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله ثم قال: بمنزلتهما منه الساعة[1] وفي نص آخر: كمنزلتهما منه اليوم، وهما ضجيعاه[2]. فالسـائل أراد أن يعلن الإمام عن رأيه في الشـيخين من حيث الفضل والمقام والرتبة عند رسول الله صلى الله عليه وآله ولكن الإمام عليه السلام لم يفسح

١- سير أعلام النبلاء، ج٤، ح٤ ص٣٩٥.

٢- تاريخ مدينة دمشق، ح٩٢. مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور ص١٤٧،٢٤٠.

لـه المجـال في اسـتدراجه إلى موقع يثير في وجهه غضـب العامة، فأجابه عن موضعهمـا من حيث المكان والمنزل والمدفـن، من دون أن يتعدى في الإجابة الحقيقة الظاهرة، أو يتجاوز الحق المفروض، فالشيخان كانا قريبين جسديا كما هما في قبريهما الآن بالنسبة إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله، لكن هل هذا كرامة لهما، وقـد دفنا في ما لم يملكا حق الدفن فيه ؟

ويقول عليه السلام لسـائل آخر: إذهب، فأحب أبا بكـر وعمر، وتولهما، فما كان من إثـم ففـي عنقي[1]. فيبعد الإمام، بحزم وجرأة، عـوام الناس عن التوجه إلى هـذه القضية الحساسـة، التي لم تكن هي مركـز الصراع في ميدان المواجهة ذلـك اليوم، بـل كان مركز الصراع هـو الطغيان الأموي، الـذي كان يتهدد أصـول الديـن، وفروعه، والذي كان ينـكل بخيار الصحابـة، وعلماء الأمة، فكان الإعراض عن القضية الأساس، والإنجرار للخوض في قضية الشيخين، خداعاً ومكراً ينفع الحكام الظالمين في المزيد من التفريق بين الأمة، وصرفها عنهم، وجعل الأمة في مواجهة أهل البيت، قادتها الحقيقيين! بحيث أن إثارة قضية الشـيخين لـن يزيد أهل البيت وشـيعتهم إلا انـزواءا وانعزالا، وذلك هـو المطلوب للأمويين والعباسـيين من بعدهم، ولـكل الطواغيت والظالمين إلى يومنـا هـذا، لأنه ييسر لهم وضع طليعة الأمـة وقيادتها وهم أهل البيت وشيعتهم في مواجهة كتلة جماهير العامة وبالتالي اجتثات أصولهم، والقضاء عـلى جذورهم. بينما التعبير عن تولي الشـيخين، وعامة الناس هم على ذلك، لا يغـير الآن شـيئا، وليـس لـه مفعول مثل مـا لتولي بني أميـة اليوم، وهم حكام مسـتحوذون مسـتخلفون كما اسـتخلف أبو بكر وعمـر، لكن هؤلاء مالكو السـاحة اليوم. وليسـت ولاية الشيخين بمجردها هي المشكلة الفعلية العائقـة، بـل المشـكلة الآن هـي ولاية بني أميـة ! الذين يسـتخدمون فكرة

١- تاريخ مدينة دمشق،ابن عساكر، ح٩٧. مختصر تاريخ مدينة دمشق، ج١٧،ص٢٤١.

ولايــة الشــيخين، ويريــدون بذلك فقط أن يســتمروا على الحكــم والخلافة، ويضربــوا من لا يوافقهم على ولايتهم التي هي اســتمرار لولاية الشــيخين. فأصبحت ولاية الشيخين، وسيلة بأيدي الأمويين ليثبتوا عرشهم، ويواجهوا أهــل البيت. فلذا أعلن الإمام زين العابدين عليه السلام للســائل، بأن ولاية الشــيخين ليســت موضعــا للنقــاش، في هذا الوقــت، إذ لا يترتــب عليها نفع للإســلام والمســلمين، لمضي زمانها، وإنما المضر الآن هو ولاية بني أمية، التي لا بد أن تميز عن ولاية الشــيخين ! ولقد كشــف الإمام زيــن العابدين عليه السلام عن جانب خطــير في هذه المســألة، ألا وهــو أن النظام الأموي ليس مســتفيداً فقط من هذه القضية بل هو وراء محاولة توريط أهل البيت في مواجهات خاسرة مع جمهــور العامة، فقد فضح الإمام هذا المخطط الشــيطاني، حيث قال لمثيري هذه القضية الحساسة: « قوموا عني، لا قرب الله دوركم، فإنكم متسترون بالإسلام، ولستم من أهله «[1]. فقد أعلن أن مثيري القضية بشكلها الغوغائي ليســوا مــن العوام العاديين، بل هم من عملاء بنــي أمية، ممن لا ينتمون إلى الإسلام إلا ظاهريا، وبالاسم فقط. فلم يكن من المصلحة الإجابة على مثل تلك الأســئلة التي يريد العدو أن يســتغل الإجابة الصحيحة عليها، لأنها مخالفة لــرأي العامة الغوغاء، فإنها ســوف تثير حقدهــم وعداوتهم، ويتكفلون هم بمحاصرة التشــيع. والمستفيد فقط، هم بنو أمية، فيكون الإمام عليه السلام قد واجه عملاء بني أمية، وجابههم، معرضاً بصراحة عن التفاصيل، فلم ينجر إلى ما يريدونه من صرف الأنظار عن مظالم بني أمية! بدون أن يخالف الحق، بل تخلص من الحرج، وبقي الحق ســليماً.

هــذا خطابــه عليه السلام للعوام، من الغوغاء من أهل العامــة، غير المتفهمين لأهداف الأئمة والإمامة، خطاباً يناســب حالهــم، وعلى قدر عقولهم. وأما خطابه عليه السلام

١- تاريخ مدينة دمشق، ح٩٨. مختصر تاريخ مدينة دمشق، ج١٧ ص٢٤١.

مع العلماء فيأخذ بعداً آخر، فهم ينتمون إلى أهل العلم، وهم أعقل وأبعد عن العصبيـة والهوى فينبغي تنبيههم إلى الحق، والنطق به بوضوح وصراحة، فقـد قال حكيم بن جبير للإمام زيـن العابدين عليه السلام: أنتم تذكرون أن عليا عليه السلام قال: «خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، والثاني عمر»! وإن شئت أن اسمي الثالث سميته!

فقال الإمام عليه السلام: فكيف أصنع بحديث حدثنيه سـعيد بن المسـيب عن سـعد بن مالك [ابن أبي وقاص] أن رسـول الله صلى الله عليه وآله خرج في غزوة تبوك فخلف عليا، فقال له: أتخلفني ؟ فقال: (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)؟

ثم ضرب الإمام زين العابدين عليه السلام على فخذ حكيم بن جبير ضربة أوجعته، ثم قال: فمن هذا الذي هو من رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة هارون من موسى ؟[١] وهل كان في بنـي إسرائيـل بعد موسى مثل هارون ؟ فأين يذهب بك يا حكيم ؟[٢]

لم يواجه الإمام عليه السلام حكيم بن جبير بتكذيب ما نسب إلى الإمام علي عليه السلام من أن خير الناس بعد النبي أبو بكر ثم عمر، فإن ذلك وإن لم يكن صحيحاً، لكنه مشـهور بين الناس، وتكذيبه اسـتفزاز للعامة! لكنه ذكره بأنه متناقض مع حديث المنزلة المتواتر[٣]. الذي لا يمكن إنكار صدوره، ولا الاختلاف في معناه. فإذا كان علي عليه السلام بهذه المنزلة من رسـول الله صلى الله عليه وآله في عصره وبحضور كبار الصحابة، فهل يبقى للحديث المنقول عن علي عليه السلام في تفضيل الشيوخ معنى؟ مع أن التاريخ والقرآن لم يذكر في بني إسرائيل شـخصا أفضل من هارون بعد موسى ؟ ثم ينبه الإمام عليه السلام حكيما بضربة على فخذه، وبعتاب! ولكن على فرض صحة صدور هذا المشـهور عن أمير المؤمنين عليه السلام فنحن أمام أسـلوب

١- مناقب أمير المؤمنين عليه السلام الكوفي، ج١ ص٥٢١، ح٤٥١ وح ٤٦١ ص٥٢٨.

٢- مناقب أمير المؤمنين عليه السلام، ج١ ص٥٢٢، ح٤٥٣.

٣- هذا الحديث الشريف متواتر.

حكيـم اتبعـه أهل البيت، بداية بعلي بن أبي طالب عليه السلام، يتعامل من خلاله مع الكتلة الواسعة من الأمة من أهل العامة بحذر ومرونة، فيكون الإمام قد أعلن عمـا عنـد الناس من التفضيل لأبي بكر وعمـر، بعد أن صار أمرا مفروضاً! فما فائدة إنكاره؟ فإن أعاد عليه السلام نفس ما تبنته العامة فلا يدل على أنه ملتزم بمضمونـه، بـل يـدل على أنه عليه السلام حريص عـلى عدم تمرير مشـاريع معاوية المعتمدة على إثارة الخلاف والشقاق والعداوة عند العامة في وجه أهل البيت.

وكان عـلى الإمـام زيـن العابدين عليه السلام سـحب عنصر آخر من عنـاصر التوتر والحصـار المـضروب على الكتلـة الشـيعية العتيدة، عبر المشـاركة في صلاة الجماعة التي تقام بإمامة بني أمية أو ولاتهم، فقد كانت هذه الصلاة عنوان السلطان الأموي، والغياب عنها سبب للإنكشاف الأمني والمذهبي وتعريض للشـيعة لمزيد من المخاطر، وقد انقلبت موازين القوى بعد كربلاء، والكتلة الشـيعية الآن تحت حد السـيف! فلم تكن المشاركة في صلاة الجماعة عنواناً للوحـدة بقـدر ما كانت احـترازاً أمنياً مذهبياً كي لا تتحـول فكرة مقاطعة جماعـة الحاكـم الظالم إلى فكرة أخرى هي أن شـيعة أهل البيت لا يصلون! وهذا سـهل طالما السلطان سـلطان الأمويين وجمهور العامة جمهورهم!

ولذلـك كان على الإمام عليه السلام أن يقف موقفاً حازماً من تجاوز أفراد من الكتلة الشـيعية لأوامره، إما نزقاً منهم وخرقاً! وإمـا نتيجة عدم وعيهم لخطورة ذلك على التشيع، وإما ظناً منهم بنحو من الأمان! فقد كان محمد بن الفرات يصلي إلى جنب الإمام زين العابدين عليه السلام يوم الجمعة، فسـمع ناسـا يتكلمون في الصـلاة ! فقال عليه السلام: ما هذا ؟

فقال محمد بن الفرات: شيعتكم ! لا يرون الصلاة خلف بني أمية !

إن هـؤلاء بـدلاً من أن يقتـدوا بإمامهم، الذي يرونـه واقفاً في الصف يؤدي الصلاة مع جماعة الناس، يلغطون، فيظهرون أنفسـهم أنهم لا يصلون مع

الجماعة في تحد سافر! مع أن الناس يعرفونهم بأنهم شيعة! فقال الإمام عليه السلام: هذا، والذي لا إله إلا هو، بدع، فمن قرأ القرآن، واستقبل القبلة فصلوا خلفه، فإن يكن محسنا فله حسنته، وإن يكن مسيئا فعليه[١].

لقد تدارك الإمام عليه السلام الموقف، وأفتاهم بما يلتزم به العامة من الصلاة خلف كل بر وفاجر، لأن المؤمن، عند أئمة أهل البيت، إذا حضر صلاة الجماعة، ولا بد أن يحضر، لأنه لا يمكنه الانعزال بل هو أولى بالمسجد من غيره[٢]، فعليه أن يقتدي بإمام الصلاة، ويصلي بصلاته، فإنها أفضل الركعات[٣] بل الصلاة معهم كالصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وآله[٤]. وإذا لم يحضر المؤمن صلاة الجماعة، فليصل منفردا في بيته[٥]. وأما أن يحضر الصلاة، ولا يصلي مع الجماعة، أو يلغط ويتكلم فيشوش على الآخرين أيضا، فهذا حرام قطعا، ولا يمكن أن يفعل ذلك شيعة أهل البيت.

وإلى جانب خطابه الهادف إلى عدم استفزاز العامة، وإلى درء خطرهم، وسوء فهمهم للأمور، والهادف إلى حرمان السلطان الأموي من فرصة استدراج الإمام من قبل الغوغاء نحو كلام ومواقف تلحق الضرر بقضية الإمام! إختار الإمام مرتبة ثانية من الكلام والخطاب، وجهه إلى الدائرة الواسعة للأمة، يتناسب ونمط التبليغ الأولي الذي تعبر عنه الآيات القرآنية والإستعارة منها، فكان الإمام يستدل دائماً بها، لأن هؤلاء العامة لا ينظرون إلى الإمام كإمام معصوم مفروض الطاعة، بل يطلبون الدليل في كلماته، وهو يستعين بالقرآن. ففي رواية مفصلة في كتاب «تحف العقول « تحت

١- تاريخ مدينة دمشق، ح١١٠. مختصر تاريخ مدينة دمشق، ج١٧ ص٢٤٣.

٢- وسائل الشيعة، ج٨ ص٣٠٠، الباب٥ من أبواب صلاة الجماعة كتاب الصلاة تسلسل. ١٠٧٢٢.

٣- وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الجماعة، الباب٣٤، تسلسل ١٠٩٢٥.

٤- وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، ج٨ ص٢٩٩ تسلسل ١٠٧١٧ و١٠٧٢٠ و١٠٧٢٣.

٥- وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، تسلسل ١٠٧٣٣.

عنـوان» موعظة لسـائر أصحابه وشـيعته وتذكيره إياهـم كل يوم جمعة « كان للإمام زين العابدين عليه السلام مجلس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعظ الناس فيه، ويزهدهـم في الدنيا، ويرغبهـم في أعمال الآخرة، وكان يقول:

أيهـا النـاس ! اتقوا الله واعلموا أنكم إليه ترجعون، فتجد كل نفس ما عملت مـن خـير محـضرا وما عملت من سـوء، تود لـو أن بينها وبينه أمـدا بعيدا، ويحذركـم اللـه نفسـه. ويحك ! يا بـن آدم الغافل، وليس بمغفـول عنه ! يا بن آدم ! إن أجلك أسرع شـئ إليك قد أقبل نحوك حثيثا يطلبك، ويوشـك أن يدركك، وكأن قد أوفيت أجلك، وقبض الملك روحك وصرت إلى قبرك وحيدا، فرد إليك فيه روحك، واقتحم عليك فيه ملكان: ناكر ونكير لمسـألتك وشـديد امتحانك. ألا، وإن أول ما يسألانك، عن ربك الذي كنت تعبده وعن نبيك الذي أرسـل إليـك! وعن دينك الذي كنـت تدين به! وعن كتابك الـذي كنت تتلوه! وعـن إمامـك الـذي كنت تتـولاه ! ثم، عن عمـرك في ما كنت أفنيتـه ! ومالك مـن أين اكتسـبته! وفي مـا أنت أنفقته ! فخـذ حذرك، وانظر لنفسـك، وأعد الجواب قبل الامتحان والمسألة والاختبار. فإن تك مؤمنا عارفا بدينك، متبعا للصادقـين، مواليـا لأولياء الله، لقـاك الله حجتك وانطلق لسـانك بالصواب وأحسـنت الجواب، وبشرت بالرضوان والجنة من الله عز وجل، واستقبلتك الملائكة بالروح والريحان. وإن لم تكن كذلك تلجلج لسانك ودحضت حجتك وعييـت عن الجـواب، وبشرت بالنار، واسـتقبلتك ملائكة العـذاب بنزل من حميـم وتصليـة جحيم. واعلـم يا بـن آدم: أن من وراء هذا أعظـم، وأفظع، وأوجع للقلوب يوم القيامة، وذلك يوم مجموع له الناس، وذلك يوم مشهود، يجمع الله عز وجل فيه الأولين والآخرين. ذلك يوم ينفخ في الصور، وتبعثر فيـه القبـور. وذلك يوم الأزفة، إذ القلوب لدى الحناجر، كاظمين. وذلك يوم لا تقـال فيـه عثـرة، ولا يؤخذ من أحـد فدية، ولا تقبل عن أحـد معذرة، ولا

لأحد فيه مستقبل توبة، ليس إلا الجزاء بالحسنات والجزاء بالسيئات. فمن كان من المؤمنين عمل في هذه الدنيا مثقال ذرة من خير وجده، ومن كان من المؤمنين عمل في هذه الدنيا مثقال ذرة من شر وجده. فاحذروا، أيها الناس من الذنوب والمعاصي ما قد نهاكم الله عنها، وحذركموها في كتابه الصادق، والبيان الناطق. ولا تأمنوا مكر الله وتحذيره وتهديده، عندما يدعوكم الشيطان اللعين إليه من عاجل الشهوات واللذات في هذه الدنيا، فإن الله عز وجل يقول: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)[1]. وأشعروا قلوبكم خوف الله، وتذكروا ما قد وعدكم الله في مرجعكم إليه من حسن ثوابه، كما قد خوفكم من شديد العقاب، فإنه من خاف شيئا حذره، ومن حذر شيئا تركه. ولا تكونوا من الغافلين، المائلين إلى زهرة الدنيا، الذين مكروا السيئات، فإن الله يقول في محكم كتابه:(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ)[2]. فاحذروا ما حذركم الله، بما فعل بالظلمة، في كتابه، ولا تأمنوا أن ينزل بكم بعض ما تواعد به القوم الظالمين في الكتاب. والله، لقد وعظكم الله في كتابه بغيركم، فإن السعيد من وعظ بغيره. ولقد أسمعكم الله في كتابه ما قد فعل بالقوم الظالمين من أهل القرى قبلكم، حيث يقول: (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً) وإنما عنى بالقرية أهلها، حيث يقول: (وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ) فقال عز وجل: (فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ) يعني يهربون، قال: (لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ) فلما أتاهم العذاب (قَالُوا يَا وَيْلَنَا

١- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية٢٠١.

٢- القرآن الكريم، سورة النحل، الآيات ٤٥، ٤٧.

إِنَّـا كُنَّـا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّـى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ)[١]. وأيم الله، إن هذه عظة لكم وتخويف، إن اتعظتم وخفتم. ثم رجع القول من الله في الكتاب على أهل المعاصي والذنوب، فقال الله عز وجل:(وَلَئِنْ مَسَّـتهُمْ نَفْحَـةٌ مِـنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)[٢]. فإن قلتم إن الله عز وجل إنما عنى بهذا أهل الشرك ! فكيف ذاك ؟ وهو يقول: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْـطَ لِيَـوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَـيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَـالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَـا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِـبِينَ)[٣]! إعلموا، عبـاد الله، إن أهل الشرك لا تنصب لهـم الموازين ولا تنشر لهـم الدواوين، وإنما يحشرون إلى جهنم زمرا، وإنما نصب الموازين ونشر الدواوين لأهل الإسـلام. فاتقوا الله عباد الله. واعلموا أن الله عز وجل لم يحب زهرة الدنيا وعاجلها لأحد من أوليائه، ولم يرغبهم فيهـا وفي عاجل زهرتهـا وظاهر بهجتها، وإنما خلق الدنيـا وأهلها ليبلوهم فيها، أيهم أحسن عملا لآخرته. وأيم الله، لقد ضرب لكم فيه الأمثال، وعرف الآيـات لقـوم يعقلون، ولا قوة إلا بالله. فازهـدوا في ما زهدكم الله عز وجل فيـه من عاجـل الحياة الدنيـا. فإن الله عز وجـل يقول، وقولـه الحق:(إِنَّمَا مَثَـلُ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَـا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَـاهُ مِنَ السَّـمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَـاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَـأْكُلُ النَّـاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّـى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَـا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُـمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَـاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْـسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَـاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[٤]. فكونوا عباد الله من القوم الذيـن يتفكرون، ولا تركنـوا إلى الدنيا فإن الله عز وجل قال لمحمد صلى الله عليه وآله:(وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّـكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ

١- القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآيات ١١، ١٥.

٢- القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية ٤٦

٣- القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

٤- القرآن الكريم، سورة يونس، الآية ٢٤.

تُنْصَرُونَ)[١] ولا تركنوا إلى زهرة الدنيا وما فيها ركون من اتخذها دار قرار ومنزل استيطان، فإنها دار بلغة، ومنزل قلعة، ودار عمل، فتزودوا الأعمال الصالحة فيها قبل تفرق أيامها، وقبل الإذن من الله في خرابها، فكان قد أخر بها الذي عمرها أول مرة وابتدأها وهو ولي ميراثها فأسأل الله العون لنا ولكم على تزود التقوى، والزهد فيها. جعلنا الله وإياكم من الزاهدين في عاجل زهرة الحياة الدنيا، الراغبين لآجل ثواب الآخرة، فإنما نحن به وله. وصلى الله على محمد وآله وسلم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[٢].

فالإمام في هذه الخطبة يخاطب الدائرة الأوسع من الناس، ويقول: أيها الناس، اتقوا الله واعلموا أنكم إليه راجعون! ولا يستخدم كلمة « أيها المؤمنون « أو « أيها الأخوة «، ما يعني أن خطابه ليس موجهاً إلى كتلة شيعية خاصة، بل إلى عموم المسلمين.

والملفت أنه لا يصرح بما يعارض الحاكم الأموي، بل يوجه الكلام نحو تبيان العقائد الإسلامية، وضرورة فهم الإسلام الصحيح، وهذا من آثار حركة الفتوحات التي تركت أثراً سلبياً على عموم المسلمين، فهم لا يعرفون الإسلام المحمدي الأصيل! والإمام يريد إيقاظهم من غفلة الجهل ونقلهم إلى معرفة الإسلام وتعاليمه، وما ينبغي أن يعرفه الإنسان المسلم، وذلك بلسان الموعظة، فيوقظ فيهم الدافع لمعرفة الله وفهم التوحيد حيث يقول: « ألا وإن أول ما يسألانك عن ربك الذي كنت تعبده «، ثم ينتقل إلى الدافع لفهم النبوة فيقول: «وعن نبيّك الذي أرسل إليك « وحقيقة دينك الذي أنت تتدين به وكتابك الذي تعتمد وترتكز إليه: « وعن دينك الذي كنت تدين به، وعن كتابك الذي كنت تتلوه...»

١- القرآن الكريم، سورة هود، الآية ١١٣.

٢- الكافي، ج٨ ص٧٢،٧٦. تحف العقول ص٢٤٩، ٢٥٢. الأمالي، الصدوق، المجلس ٧٦ ص ٤٠٧،٤٠٩.

وفي هذا الخطاب الموجه إلى العامة، يحاول الإمام أن يحيي الأصول الحساسة للمعارف الإسلامية، بلغة الموعظة، وبأسلوب بياني، وليس تعليمياً، وبنوع من التذكير، لا التعمق والتأصيل، فلم تكن الأمة بعد قد وصلت إلى منحدر الضلال بحيث أنها تحتاج إلى معرفة جذور وأصول ودقائق مسالة التوحيد، أو النبوة، بل يكفي في هذه المرحلة أن يذكرهم بها. لأن المجتمع الذي كان يعيش فيه الإمام لم تكن تفصله عن مرحلة النبي صلى الله عليه وآله مسافة زمنية كبيرة حتى ينحرف كلياً عن الأوليات الإسلامية، فقد كان كثير من الصحابة ممن عايش رسول الله صلى الله عليه وآله ومرت عليهم مرحلة الخلفاء والإمام علي عليه السلام، ومن التابعين الذين عاصروا أئمة أهل البيت من الإمام الحسن إلى الإمام الحسين إلى الإمام زين العابدين، ما زالوا أحياء. ولم يكن الوضع الفكري قد وصل بعد إلى مرحلة يعاني فيها المجتمع الإسلامي من الإنحراف العقائدي والأصولي بالنسبة لمسائل التوحيد والنبوة والمعاد والقرآن.

نعم كانت الأمة قد خرجت إلى العالم، كما قلنا، بدون أن تتزود بزاد الوقاية من الثقافات والحضارات التي سوف تحتك بها، فيمكن أن تخرج هذه المسائل من ذاكرتها تدريجياً، بسبب الحياة المادية والدنيوية التي استجدت وأحاطت بهم، وبسبب ولادة أجيال جديدة في حضن الجاهليات التي احتكت بها وتعايشت مها أمة الإسلام، بحيث لا تبقي في أذهان هذه الأجيال الجديدة أي توجه للمسابقة في مضمار المعنويات والخيرات. وإذا وجد هذا الأمر فإنه لم يكن ليتعدى القشور والسطوح، وهذا ما كان يستدعي التذكير حتى يرجع الأمر إلى سابق عهده، لا أن نفس عقائد الإسلام غدت منحرفة عن أصولها الأولى وينبغي أن تصحح.

وهذا بخلاف الأطوار اللاحقة، كطوري الإمامين الصادقين، فقد ظهر في ذلك الوقت الكثير من المتكلمين والمتفلسفين والمفكرين، وتحت عناوين

متعددة كانوا يجلسون في المساجد الكبرى مثل مسجد المدينة والمسجد الحرام ومساجد الكوفة والبصرة والشام، ويدرّسون العقائد المنحرفة والباطلة. لقد برز حينها أناس مثل « ابن أبي العوجاء « يدرسون عقائد الزنادقة والإلحاد. لهذا إذا تأملنا أحاديث وكلمات الإمام الباقر والصادق عليهما السلام نجد بيان التوحيد والنبوة وأمثالها بصورة إستدلالية.

فالحاجة إلى الإستدلال ضرورية لمواجهة إستدلال الخصم، وهذا ما لا نجده في بيانات الإمام زين العابدين عليه السلام التي كانت تعتمد على العاطفة والشعور والوجدان حتى تذكر بالقضايا الأساسية.

وباختصار لم يكن عصر الإمام زين العابدين عليه السلام يحكي عن خروج عن الفكر الإسلامي حتى عند الحكام، إلا في بعض الموارد التي يظهر فيها مثل هذا الأمر.. فحتى أمثال عبد الملك بن مروان أو الحجاج، لم يكونوا يجرؤون على إعلان مخالفتهم لفكرة التوحيد أو النبوة. لقد كان عبدالملك بن مروان يقرأ القرآن إلى درجة أنه عرف كأحد قرّاء القرآن، حتى وصل إليه خبر تنصيبه خليفة فقبّل القرآن قبلة الوداع، وخاطبه قائلا: « هذا فراق بيني وبينك «. وكان الحجاج بن يوسف عندما يخطب في الناس يأمرهم بالتقوى! وهكذا! كان الإمام زين العابدين عليه السلام يخاطب الناس فيذكرهم بالقيم الإسلامية التي تخرجهم من مستنقع الدنيا والأهواء المادية إلى ساحة معرفة الله والدين والقرآن والسنة النبوية، ويشير إلى جملة من العلوم والمعارف الإسلامية التي تذكرهم موت الإنسان والسؤال في القبر عن الرب والنبي والإمام، بنحو من الرفق والرقة، وبما يتناسب مع الدائرة الواسعة من عوام الناس. كما كان للإمام عليه السلام مرتبة ثالثة من الخطاب، يرفع فيه مستوى كلامه عندما يقصد فئة أخرى من الناس المؤمنين هي أخص من الأولى، من الذين لحقوا وكثروا، وكانوا من الذين يخالفون النظام الحاكم، ومن المؤمنين الذين

يعرفون الإمام عليه السلام وقوله مقبول عندهم، ولهذا لم يكن يستند في كلامه، في التركيز على إعادة صياغة أفكارهم، إلى الإستدلال بالآيات القرآنية، بل كان إستخدامها في كلامه قليلاً جداً. وفي هذا النوع من الخطاب طرح الإمام مسألة الإمامة بصورة صريحة، أي قضية الخلافة والولاية على المسلمين والحكومة على الناس وإدارة النظام الإسلامي، ولم يكن بمقدور الإمام في ذلك الوقت أن يوجه هذا الخطاب لعامة الناس. ولكنه كان يطرح تجارب أهل البيت عليهم السلام الماضية، والأيام التي مرت على الشيعة من قبل الحكام الجائرين مثل معاوية ويزيد ومروان، والوقائع المريرة في تاريخهم، مثل عاشوراء وشهادة حجر بن عدي وعشرات الحوادث الشديدة المهمة، وكأنه كان يريد بهذه الذكريات حث المخاطبين على التمسك بحبل النهوض والثورة، وبث الأمل والقوة، وبعث النشاط والهمة في نفوس أصحابه، ففي رسالته إليهم يقول عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

((كفانا الله وإياكم كيد الظالمين، وبغي الحاسدين، وبطش الجبارين. أيها المؤمنون! لا يفتنكم الطواغيت وأتباعهم من أهل الرغبة في هذه الدنيا، المائلون إليها، المفتنون بها، المقبلون عليها، وعلى حطامها الهامد، وهشيمها البائد غدا، فاحذروا ما حذركم الله منها، وازهدوا في ما زهدكم الله فيه منها. ولا تركنوا إلى ما في هذه الأمور ركون من اتخذها دار قرار ومنزل استيطان. والله ! إن لكم مما فيها لدليلا، وتنبيها، من تصرف أيامها، وتغير انقلابها ومثلاتها، وتلاعبها بأهلها، إنها لترفع الخميل، وتضع الشريف، وتورد أقواما إلى النار غدا، ففي هذا معتبر ومختبر وزاجر لمنتبه. إن الأمور الواردة عليكم في كل يوم وليلة من مضلات الفتن، وحوادث البدع، وسنن الجور، وبوائق الزمان، وهيبة السلطان، ووسوسة الشيطان، لتثبط القلوب عن تنبهها، وتذهلها عن موجود الهدى، ومعرفة أهل الحق إلا قليلا ممن

عصم الله، فليس يعرف تصرف أيامها وتقلب حالاتها، وعاقبة ضرر فتنتها إلا من عصم الله، ونهج سبيل الرشد، وسلك طريق القصد، ثم استعان على ذلك بالزهد، فكرر الفكر، واتعظ بالعبر فازدجر، وزهد في عاجل بهجة الدنيا، وتجافى عن لذاتها، ورغب في دائم نعيم الآخرة، وسعى لها سعيها، وراقب الموت، وشنأ الحياة مع القوم الظالمين، ونظر إلى ما في الدنيا بعين نيرة حديدة النظر، وأبصر حوادث الفتن، وضلال البدع، وجور الملوك الظلمة. فقد، لعمري، استدبرتم الأمور الماضية في الأيام الخالية من الفتن المتراكمة، والانهماك فيها، ما تستدلون به على تخيب الغواة وأهل البدع، والبغي، والفساد في الأرض، بغير الحق. فاستعينوا بالله، وارجعوا إلى طاعة الله، وطاعة من هو أولى بالطاعة ممن اتبع فأطيع. فالحذر، الحذر، من قبل الندامة والحسرة والقدوم على الله، والوقوف بين يديه. وتالله! ما صدر قوم قط عن معصية الله إلا إلى عذابه، وما آثر قوم قط الدنيا على الآخرة، إلا ساء منقلبهم، وساء مصيرهم. وما العلم بالله والعمل بطاعته إلا إلفان مؤتلفان، فمن عرف الله خافه، وحثه الخوف على العمل بطاعة الله. وإن أرباب العلم وأتباعهم الذين عرفوا الله فعملوا له، ورغبوا إليه، فقد قال الله: (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[1]. فلا تلتمسوا شيئا مما في هذه الدنيا بمعصية الله، واشتغلوا في هذه الدنيا بطاعة الله، واغتنموا أيامها، واسعوا لما فيه نجاتكم من عذاب الله، فإن ذلك أقل للتبعة، وأدنى من العذر، وأرجى للنجاة. فقدموا أمر الله، وطاعة من أوجب الله طاعته، بين يدي الأمور كلها، ولا تقدموا الأمور الواردة عليكم من الطواغيت، من زهرة الدنيا، بين يدي أمر الله وطاعته وطاعة أولي الأمر منكم. واعلموا أنكم عبيد الله، ونحن معكم، يحكم علينا وعليكم سيد غدا، وهو موقفكم، ومسائلكم،

١- القرآن الكريم، سورة فاطر، الآية ٤.

فأعدوا الجواب قبل الوقوف والمسألة والعرض على رب العالمين. واعلموا أن الله لا يصدق كاذبا، ولا يكذب صادقا، ولا يرد عذر مستحق، ولا يعذر غير معذور، له الحجة على خلقه بالرسل والأوصياء.

فاتقوا الله، عباد الله، واستقبلوا في إصلاح أنفسكم طاعة الله، وطاعة من تولونه فيها، لعل نادما قد ندم في ما فرط بالأمس في جنب الله، وضيع من حقوق الله. فاستغفروا الله، وتوبوا إليه، فإنه يقبل التوبة، ويعفو عن السيئة، ويعلم ما تفعلون. وإياكم، وصحبة العاصين، ومعونة الظالمين، ومجاورة الفاسقين، احذروا فتنتهم، وتباعدوا من ساحتهم. واعلموا أنه من خالف أولياء الله، ودان بغير دين الله، واستبد بأمره دون ولي الله كان في نار تلهب، تأكل أبدانا قد غاب عنها أرواحها، وغلبت عليها شقوتها، فهم موتى لا يجدون حر النار، ولو كانوا أحيأءا لوجدوا مضض حر النار. فاعتبروا يا أولي الأبصار واحمدوا الله على ما هداكم، واعلموا أنكم لا تخرجون من قدرة الله إلى غير قدرته، وسيرى الله عملكم ورسوله، ثم إليه تحشرون. وانتفعوا بالعظة. وتأدبوا بآداب الصالحين[1])).

أي إنكم تستحضرون تلك التجارب وتعلمون ماذا سيفعل بكم أهل البغي والفساد، وهم حكام الجور، عندما يتسلطون عليكم، ولذلك يجب عليكم أن تتجنبوهم وتواجهوهم.

وهو حينما يقول: « فقدموا أمر الله وطاعة من أوجب الله طاعته » فهو إنما يطرح مسألة الإمامة بصورة صريحة، أي قضية الخلافة والولاية على المسلمين، والحكومة على الناس، وإدارة النظام الإسلامي، ولا شك أن هذا من باب التعبئة الخاصة بالكتلة الشيعية! إذ لا يمكن أن يوجه الإمام هذا النوع من الكلام إلى الدائرة الإسلامية الأوسع، لأنه يعين فلسفة الإمامة عند الشيعة،

١- الكافي، ج٨ ص١٤ – ١٧. الأمالي، المفيد ص٢٠٠، ٢٠٤. الأمالي، الطوسي، ج١ ص١٢٧،٤. ورواه في تحف العقول ص٢٥٢، ٢٥٥.

والإنسان الذي يجب أن يطاع بعد الله، ولو فكر الناس في ذلك الوقت بهذه المسألة لعلموا بوضوح أنه لا يجب طاعة عبد الملك بن مروان، لأنه من غير الجائز أن يوجب الله طاعة عبدالملك، ذلك الحاكم الجائر بكل فساده وبغيه.

رسالة الحقوق

وقد نظم الإمام زين العابدين عليه السلام وثيقة تنظيمية داخلية، تقوم بهندسة العلاقات بين الشيعة ومن يرتبط بهم في كل الإتجاهات وتوجيهها باتجاه استثمارها في صياغة الكتلة الشيعية، سماها رسالة الحقوق، فهي برنامج عمل يصبغ العلاقات بين الشيعة ومحيطهم بصبغة شرعية دينية مثالية أخلاقية، فيجعل الإمام فيها الكتلة الشيعية ساعية ومجاهدة باتجاه أن تكون هي الكيان الأنظف والنموذج في المجتمع العام الذي هو في الحقيقة البحر الذي سوف تغرف منه الكتلة الشيعية عديدها وتكسب به المزيد من القوة والبأس، ولا شك أن الإمام عليه السلام ليس في صدد إصلاح الأمة كلها والمجتمع الإسلامي كله الذي هو كتلة العامة الموالية والتابعة للسلطان! فقد فرغنا من وداع هذه المرحلة الأولى التي ميّزت أيام الأئمة الثلاثة الأوائل، حيث كان خطابهم عاماً كالمطر! يدل على اهتمام كل إمام منهم بكل ما يدور حوله في المجتمع الإسلامي، وعنايته بسلامته العامة، ورعايته لأمنه واستقراره العام، وحفاظه على تكوينه الإسلامي.. ونحن الآن أمام المرحلة الثانية بعد كربلاء حيث انطلق الإمام يؤسس الكتلة الشيعية، وهو حريص على أن لا يضيّع وقته في الإصلاح العام لكتلة العامة، بل أصبح خطابه كالسقي بالنقطة! وليس كالمطر!

إن صياغة هذه القواعد الدقيقة والواقعية في تعامل الشيعة مع محيطهم، تدل على عمق شخصية الإمام، وقدرته العالية على طرح مشروع البناء الفردي للكادر الشيعي الذي عليه أن يتجاوز محنة كربلاء ويستفيد منها في

إعادة صياغة نفسه وبالتالي صياغة المجتمع الجديد الذي سوف يقوم في يوم من الأيام بتدمير سلطان الطاغوت وإعادة الدولة إلى أصحابها الحقيقيين، فلم يعد العمل اليوم هو عمل يهتم بشؤون الأمة، وإصلاحها فكريا وثقافيا، واقتصاديا، واجتماعيا، وإداريا، وصحيا، ونفسيا، لأن شخصاً محاصراً ومضيّقاً عليه كالإمام عليه السلام لا يستطيع أن يقدّم للأمة في هذه المجالات إلا كلمات ومواعظ ونصائح، سوف تضيع في بحر ولجج غوغاء أهل العامة المرتبطين بالسلطان، وتكون كالذي يحلّي البحر! والكلمات والمواعظ والنصائح لا تكاد تكفي في إصلاح ما فسد من حال الأمة بعد أن صنع فكرها ودينها وثقافتها أئمة الضلال، فإن إصلاح الأمة في هذه المجالات يحتاج إلى أن يكون الإمام في سدة الحكم والإدارة بحيث يستطيع أن يملي تشريعاته وقوانينه على الأمة المترامية الأطراف والتي انتشرت بسبب الفتوحات وأصبح ضبطها والتأثير عليها من أصعب الأمور، وهذا الدرس الخطير تعلمناه في كربلاء.

وأخطر ما يدل على أن رسالة الحقوق إنما هي رسالة ثورية، هو عناوين أتقن الإمام صياغتها وتقديمها لشيعته برداء من الإيجابية الأخلاقية، مثل عناوين حق السلطان، وحق الرعية، وحق أهل الملة عامة، وحق أهل الذمة، وغيرها مما يرتبط بأمور الدولة والحكم! فأي حق للسلطان؟ إن السلطان يومئذ ولمئات السنين القادمة، وهو غير أئمة الحق، ليس له إلا السيف في الحقيقة وواقع الأمر، لأن لا سلطان إلاّ سلطان الحق الإلهي! ولأننا أمرنا أن نكون أبداً للظالم خصماً وللمظلوم عوناً، فعبارة حق السلطان هي في الحقيقة: كيف ينبغي أن تتعاطى مع السلطان الظالم الغشوم!.

قال عليه السلام: وأما حق سائسك بالسلطان فأن تعلم أنك جعلت له فتنة، وأنه مبتلى فيك بما جعله الله له عليك من السلطان. وأن تخلص له في النصيحة، وأن لا تماحكه، وقد بُسِطت يده عليك، فتكون سبب هلاك نفسك وهلاكه.

وتذلل وتلطف لإعطائه من الرضا ما يكفه عنك، ولا يضر بدينك، وتستعين عليه في ذلك بالله. ولا تعانده، فإنك إن فعلت ذلك عققته وعققت نفسك، فعرضتها لمكروهه، وعرضته للهلكة فيك، وكنت خليقا أن تكون معينا له على نفسك، وشريكا له في ما أتى إليك من سوء. ولا قوة إلا بالله.

فإن السلطان، على ما يبدو من عبارة الإمام، ليس الإمام العادل، بل هو السلطان الظالم المتغلِّب الذي يبتلي بالناس المحكومين ويبتلون به، فيهلكون بعضهم بعضاَ ويسيئون إلى بعضهم البعض، فهو السائس بسلطانه، أي بالقوة وليس بالتكليف الإلهي! وهو يحذر من مماحكته ومعاندته والإمام العادل إذا ماحكه أو عانده أحد فإنه يُهلك المسيء ولا يَهلك هو ولا يناله سوء! كذلك عندما يخاطب السلطان، ويقول عليه السلام: وأما حق رعيتك بالسلطان: فأن تعلم أنك إنما استرعيتهم بفضل قوتك عليهم، فإنه إنما أحلهم محل الرعية لك ضعفهم وذلهم. فما أولى من كفاكه ضعفه وذله حتى صيره لك رعية وصير حكمك عليه نافذا، لا يمتنع عنك بعزة ولا قوة، ولا يستنصر في ما تعاظمه منك إلا بالله، بالرحمة والحياطة والأناة. وما أولاك، إذا عرفت ما أعطاك الله من فضل هذه العزة والقوة التي قهرت بها، أن تكون لله شاكرا، ومن شكر الله أعطاه في ما أنعم عليه. ولا قوة إلا بالله.

إن الإمام عليه السلام في هاتين الفقرتين يقطع النظر عن الولاية الإلهية التكوينية، ومنصب الإمامة المفروضة تشريعيا على الناس. ولذلك عبر بـ (السلطان) و (الرعية) ولم يفرض في السلطان ولاية إلهية، وإنما فرضها سلطة حاصلة بالقوة والقهر، فهو وصل إلى السلطة بالقوة والغلبة، والرعية ضعاف أذلاء، وليس هذا هو قانون العلاقة بين الإمام العادل والرعية، فالسلطان متسلط بالقوة على الرعية، لا يوجد عليه واجب يجب أن يؤديه سوى أن يغادر هذا المنصب وينصرف. وأما الرعية المواجهة لمثل هذا السلطان المغتصب للسلطة

فـلا بد أن تعرف حدودها تجاهه، فلا تقتحمها وتتورط بالهلكة، فيجب أن تحذر من التعرض لبطشه وسطوته، كما قال إبن الوردي في لاميته:

جانـب السـلطان واحذر بطشـه لا تعانـد مـن إذا قـال فعـل

ثانياً: مقام العمل

كان دور أهل البيت في عملية الإستقطاب وتوسيع الكتلة الشيعية على حساب كتلة العامة، هو أن يبلغوا مرتبة الكمال في شخصيتهم في كل جوانبها، بمعنى أن يكونـوا الأكمـل في كل شيء، وحتـى يتمكن الإمام زيـن العابدين عليه السلام من جذب قلوب الناس، ويتجاوز حالة ما بعد كربلاء في المدينة، ويؤسس للكتلة الشيعية الجديدة، قدّم نفسه مثالاً كاملاً لمن يراه ويحتك به أو يسمع به من بعيد، في حياته الخاصة، وفي سيرته مع الناس، فكان ذلك من أهم أسباب فك العزلة عنه وعن الشيعة، بعد أن انغلقوا عنهم، واعتزلوهم بعد وقعة كربلاء. لقـد قـدم نفسـه أنموذجاً عالياً للعفـو عند المقدرة في تعامله مع هشـام بن إسـماعيل، أمير المدينة للأمويين، والـذي كان يؤذيه عليه السلام، ولكن جرت الرياح كما لا تشـتهي سفنه، فعزله الأمويون وانقلب عليه دهره، وأوقفوه للناس، لمحاسـبته على تجاوزاته، فكان لا يخاف إلا من الإمام عليه السلام أن يؤاخذه على ما كان منه. فمر به الإمام عليه السلام، وأرسـل إليه: «اسـتعن بنا على ما شـئت». فقال هشـام: «الله أعلم حيث يجعل رسالته»[1].

وقـدّم نفسـه أنموذجـاً عاليـاً في العلم والتفكـر والتدبر، فقـد كان من أهم مداميك الكتلة الشـيعية المميزة عن الكتلة العامة المنقادة للسـلطان هو بناء قاعـدة التفكير والتدبـر، وطلب العلـم، والحكمة، فكان الإمـام عليه السلام يخاطب

١- ألقرآن الكريم، سـورة الأنعام، الآية ١٢٤. تاريخ مدينة دمشـق، ح١١١. مختصره، ابن منظور، ج١٧ ص٢٤٣. بحـار الأنـوار، ج٤٦ ص٩٤ و١٦٧. شرح الأخبـار، ج٣ ص٢٦٠ كشـف الغمـة، ج٢ ص١٠٠. تاريـخ الأمـم والملوك، ج٥ ص٢١٦. تاريـخ اليعقوبي، ج٢ ص٢٨٠ و٢٨٣.

شـيعته بأن «الفكرة مرآة تري المؤمن حسـناته وسـيئاته»[١]. وأن «سـادة الناس في الدنيا الأسـخياء، وفي الآخرة أهل الدين، وأهل الفضل، والعلم، لأن العلمـاء ورثـة الأنبياء»[٢]. و«لـو يعلم الناس ما في طلـب العلم لطلبوه ولو بسـفك المهج وخوض اللجج». إن الله أوحى إلى دانيال: إن أمقت عبيدي إلي الجاهل، المستخف بحق أهل العلم، التارك للاقتداء بهم، وإن أحب عبيدي إلي التقـي، الطالب للثواب الجزيل، الملازم للعلمـاء، التابع للحكماء[٣].

وكان عليه السلام إذا نظر إلى الشباب الذين يطلبون العلم أدناهم إليه، فقال: مرحبا بكم، أنتم ودائع العلم، أنتم صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار آخرين. وكان إذا جاءه طالب علم قال: مرحبا بوصية رسول الله رضي الله عنهما[٤].

ومن أجل صيانة الكتلة الشـيعية ووقايتها، وبناء الإنسـان الشـيعي القدوة والنموذج، المصان من تأثير العامة والسـلطان والمال! دعاه الإمام إلى تعزيز مراقبته لنفسـه مراقبة ذاتية، وتربيتهـا وتهذيبها، وحذره من الجلوس مع الظالمـين، والتحـدث معهم في جهالاتهم، والإسـتماع إلى تخرصاتهم، فيقول لـه: ليـس لك أن تقعد مع من شـئت، لأن الله تعالى يقول: «وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين»[٥]. وليس لك أن تتكلم بما شئت، لأن الله يقول: «ولا تقف ما ليس لك به علم»[٦] وقال رسول الله رضي الله عنهما: «رحم الله عبدا قال خيرا فغنم، أو صمت فسلم». وليس لك أن تسمع ما شئت،

١- تاريخ مدينة دمشق، ح١٣٨. مختصره، ابن منظور، ج١٧ ص٢٥٤.

٢- تاريخ مدينة دمشق، ح٨٥. مختصره، ابن منظور، ج١٧ ص٢٣٩.

٣- الوافي، الفيض الكاشاني، ج١ ص٤٢.

٤- الخصال، الصدوق، ص٥١٧.

٥- القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية ٦٨.

٦- القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية ٣٦.

لأن الله يقول: «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا»[١]. بهذا يحصن الإمام عليه السلام الكتلة الشيعية خاصة، بالطاعة، والزهد، والورع عن المعاصي، والبعد عن بهجة الدنيا وعن مفاتن الحياة المادية، التي يستخدمها الطواغيت، كمغريات لتحريف الأمة عن سنن الهدى. ويحاول الإمام عليه السلام أن يهون عليهم المصائب والأتعاب التي تواجههم. ويؤكد على التزامهم بالحق، واعتقادهم بولاية أئمة أهل البيت : الذين فرض الله ولايتهم وأوجب طاعتهم. ويبث في نفوسهم روح المقاومة والصبر والصمود، ويثير فيهم روح العمل والنشاط ! ويملؤهم بالأمل، والبشرى بالنجاح والفلاح، ويصلي عليهم لتكون صلاته سكنا لهم. فيقول في دعائه ليوم عرفة بعد الصلاة على الأئمة: «اللهم ! وصل على أوليائهم، المعترفين بمقامهم، المتبعين منهجهم، المقتفين آثارهم، المستمسكين بعروتهم، المتمسكين بولايتهم، المؤتمين بإمامتهم، المسلمين لأمرهم، المجتهدين في طاعتهم، المنتظرين أيامهم، المادين إليهم أعينهم»[٢].

١ – الزهد:

أحد جوانب الكمال عند أهل البيت الزهد في الدنيا، فلم يميلوا إلى الاستمتاع بلذاتها ومغرياتها، بل اقتصروا على الضروري الأقل، من المشرب والملبس والمسكن والمأكل. وقد التزموا بهذه الفضيلة بأقوى شكل، التزاماً هو أكبر من مجرد الفضل والخلق الجيد، فكونهم أئمة يقتدى بهم وأمثولة لمن يعتقد بهم، وأسوة لمن سواهم، وقدوة للمؤمنين، يتبعون خطاهم، فهم لو تخلَّقوا بهذا الخلق الكريم، سوف يتأثر بهم جمع من الناس، وسوف يسعون إلى القيام بذلك معهم، فيسيروا على طرق مأمونة من الانحراف. فهو يصف الدنيا قائلاً « أوَ لا حر يدع هذه اللماظة لأهلها فليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة ألا فلا تبيعوها بغيرها».

١- القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية ٣٦. علل الشرائع، الصدوق، ص٥ – ٦٠٦، ح٨٠. بحار الأنوار، ج١ ص١٠١.

٢- الصحيفة السجادية، الدعاء، ٤٧ ليوم عرفة.

ولـم يكـن زهـد الإمـام عليه السلام سـبباً لانعزالـه عـن الحيـاة الاجتماعيـة المليئة بالمتناقضـات، كمـا كان يتصـوّر المتصوفة مـن أن ترك السـاحة الاجتماعية للمنحرفـين هـي الزهـد في الدنيا، وقـد كان يجرّهم خطؤهـم في فهم حقيقة الزهـد إلى مـداراة الظلمـة والخضوع لهـم أيضاً. وهذا ما يعـبر عنه في أكثر الـكلام المنقول عنه، والذي كان في الزهـد، فهو حتى في بداية كلامه وخطبه التي تتضمن معنى سياسياً، يقول عليه السلام « إن علامة الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة تركهم كل خليط وخليل ورفضهم كل صاحب لا يريد ما يريدون، ألا وإن العامـل لثواب الآخرة هـو الزاهد في عاجل زهرة الدنيا، الآخذ للموت أهبتـه، الحـاث على العمل قبل فناء الأجل ونزول ما لا بد من لقائه»، وتقديم الحـذر قبـل الحين، فإن الله عز وجل يقول: «حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا في ما تركت[١]». فلينزلن أحدكم اليوم نفسـه في هـذه الدنيـا كمنزلة المكرور إلى الدنيا، النادم عـلى ما فرط فيها من العمل الصالح ليوم فاقته. واعلموا عباد الله: أنه من خاف البيات تجافى عن الوساد. وامتنع من الرقاد، وأمسك عن بعض الطعام والشراب من خوف سلطان أهل الدنيـا، فكيـف، ويحك يا ابن آدم، من خوف بيات سـلطان رب العزة وأخذه الأليم وبياته لأهل المعاصي والذنوب مع طوارق المنايا بالليل والنهار ؟ فذلك البيـات الـذي ليس منه منجى، ولا دونه ملتجـأ، ولا منه مهرب. فخافوا الله أيهـا المؤمنـون من البيات خوف أهل التقوى، فإن الله يقول: «ذلك لمن خاف مقامـي وخاف وعيد»[٢]. فاحذروا زهرة الحيـاة الدنيا وغرورها وشرورها وتذكروا ضرر عاقبة الميل إليها، فإن زينتها فتنة وحبها خطيئة. واعلم ويحك يا ابن آدم أن قسـوة البطنة وكظة الملأة وسـكر الشبع وغرة الملك مما يثبط

١- القرآن الكريم، سورة المؤمنون، آية ١٠٠.

٢- القرآن الكريم، سورة إبراهيم، آية ١٤.

ويبطـئ عن العمـل وينسي الذكر ويلهي عن اقـتراب الأجل، حتى كأن المبتلى بحـب الدنيـا به خبل من سـكر الـشراب. وأن العاقل عن اللـه، الخائف منه، العامل له ليمرن نفسـه ويعودها الجوع حتى ما تشـتاق إلى الشـبع، وكذلك تضمر الخيل لسبق الرهان. فاتقوا الله عباد الله تقوى مؤمل ثوابه وخائف عقابـه فقـد لله أنتـم أعذر وأنذر وشـوق وخـوف، فلا أنتم إلى ما شـوقكم إليـه من كريم ثوابه تشـتاقون فتعملون، ولا أنتم مما خوفكم به من شـديد عقابه وأليم عذابه ترهبون فتنكلون. وقد نبأكم الله في كتابه أنه: «من يعمل مـن الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسـعيه وإنا لـه كاتبون[١]». ثم ضرب لكـم الأمثـال في كتابـه وصرف الآيـات لتحذروا عاجـل زهرة الحيـاة الدنيا فقـال: «إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم[٢]». فاتقوا الله ما اسـتطعتم واسمعوا وأطيعوا، فاتقوا الله واتعظوا بمواعظ الله. وما أعلم إلا كثـيرا منكم قد نهكته عواقـب المعاصي فما حذرها وأضرت بدينه فما مقتها. أما تسمعون النداء من الله بعيبها وتصغيرها حيث قال: « اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَـا لَعِـبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَـةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُـمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْـوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْـثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَـذَابٌ شَـدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللـهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَـا إِلاَ مَتَاعُ الْغُرُورِ * سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِيـنَ آمَنُـوا بِاللَّهِ وَرُسُـلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَـاءُ وَاللـهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [٣]». وقال:» فاتقوا الله عباد الله، وتفكروا واعملوا لما خلقتم له، فإن الله لم يخلقكم عبثا ولم يترككم سدى، قد عرفكم نفسه وبعث إليكم رسوله وأنـزل عليكـم كتابه، فيه حلالـه وحرامه وحججه وأمثالـه. فاتقوا الله فقد

١- القرآن الكريم، سورة الأنبياء، آية ٩٤.

٢- القرآن الكريم، سورة التغابن، آية ١٥.

٣- القرآن الكريم، سورة الحديد، آية ٢٠، ٢١.

احتج عليكم ربكم فقال: أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ [١]» فهذه حجة عليكم فاتقوا الله ما استطعتم فإنه لا قوة إلا بالله ولا تكلان إلا عليه، وصلى الله على محمد [نبيه] وآله[٢].

استطاع الإمام عليه السلام بتقديم النموذج الصحيح للزاهد، نظرياً وعملياً، أن يحقق عدّة مكاسب تربوية واجتماعية وسياسية وعقائدية. فهو ينير الطريق الصحيح للصالحين، ويكسب ولاء المسلمين الحقيقي، عندما يتّضح لهم أن أئمة أهل البيت عليهم السلام، لزهدهم في الدنيا، لا يريدون أي مكسب مادّي في الحياة، فمقارعتهم للظالمين وتوجّههم لإقامة حكم الله في الأرض له دافع إلهي غير مادّي ولا يقاس بحرص الحكّام على حفظ مناصبهم السياسية التي اغتصبوها. لقد كشف الإمام بزهده عن عظمة شخصيته وأنه لا يمكن أن يتنازل عن دينه وآخرته للدنيا وملاذّها. فكان، بالرغم من زهده، في هذه الدنيا مصدر رعب للظالمين[٣]. وقد شبهه حفيده الإمام الصادق عليه السلام، بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: والله ما أطاق عمل رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الأمة غيره، وإن كان ليعمل عمل رجل كان وجهه بين الجنة والنار يرجو ثواب هذه ويخاف عقاب هذه، ولقد أعتق من ماله ألف مملوك في طلب وجه الله والنجاة من النار مما كده بيده ورشح منه جبينه، وما كان لباسه إلا الكرابيس إذا فضل شئ عن يده من كمه دعا بالجلم [٤] فقصه، وما أشبهه من ولده ولا أهل بيته أحد أقرب شبها به في لباسه وفقهه من علي بن الحسين زين العابدين[٥].

١- القرآن الكريم، سورة البلد، آية ٨، ١٠.

٢- تحف العقول ص٢٧٢، ٢٧٤.

٣- مروج الذهب، ج٣ ص٨٠. مختصر تاريخ مدينة دمشق، ج١٧ ص٤، ٢٣٥.

٤- الجلم: ما يقص به الصوف، وهو كالمقص.

٥- الارشاد،ج٢ ص١٤٢،١٤١. مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص ١٥٠. كشف الغمة، ج٢،ص٨٥. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٣٣٦.

وسئل عليه السلام: عن صفة الزاهد في الدنيا، فقال: يتبلغ بدون قوته، ويستعد ليوم موته، ويتبرم في حياته[١]. وقال له رجل: ما الزهد؟ فقال عليه السلام: الزهد عشرة أجزاء: فأعلى درجات الزهد، أدنى درجات الورع، وأعلى درجات الورع أدنى درجات اليقين، وأعلى درجات اليقين أدنى درجات الرضا، وإن الزهد في آية من كتاب الله(لِكَيْ لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللـهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)[٢].

ويقول مناجياً النفس الإنسانية: يا نفس، حتام إلى الدنيا سكونك، وإلى عمارتها ركونك، أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك؟ ومن وارته الأرض من أُلاّفك ؟ ومن فجعت به من إخوانك ؟ ونقل إلى الثرى من أقرانك ؟[٣].

لقد سلك الإمام عليه السلام كل الطرق، واستنفد كل جهد، في بناء أركان الكتلة الشيعية في خضم هوة الانحراف، وحياة الترف التي صنعتها الفتوحات وكرّسها الأمويون.

واخيراً، وليس آخراً، استطاع الإمام عليه السلام الذي كان المثل الأعلى للزهد في عصره، حتى غلبت عليه صفة الزهد أكثر من غيرها، أن يكشف حقيقة دعاة التصوف، والمائلين إلى الانعزال عن المشاكل، والذين قبعوا على إصلاح أنفسهم وأعمالهم، تاركين الحكام يظلمون الناس، والناس يتبعونهم على عمى وضلالة، تلك الحالة التي سميت من بعد بالتصوف، وسمي أهلها بالصوفية، فكانت مدرسة الإمام في الزهد تقطع الطريق على الحكام الظالمين الذي يستغلون ارتباطهم بالمتصوّفة ويستثمرونه في التغطية على سلوكهم. حيث كشفت مدرسة الإمام عليه السلام الخطأ في سلوك طريق هذه الحالة، وقدمت

١- تاريخ مدينة دمشق، الحديث ١٣٤.

٢- القرآن الكريم، سورة الحديد، الآية ٢٣. تحف العقول ص٢٧٨، ٢٧٩.

٣- تاريخ مدينة دمشق، الحديث١٣٥. ومختصره لابن منظور، ج١٧ ص٢٤٩، ٢٥٤. البداية والنهاية، ج٩ ص١٠٩، ١١٣. عوالم العلوم ص١٢٤. عن مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٢٩٢. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٨٣.

الطريق الصائب، بما قدمه من سلوك وطريقة حياة ومواعظ وأدعية وخطب ورسائل وأجوبة تحدد الطرق القويم، وقد ساعد مدرسة الإمام على التقدم مكانته في العلم والدين والنسب، بينما كانت الصوفية تدعو إلى الانعزال عن المجتمع، وعدم التدخل في شؤون السياسة ولا في ما يجري في بلاد الإسلام من ظلم وفساد، وخاصة من قبل السلاطين وولاتهم! إما خوفا على أنفسهم من بطش الحاكمين، وإما انجراراً إلى ما انتشر من ضلالات في أحاديث موضوعة أسست بنياناً من التفكير الباطل يدعو إلى مداراة الظلمة، والخضوع لهم، والحضور في مجالسهم، بل الانخراط في مظالمهم، وتصويب أعمالهم، بالرغم من معرفة ظلمهم وعدم استحقاقهم للمقامات التي احتلوها.

وكان يجمع مدرسة الصوفية والحكام الظالمين والعامة أمر واحد هو أساس الباطل ومنشأ البدع والأفكار الضالة، ألا وهو الابتعاد عن أهل البيت عليهم السلام، الذين كانوا خط المعارضة الدائم للسلطان، فكان الاتصال بهم يعني المحسوبية عليهم وعلى خطهم، فابتعدوا عنهم، وحرموا من تعاليمهم، وترددوا في ظلمات الجهل والانحراف.

وقد أتقن السلاطين فن استدراج العامة إلى التبعية لهم والإنقياد لأوامرهم بدون تبصر، بتوقيرهم للصوفية واستقبالهم إياهم في قصورهم وادعاء التأثر والبكاء عند سماع مواعظهم، ما أدى إلى تغرير الناس البسطاء بصحة سلوكهم وتفكيرهم، فارتفع شأن الصوفية في أنظار الناس وأصبحوا بمنزلة العلماء الزهاد، فكان على الإمام زين العابدين عليه السلام أن يتصدى لهم، ويكشف حقيقة انحرافهم وخطئهم، كموقفه من عباد البصرة، الذين دخلوا مكة للحج، وقد اشتد بالناس العطش لقلة الغيث، ففزع إليهم أهل مكة والحجاج يسألونهم أن يستسقوا لهم، ما يعني أن الناس مهتمون بهؤلاء الصوفيين! ويثقون بهم!

لبـى الصوفيون توسـل أهل مكـة، وأتوا الكعبة وطافوا بها، ثم سـألوا الله خاضعين متضرعين بها، ولكنهم منعوا الإجابة، ولم يسقط غيث ولم تظهر في السـماء غيمـة تبـشر بالمطـر! وبينما هم كذلـك، في حيرة مـن أمرهم، إذا هـم بفتـى قد أقبل، وقـد أكربته أحزانه، وأقلقته أشـجانه، فطـاف بالكعبة أشـواطا، ثم أقبل عليهم، فناداهم واحداً واحداً بأسماءهم كلهم، وكأنه يريد أن يعرفهـم للناس! فقالوا له: لبيك وسـعديك، يا فتى !

فقال: أما فيكم أحد يحبه الرحمن ؟

فقالوا: يا فتى، علينا الدعاء وعليه الإجابة!

فقال: أبعدوا عن الكعبة، فلو كان فيكم أحد يحبه الرحمن لأجابه !

ثم أتى الكعبة، فخر سـاجدا، فسـمعوه يقول في سـجوده: (سيدي بحبك لي إلا سقيتهم الغيث).

فما اسـتتم الكلام حتى أتاهم الغيث كأفواه القرب! فقالوا: يا أهل مكة، من هذا الفتى ؟

قالوا: علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام[1].

يبـدو أن هـذه الحادثة وقعـت في زمان قريب من وقعة الطـف! عندما كان الإمـام زين العابديـن ما زال فتى، غير معروف من أهل البصرة وأهل مكة، وكان في رفقة أبيه الإمام الحسين عليه السلام، أو بعد أن عاد من كربلاء، فلا شك أنه حج سراً في أيام سـيطرة إبن الزبير على مكة، خلال الثلاثة عشر سـنة التي مكث خلالها في المدينة ثم حج بعدها في ايام عبد الملك بن مروان الأموي بعد القضـاء على إبن الزبير حيث كان معروفاً جداً لأهل مكة ولأهل البصرة على حد سـواء، على ما تدل عليه قصيدة الفرزدق.

إن كل مـا فعله وقام به الإمام زيـن العابدين عليه السلام فدخل تحت عنوان الزهد،

١- الاحتجاج ص٣١٦، ٣١٧. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٥٠، ٥١.

إنمـا هو بكل بسـاطة تطبيق ما جاء به القرآن والسـنة النبوية على طريقة العيش والسلوك تطبيقاً حرفياً، بدون زيادة تشطح بمرتكبها نحو الإنحراف إلى الرهبانيـة وما سـمّي بالصوفية، أو نحو التلـون والمراء وادعاء الزهد في الحيـاة الدنيـا بينما هـو يحمل في قلبـه كل الحب والعشـق لزخارفها. وقد حـدد الإمـام بدقـة عالية تلك الحالـة المخادعة التي يجهـد الزاهد المزيف في إظهارها للناس، لإغراء العوام، وإغواء الجهال، بينما يستر في داخله عبودية الدنيا، ولعل أخطر نموذج لهذه الحالة هم علماء السوء، المتزينين بزي أهل الصـلاح، والمتظاهرين بالورع والتقى، والمرتبطين بأهل الدنيا والرئاسـات الباطلـة، من الحكام والولاة وأصحاب الأموال.

فيقول عليه السلام:

«إذا رأيتم الرجل قد حسـن سـمته وهديه، وتماوت في منطقه، وتخاضع في حركاته، فرويداً لا يغرنكم ! فما أكثر من يعجزه تناول الدنيا وركوب الحرام منها، لضعف نيته، ومهانته، وجبن قلبه، فنصب الدين فخا لها، فهو لا يزال يختل الناس بظاهره، فإن تمكن من حرام اقتحمه. وإذا وجدتموه، يعف عن المال الحرام، فرويداً، لا يغرنكم ! فإن شـهوات الخلق مختلفة فما أكثر من ينبو عن المال الحرام وإن كثر، ويحمل نفسه على شوهاء قبيحة فيأتي منها محرمـاً. فـإذا وجدتموه يعف عن ذلك، فرويداً لا يغرنكم ! حتى تنظروا ما عقدة عقله ؟ فما أكثر من ترك ذلك أجمع، ثم لا يرجع إلى عقل متين، فيكون ما يفسـد بجهله أكثر مما يصلحه بعقله. فإذا وجدتم عقله متينا، فرويدا لا يغرنكـم ! حتـى تنظروا، أمع هواه يكون على عقلـه، أم يكون مع عقله على هواه ؟ وكيف محبته للرئاسـات الباطلة ؟ وزهده فيها ؟ فإن في الناس من خسر الدنيا والآخرة، بترك الدنيا للدنيا، ويرى أن لذة الرئاسة الباطلة أفضل من لذة الأموال والنعم المباحة المحللة، فيترك ذلك أجمع طلبا للرئاسة، حتى

إذا قيل له: (اتق الله) أخذته العزة بالإثم، فحسبه جهنم ولبئس المهاد. فهو يخبط خبط عشواء، يوفده أول باطل إلى أبعد غايات الخسارة، ويمد به، بعد طلبه لما لا يقدر عليه، في طغيانه، فهو يحل ما حرم الله، ويحرم ما أحل الله، لا يبالي ما فات من دينه إذا سلمت له الرئاسة التي قد شقي من أجلها. فأولئك الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم عذابا مهينا. ولكن الرجل، كل الرجل، نعم الرجل: هو الذي جعل هواه تبعا لأمر الله، وقواه مبذولة في رضا الله، يرى الذل مع الحق أقرب إلى عز الأبد، من العز في الباطل، ويعلم أن قليل ما يحتمله من ضرائها يؤديه إلى دوام النعيم في دار لا تبيد ولا تنفد، وأن كثير ما يلحقه من سرائها، إن اتبع هواه، يؤديه إلى عذاب لا انقطاع له ولا يزول. فذلكم الرجل، نعم الرجل: فبه فتمسكوا، وبسنته فاقتدوا، وإلى ربكم فتوسلوا، فإنه لا ترد له دعوة، ولا يخيب له طلبة[١].

٢-العبادة:

أخذت هذه الظاهرة ساعات طويلة من وقت الإمام عليه السلام، وملأت مساحات واسعة من صفحات سيرته الشريفة، حتى أصبح من أشهر ألقابه زين العابدين[٢] و«سيّد العابدين» و«ذو النفثات» و« السجّاد». ألقاب ذات دلالة واضحة على هذه الظاهرة التي اتفق عليها المؤرّخون حيث أجمعوا على أنه كان أعبد أهل زمانه وأكثرهم طاعة لله تعالى إذ لم ير الناس مثله في عظيم إنابته وعبادته. وكان إذا توضأ اصفر لونه فقيل له: ما هذا الذي يغشاك؟ فقال: أتدرون من أتأهب للقيام بين يديه؟[٣] وكان يصلي في كل

١- الاحتجاج ص٣٢٠، ٣٢١.

٢- مختصر تاريخ مدينة دمشق، ج١٧ ص٢٣٧. عن مالك بن أنس، و ص ٢٣٥، عن الزهري.

٣- الارشاد، المفيد، ج٢ ص١٤٣، مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص١٦٢. كشف الغمة، ج٢ ص٨٦. الطبقات الكبرى، ج٥ ص٢١٦. حلية الأولياء، ج٣ ص١٣٣. مختصر تاريخ مدينة دمشق، ج١٧ ص٢٣٦. سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٩٢. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٣٣٥. تاريخ مدينة دمشق، الأحاديث ٦، ٦٣. العقد الفريد، ج٣ ص١٦٩.

يوم وليلة ألف ركعة إلى أن مات[١]، وهذا يشبه ما نقل عن جده الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام. وكان إذا حضر الصلاة اقشعر جلده، واصفر لونه، وارتعد كالسعفة[٢]. وكانت الريح تميله بمنزلة السنبلة[٣]. وإذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة، فقيل له: ما لك؟

فقال: ما تدرون بين يدي من أقوم ؟ ومن أناجي ؟[٤].

ووقع حريق في بيته، فجعلوا يقولون له: يا بن رسول الله ! النار ! يا بن رسول الله ! النار ! فما رفع رأسه حتى أطفئت، فقيل له: ما الذي ألهاك عنها ؟ قال: ألهتني النار الأخرى![٥].

وكان عليه السلام قائما يصلي حتى زحف ابنه محمد الباقر عليه السلام وهو طفل صغير ، إلى بئر كانت في داره بعيدة القعر ، فسقط فيها ، فنظرت اليه أمه وأقبلت تضرب بنفسها من حوالي البئر ، وتستغيث به وتقول : يا بن رسول الله غرق ابنى محمد ! وكل ذلك لا يسمع قولها ، ولا ينثني عن صلاته ، وهو يسمع اضطراب ابنها في قعر البئر في الماء . فلما طال عليها ذلك قالت له، جزعا على ابنها، : ما أقسى قلوبكم يا أهل بيت النبوة !

١- سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٩٢. شرح الأخبار، ج٣ ص٢٥٤ و ٢٧٢. الخصال، الصدوق، ص٥١٧. علل الشرائع ص٢٣٢. الإرشاد، المفيد ص٢٥٦. كشف الغمة، ج١ ص٣٣، نقلا عن رسالة الجاحظ في فضل بني هاشم، وج٢ ص٨٦. فلاح السائل، ابن طاووس ص ٢٤٤. تذكرة الحفاظ، ج١ ص٧٥. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٦٧. تاريخ مدينة دمشق، الحديث ٦٤. مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور، ج١٧ ص٢٣٧.

٢- فلاح السائل ص٩٦.

٣- الخصال، ج٤ ص٥١٧. الارشاد، المفيد، ج٢ ص١٤٣. روضة الواعظين ص١٩٧. مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص١٦٢. كشف الغمة، ج٢ ص٨٦. سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٩٢. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٣٣٦.

٤- تاريخ مدينة دمشق, الأحاديث ٦، ٦٣. مختصر تاريخ مدينة دمشق، ج١٧ ص٢٣٦. سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٩٢.

٥- تاريخ مدينة دمشق، الحديث١٠. مختصر تاريخ مدينة دمشق، ج١٧ ص٢٣٦. سير أعلام النبلاء، ج٤ ص١، ٣٩٢.

فأقبل على صلاته ، ولم يخرج عنها الا بعد كمالها وتمامها ، ثم أقبل عليها ، فجلس على رأس البئر ، ومد يده إلى قعرها ، وكانت لا تنال إلا برشاء طويل ، فأخرج ابنه محمدا بيده وهو يناغيه ويضحك ، ولم يبتل له ثوب ولا جسد بالماء . فقال لها : هاك هو يا قليلة اليقين بالله ، فضحكت لسلامة ابنها ، وبكت لقوله (يا قليلة اليقين بالله) فقال لها : لا تثريب عليك لو علمت أنى كنت بين يدي جبار لو ملت بوجهي عنه لمال بوجهه عنى ، أفمن ترى أرحم لعبده منه؟[١] .

وفي حديث عن الصادق عليه السلام في ذكر أمير المؤمنين عليه السلام وإطرائه ومدحه بما هو أهله، وزهده في المأكل، قال: وما أطاق عمل رسول الله صلى الله عليه وآله من هذه الأمة غيره، ثم قال: وما أشبهه من ولده ولا أهل بيته أحد أقرب شبها به في لباسه وفقهه من علي بن الحسين عليه السلام. ولقد دخل أبو جعفر عليه السلام ابنه عليه فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد، فرآه، وقد اصفر لونه من السهر، ورمضت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته، وانخرم أنفه من السجود، وقد ورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة، فقال أبو جعفر عليه السلام: فلم أملك حين رأيته بتلك الحال البكاء، فبكيت رحمة له، فإذا هو يفكر، فالتفت إلي بعد هنيئة من دخولي فقال: يا بني أعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي ابن أبي طالب عليه السلام !

فأعطيته، فقرأ فيها شيئا يسيرا، ثم تركها من يده تضجرا وقال: من يطيق هذا؟ من يطيق هذا؟[٢]، من يقوى على عبادة علي بن أبي طالب عليه السلام[٣].

وهذا يعني الكثير، أقل ما فيه أن الإمام زين العابدين عليه السلام، الذي قد وصل

١- العدد القوية ص ٦٢ . البحار ٤٦ / ٣٥ . بحار الأنوار ج ١١٠ ص ٢١٥ .

٢- الكافي، الروضة، ج٨ ص١٦٣.

٣- الارشاد، المفيد، ج٢ ص١٤١. مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص١٦٢. كشف الغمة، ج٢ ص ٨٥. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٧٤،٧٥. شرح الأخبار، ج٣ ص٢٧٢.

إلى قمة العبادة والاجتهاد في الطاعة، لا يقوى على عبادة جده علي عليه السلام ! وهذا يعنـي أيضاً أنه يجاهد لكي يلحق بأمير المؤمنين، وهذا يعني أيضاً أن رحلة الكـدح التـي كتبها الله على الإنسـانية، تشـمل أهل البيت، فهم سـادة قافلة الوجـود، وفي الطليعة!

ولما أحرم إلى الحج، واستوت به راحلته اصفر لونه، وانتفض، ولم يستطع أن يلبـي، فقيـل لـه: ما لـك ؟ فقال: أخـشى أن أقول: (لبيـك) فيقول لي: (لا لبيـك)[١]، ولمـا قال: لبيك اللهم لبيك، أغمي عليه، حتى سـقط من راحلته[٢]. وكان يخـرج على راحلته إلى مكـة ويرجع، لا يقرعها[٣].

ولكن التزام الإمام بهذه العبادة، وبهذا الشكل، لم يكن عفويا، ولا لمجرد تقرب خاص إلى الله وحسـب، بل هي خطة اسـتراتيجية ضمن سـياق الإستقطاب لبناء الكتلة الشيعية الواعية، فقد تمكن العرب المسلمون من السـيطرة على مساحات شاسـعة من العالم وحضارات الامبراطوريات المجـاورة لهم، بعد أن كانوا من الشـعوب المتخلفة تتخطفهم الأمم من حولهم، لا يملكون لعدوهم دفعا، ولا عن ذمارهم منعا. وحسـب تعبير السـيدة فاطمة الزهراء ابنة رسـول الله رضي الله عنها وهـي تصف حالتهم قبل الإسلام «وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب ونهزة الطامع، وقبسـة العجلان، وموطأ الأقـدام، تشربون الطـرق وتقتاتون الورق، أذلة خاسـئين تخافـون أن يتخطفكم الناس من حولكـم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي»[٤].

١- تاريخ مدينة دمشـق، الأحاديث، ج٦ ص٦٣. مختصر تاريخ مدينة دمشـق، ج١٧ ص٢٣٦. سـير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٩٢.

٢- تاريخ مدينة دمشق، الحديث ٦٤. مختصر تاريخ دمشق، ج١٧ ص٢٣٧. سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٩٢.

٣- تاريخ مدينة دمشق، الحديث ١٠٠. مختصر تاريخ دمشق، ج١٧ ص٢٣٣. سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٨٨.

٤- بلاغات النساء، ابن طيفور، ص١٣. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٤ ص٧٨.

لكـن الأمويـين حسـب طبائعهـم الجاهلية التي لم تسـتفد من الإسـلام شـيئاً، وبعد سـيطرتهم على مقـدرات العباد والبلاد أخـذوا في تمييع المجتمع وترويج الفحشـاء والمنكـر، والفجور والخمور، والظلـم والخيانة، حتى ضرب بهم المثل في خـرق العهـود والمواثيق، وتجاوز الأعراف والموازين، واشـاعوا الفسـاد بين النـاس، وترويج الترف واللهو والرذيلة واللعب، حتى الجيل الذي ولد في زمان الإسـلام، حتـى جعلوا مـن المدينة مركزا للفسـاد. وأصبح «الغنـاء في المدينة لا ينكره عالمهم، ولا يدفعه عابدهم»[١]، وكانت يثرب تعج بالمغنيات ومركزا للحياة العابثة، وبدلاً من أن تصبح مركزاً عالمياً للثقافة الإسـلامية، ومصدرا للإشـعاع الفكري والحضاري في العالم الإسلامي، إلا أن الخلفاء، بفتوحاتهم المبكرة جداً، والأمويين، بجاهليتهم، سـلبوها هذه القابلية، وأفقدوها مركزيتها الدينية، حتى أن عـروة بـن الزبـير كانـت ردة فعله على هـذا الواقع هي الخروج مـن المدينة واتخاذ قصر بالعقيق، فقال له الناس: قد جفوت مسـجد رسـول الله صلى الله عليه وآله! قال: إنـي رأيت مسـاجدهم لاهية، وأسـواقهم لاغيـة، والفاحشـة في فجاجهم عالية، فـكان في مـا هنالك عما هم فيـه عافية[٢]. أما الإمام زيـن العابدين عليه السلام فقد ظل في المدينـة، حتى يكون أنموذجاً للإمام الكامل القدوة، للسـامعين والمشـاهدين، والمضـاد المناقـض للخط الأموي، في العبادة والزهـد، فيهتدي من يهتدي بهداه وتتوسـع وتنمو الكتلة الشـيعية! ولذلك كان يعظ الناس ويرشـدهم، ويدعوهم إلى نبذ المتع، ويحذرهم من اللغو واللهو ومن الزينة والتفاخر، فيقول: لا قدست أمـة فيهـا البربـط[٣]. وكان إذا مشى لا يجاوز يديه فخذيـه، ولا يخطر بيده[٤].

١- الأغاني، ج٨ ص٢٢٤ و ج٤ ص٢٢٢. العقد الفريد، ج٣ ص٢٣٣ و ٢٤٥.

٢- مختصر تاريخ مدينة دمشق، ج١٧ ص٢٣. حلية الأولياء، ج٢ ص١٨٠.

٣- لسان العرب،ابن منظور، مادة (بربط).

٤- تاريخ مدينة دمشـق، الأحاديث ٦، ٦٣. مختصر تاريخ مدينة دمشـق، ج١٧ ص٢٣٦. سـير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٩٢.

لقد أدى كماله في العبادة إلى أسر وسحر الأصدقاء وذوي القلوب الطيبة والنفوس الطاهرة والفطرة السليمة، فتوسعت وتعمقت الكتلة الشيعية، وأدهشت أخباره الأعداء، فلم يستطيعوا أن يخفوها، فضلا عن الغض منها، لأن سيرته لم تكن تخفى على أحد من الناس، فاعترف علماء البلاط بفضله وفضل آبائه من أهل البيت. واضطروا إلى إعلان فضله عليه السلام، بالرغم من ارتباطهم بالحكم الأموي الجائر، أو موالاتهم له، فقد وصفه كل من يحيى بن سعيد وحماد بن زيد بأنه كان أفضل هاشمي أدركه[١]. وقال الزهري إنه لم ير قرشيا أفضل منه[٢]. ولم ير سعيد بن المسيب أورع منه[٣].

وهذا خلاف ديدن الحكام والظالمين الذين يحاولون التغطية على فضائل المعارضين لهم، ولا سيما الأمويون الذين بالغوا في إظهار هذه الخصلة الذميمة، بسب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أكثر من تسعين سنة على المنابر، وأمروا المحدثين والقصاصين ووعاظ السلاطين بوضع الحديث في قدحه وذمه.

لقد كان المستوى العالي الذي بلغه الإمام زين العابدين عليه السلام بفضله وعبادته وزهده، أحسن فرصة كي يبرز ويعلن فضل أهل البيت، الذي جهد الأعداء الظالمون في إخفائه، فقد قال له جابر: ما هذا الجهد الذي كلفته نفسك ؟ يا بن رسول الله ! البقيا على نفسك، فإنك من أسرة بهم يستدفع البلاء، وبهم تستكشف اللأواء، وبهم تستمسك السماء ؟

فقال الإمام: يا جابر، لا أزال على منهاج أبوي مؤتسيا بهما حتى ألقاهما.

فاقبل جابر على من حضر فقال: ما رؤي في أولاد الأنبياء مثل علي بن الحسين،

١- الطبقات الكبرى، ج١ ص٢١٤. تاريخ مدينة دمشق، الحديث٤٧. مختصر تاريخ دمشق، ج١٧ ص٢٣٥. تهذيب الأسماء واللغات، أبي زكريا النووي، ج١ ص٣٤٣.

٢- سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٨٧. تاريخ مدينة دمشق، الأحاديث ٣٧ و ٤١ و ٥٠. مختصر تاريخ دمشق، ج١٧ ص٢٣١ و ٢٣٥.

٣-سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٩١. مختصر تاريخ مدينة دمشق، ج١٧ ص٢٣٦. حلية الأولياء، ج٣ ص١٤١.

إلا يوسف بن يعقوب، والله لذرية علي بن الحسين أفضل من ذرية يوسف[١]. لقد أكد الإمام زين العابدين عليه السلام أن ما يفعله ويقوم به ليس مختصاً به بل هو من صفات كل أئمة أهل البيت، وهو ما كان يتمتع به أبوه الحسين وجده علي بن أبي طالب، وأن ما قام به أبواه يقوم به هو، لأنه مثلهما في الإمامة، فدمر الإمام بذلك كل ما راكمه الأمويون طوال السنين المظلمة لحكمهم من الكذب والافتراء، ونسف كل ما بنوا عليها ظلمهم وجورهم لأمير المؤمنين عليه السلام. وأنار الإمام بذلك طريق السير للكتلة الشيعية العتيدة، وأن هذا هو السبيل إلى الله، ومن أراد أن يدخل هذا المسلك فله من الإمام عليه السلام خير مرشد، ولقد أثرت عنه عليه السلام نصوص جاء فيها شرح العبادات من وجهات نظر روحية بما عجز عن إدراكه كبار المتصدين لمثل هذه المعارف، فمن ذلك قوله: إن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وآخرين عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار، وقوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الأحرار[٢]. فربط بين الحرية، وبين عبادة الله. ومن ذلك ما روي عنه في تفسير معاني أفعال الحج[٣] وأقسام الصوم[٤]. أضف إلى أن عمل الإمام عليه السلام كان شاهداً على الأمة التي غرّها وضللها المتظاهرون بالقداسة، المزيفون، المنحرفون عن أهل البيت.

١- مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٢٨٩. بحار الأنوار،ج٤٦ ص٧٩.

٢- تاريخ مدينة دمشق، الحديث ١٤١. نهج البلاغة، الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام، الباب الثالث: قصار الحكم، الأرقام ٦٥ و ٢٣٧ و ٢٧٦.

٣- مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الميرزا النوري الطبرسي، ج٢ ص١٨٦، الباب ١٧، الحديث ٥، وطبعة مؤسسة آل البيت عليهم السلام، ج١٠ ص١٦٦ رقم (١١٧٧٠). ويلاحظ أن الراوي عن الإمام مسمى بـ (شبلي) وليس في الرواة عنه، ولا من عاصره من هو بهذا الاسم، ولعله مصحف (شيبة) وهو ابن نعامة، المذكور في أصحابه عليه السلام.

٤- -حلية الأولياء، ج٣ ص١٤١. فرائد السمطين، الحموينى، ج٢ ص٢٣٣. كشف الغمة في معرفة الائمة، ج٢ ص١٠٣، ١٠٥، المقنعة، المفيد ص٣٦٣، الباب ٣٢. وسائل الشيعة، كتاب الصوم، أبواب بقية الصوم الواجب، الباب ١٠، الحديث١.

٣ – الحب والعطف والمودة:

فقد فجّر الإسلام ثورته في غياهب الجاهلية، ودعا إلى استخدام العقل وطلب العلم، وإلى الكمال الأخلاقي والمعنوي، وأما الجهاد في سبيل الله وطلب الشهادة فلم يكن إلاّ عنصراً حيوياً تكميلياً في هذه المنظومة الثقافية والأخلاقية الإلهيّة، وحينما حصلت الفتوحات لم تترافق أو تكون بقدر يساوي ما هو مطلوب من الأمة الفاتحة أصلاً من ثقافة وأخلاق ولو بنحوٍ يضمن صيانة الأمة الفاتحة من عوامل الهدم المتمثلة في الغفلة عن حقيقة عالم الدنيا وعن التوجّه لعالم الآخرة وعمّا جاء الإسلام من أجله، ويعود ذلك في أحد أسبابه المهمّة إلى عزل قيادة أهل البيت عليهم السلام عن ممارسة دورها، ولم تكن الفترة القصيرة التي حكم فيها الإمامان علي بن أبي طالب وابنه الحسن عليهما السلام كافية لردم ما دخل الأمة الإسلامية وتجذّر فيها من عوامل الضعف والانهيار.

ففي العقد الثاني من تأسيس الدولة الاسلامية، وهي ما زالت طرية العود، وقبل أن ينال المسلمون حظاً من المعرفة والثقافة الدينيين وقبل أن يتعمقوا في معرفة قواعد وأصول هذا الدين الجديد، خرجوا من ديارهم ومجتمعهم وبيئتهم في شبه الجزيرة العربية، واتجهوا نحو الشرق والغرب وأخذوا يقاتلون للحصول على الغنائم ولتحسين سبل معاشهم والتخلص من حياة البداوة والفقر، واهتم الحاكمون بالفتوح لأنها كانت تنسجم مع مآربهم المادّية، وهي تحصيل الغنائم والثروات التي تحقق مكسباً مادياً للحاكم وللغزاة، وتعبر عن الرؤية الفكرية للأسلام والدولة الإسلامية عند هذا الحاكم.

وساعدت الظروف السيئة المسيطرة على الأمم المغلوبة على أن تنفتح هذه الامم على المسلمين، وتصبح جزءاً من الأمة الإسلامية الكبرى، ولكن هذه الفتوحات كانت ذات نتائج سلبيّة على المجتمع الإسلامي الفاتح وشكلت خطراً عليه، ثقافياً، وأخلاقياً.

وذلك أن موجة الفتوحات، وإن امتدت بزخمها وحماسها العسكري، فزلزلت عروش الأكاسرة والقياصرة وضمّت شعوباً مختلفة وبلاداً واسعة إلى الدولة الإسلامية وأصبح المسلمون قادة الجزء الأعظم من العالم المتمدّن وقتئذٍ خلال نصف قرن فقط.. ولكنّها، بسبب أن العرب غادروا ديارهم قبل أن تتأصل العقيدة الإسلامية فيهم، عرّضتهم لخطرين كبيرين خارج النطاق السياسي والعسكري.

ثقافي، نجم عن انفتاح المسلمين على ثقافات متنوّعة وأعراف تشريعية وأوضاع إجتماعية مختلفة بحكم تفاعلهم مع الشعوب.

واخلاقي، نجم عن موجة الرخاء التي سادت المجتمع الإسلامي في أعقاب ذلك الإمتداد الهائل ؛ لأن موجات الرخاء تعرّض أي مجتمع إلى خطر الإنسياق مع ملذات الدنيا والإسراف فيها، وانطفاء الشعور بالقيم الخلقية والصلة الروحية بالله واليوم الآخر. فخلال المئة سنة التي تلت عام ٤٠ هجرية، عام شهادة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وتنازل الإمام الحسن عليه السلام عن الإمرة لمعاوية، ابتدأت تظهر آثار الفتوحات والتطور الإقتصادي والحضاري للعرب، مما أدى الى الإنحطاط الفكري وضعُف أساس الإيمان عند الناس، فعمّ الخواء العقائدي في نفوسهم وانهارت القيم الأخلاقية، وساهم الحكام، الأمويون والعباسيون، بقدر كبير في تشجيع حياة اللهو والطرب والميوعة بين أبناء الأمة الإسلامية. ففي حدود سنة ثمانين الى تسعين هجرية ولمدة خمسين أو ستين عاما كان معظم المطربين والعازفين والمترفين وعبيد الدنيا يتواجدون في مكة والمدينة، وكلما رغب الخليفة أو أي مترف في الأمصار، في الشام والعراق وغيرها، بسماع الغناء والعزف أو طلب مغنيا أو عازفاً يبعثون له بهم من مكة والمدينة حيث كانتا مركز الغناء والطرب، وأسوأ أنواع الشعر وأكثره مجوناً كان مصدره هاتين المدينتين اللتين كانتا مهبط الوحي فتحولتا إلى مركز للفساد والمجون.

وقـد اتصـف الإنســان العربي وهــو في الصحــراء وقبل هجـرة الفتوحات بصفات البداوة التي تأثرت بقسـوة الصحراء وأنتجت إنســاناً قاسي القلب، فظــاً، غليظــاً، جلفــاً، لا يعرف الحُــبَّ والعطف والحنان والمـودة طريقاً إلى قلبه، فكان يدفن ابنته بدمٍ بارد وجرأةٍ على الإنســانية، وأي جرأة، حتى أن بعضهم جاء في الأخبار أنه وأد عشر بنات، وكانوا يُنكرون على رسول الله صلى الله عليه وآله تقبيلــه ابنته فاطمة، حتى صرّح أحدهم بأنــه لم يقبِّل ولداً من أولاده طيلة عمره، وكان الأعرابي إذا بشر ببنت يسودّ وجهه من سوء ما بشر به ويعلق قائــلاً: واللــه ما هي بنعم الولد، نجدتها بكاء وبرُّها سرقة، وكانوا إذا ما آن أوان أن تنتقل ابنتــه إلى بيت زوجها يقول لهــا: إذهبي فإنك تلدين الأعداء.

لقـد خرجـت هـذه الأمـة مـن ديارهـا إلى الفتوحـات، واسـتوطنت البلاد الجديدة، وهي لم تُغيِّر من طباعها شـيئاً، ولم تسـتفد من توجيهات القرآن التــي تدعـو إلى الحـب والمودة، خصوصاً حـبِّ الله والمـودة للنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام التي جعلها القرآن فريضة لازمة على كل مسلم مقابل نعمة الدعوة ونعمة الرسالة.

فــإن الحبَّ لله ولرســوله وأهـل بيته هو الديـن، كما ورد عن الإمــام الصادق: «وهل الدين إلا الحبّ» بل كان حبُّ الرسول عنواناً للإيمان في الإنجيل، فقد سأل عيسى بن مريم شـمعون ثلاث مرات هل تحبني يا شـمعون وهو يقول نعم أنت تعلم أني أحبك، فقال له عيسى عليه السلام أنت الصخرة التي سأبني عليها كنيستي، كل ما تحلُّه في الأرض يحل في السـماء وكل ما تربطه في الأرض يُربط في السـماء، بـل جعل رسـول الله حبَّ علي بن أبي طالـب عنواناً ودليلاً على الإيمان وبُغضُهُ عنواناً ودليلاً على النفاق، وورد في كثير من الأخبار عن أن أصحاب رسـول الله كانوا يميّزون المنافق ببغضه عليَّ بن أبي طالب، ولكن الأمة خرجت من أوطانها في الصحـراء والبوادي على مـا كانت عليه من القسـوة والغِلظة والفظاظة ولم

تغيِّر من نفسها شيئاً ووصلت إلى كربلاء والإمام الحسين عليه السلام يناديهم ألستُ ابن بنت نبيِّكم وكأن قلوبهم قدَّت من حجر. فكانت أمام الإمام زين العابدين مهمة ثقيلة وصعبة وهي بناء المدماك العاطفي للكتلة الشيعية القائم على حب الله عزوجل والمودة لأوليائه فكان أمامه محوران للعمل من أجل تحقيق هدفه:

١- الدعاء

واجه التشيع بعد كربلا، في عصر الإمام زين العابدين عليه السلام، مخاطر وعقبات كادت تقضي عليه، وساد الخوف بسبب الإرهاب الأموي، وانهارت موازين القوى لمصلحة الكسروية الجديدة، خصوصاً بعد مقتل رمز الإسلام وارتكاب السلطة الأموية مجزرة الطف، فوجهت للتشيع ضربة كسرت ظهره! ولم يبق من شيعة أهل البيت سوى ثلاثة أو أربعة! يقودهم فتى هو الإمام زين العابدين عليه السلام. وكادت وقعة الطف تنعكس آثاراً سلبية على أصل وجود الإسلام المحمدي الأصيل! عقيدة توحيدية، ونبوة، وإمامة! عدا عن تسببها في إخماد آمال التغيير بالثورة والعمل المسلح! وتقدم السلطان الأموي في أذهان الناس وتراجع الإمام العادل مقابله، وسيطرة الكسروية الجديدة على أدوات التبليغ ونشر الحقيقة، من المنبر، والمحراب، والمسجد، وشراء الذمم والنفوس! فقد كان أمام الناس خياران، إما الإستسلام مجاناً أو الإستسلام بثمن! لقد انتقلت المعركة بعد كربلاء من ميدان الحرب والقتال إلى ميادين النفوس والقلوب، وكان الإمام زين العابدين عليه السلام، بطل المرحلة الجديدة في مواجهة الإرهاب والذعر الذي كان يتحكم في الرقاب، ويستولي على النفوس. في وسط ظروف صعبة، وإختناق، وقلق واضطراب، وفي حالة قمع وإبادة، ومطاردة للمناضلين الأحرار، وتتبع آثارهم وخنق أصواتهم؛ فلم يكن يسمح لأحد أن يتكلم ويطرح آراءه بصورة صريحة وواضحة. ولم تكن السلطة وحدها مانعة، بل كان الناس أنفسهم لا يقبلون هذا لأن المجتمع كان قد أصبح ضائعاً!

لقد كان على الإمام زين العابدين عليه السلام أن يجد طريقاً وأسلوباً جديداً يواجه به مثل هذه الظروف القاسية، فكان عليه أن يثبت روح الإيمان في القلوب، وأن يُعرّف الناس على العلوم والمعارف الإسلامية، فكانت مدرسة الدعاء، باعتباره أنجح وسيلة لبثّ الحقائق وتخليدها، وآمن طريقة وأبعدها من إثارة السلطة الغاشمة وأقوى أداة اتصال سرّية مكتوبة هادئة موثوقة، فكانت كلماته تحمل بين طياتها الزهد والمعارف الدينية مما يُصلح به دين الأمة، وتُهذَّب به أخلاق الناس، ويُخلّص به الشعب من الفساد الذي كان سائداً آنذاك. وكان يطرح هذه المعارف ويبيّنها من خلال سلاح الدعاء، أنجع علاجات الإمام للخطر الأخلاقي، والأمراض الناشئة من خطر الرخاء والانسياق مع الشهوات، فوجّه الأمة بشكل عام، والكتلة الشيعية بشكل خاص الى سلاح الدعاء.

الدعاء أول وأخطر ركن في بناء الكتلة الشيعية

لأن الدعاء أحب الأعمال إلى الله تعالى! فقد قرر جل وعلا، على لسان أوليائه من أئمة أهل البيت، أدعية خاصة، لكل آن من آناء الليل والنهار، ولكل يوم من أيام الأسبوع، وللشهور، والسنين، ولكل حال من حالات الإنسان، ولكل فعل يريد الإقدام عليه، ولجميع مطالبه الدنيوية والأخروية.

والدعاء يهذب النفس، ومن عوامل بناء الإنسان المؤمن، لما فيه من العبودية التي تكسب الداعي خشوع القلب، والتواضع لله تعالى، وحب الخير، ومصدر المعروف، فتصل النفس بالدعاء إلى درجات المتقين! والصالحين.

والدعاء سلم المذنبين إلى آفاق التوبة، حيث يخلون بربهم، ويبوؤون بذنوبهم، وينزلونها عنده، ليخفف على نفوسهم المكبلة بالذنوب، ويعودون الى الطاعة.

والدعاء سلاح المؤمن، في معركة الانتصار على هوى النفس الأمارة ومطاردة شهواتها، ومواجهة الشيطان وغروره، وحب الدنيا وزخرفها، والدعاء عدة المؤمن لمواجهة أعدائه، فهو السلاح الذي يشهره في وجه الظالمين.

والدعاء يلقن عقل المؤمن وقلبه أصول العقيدة الإسلامية، فينقض به عرى الجبر والتفويض والتشبيه والتجسيم! ويستحضر توحيد الخالق وصفاته ومشيئته وإرادته وعلمه وقضاءه وقدره، والأصل الأول من أصول العقيدة، وهو تعميق إحساسها بخالقها جل وعلا في حالة من التقاء العقل والقلب، فيتحقق لديه وضوح الرؤية وحصول اليقين، حينما يجد ربه قريبا منه فيناجيه، ومحيطا به فيدعوه، ومحتاجا إليه فيعطيه.

وقد رد القرآن والسنة النبوية ومدرسة الدعاء عند أهل البيت على شبهة توهم منافاة الدعاء مع الاعتقاد بالقضاء والقدر، التي يبدو أنها تسربت إلى الثقافة الإسلامية متأثرة بقول اليهود المعبر عنه في قوله تعالى : (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) [١]. فقد قال اليهود : (إن الله لما خلق الأشياء وقدر التقادير، تم الأمر وخرج زمام التصرف الجديد من يده بما حتمه من القضاء، فلا نسخ ولا استجابة لدعاء، لأن الأمر مفروغ منه)[٢]. وقد تسرب هذا الاعتقاد في جملة ما تسرب من معتقدات اليهود والإسرائيليات إلى التراث الإسلامي! وهو إعتقاد غريب لا يمت إلى الدين والإسلام بصلة.

وكان من جملة الأوهام التي نشأت حول هذا الموضوع، أن قالوا : (إن المطلوب بالدعاء إن كان معلوم الوقوع عند الله تعالى، كان واجب الوقوع، فلا حاجة إلى الدعاء، وإن كان غير معلوم الوقوع، كان ممتنع الوقوع، فلا حاجة أيضا إلى الدعاء) [٣]. وقالوا : (المدعو إن كان قدرا، لم يكن بد من وقوعه، دعا به العبد أو لم يدع، وإن لم يكن قدرا لم يقع سواء سأله العبد أم لم يسأله) [٤].

١- القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية ٦٤.

٢- الميزان في تفسير القرآن، ج ٢ ص ٣٢.

٣- تفسير الفخر الرازي، ج٥ ص٩٨.

٤- الجواب الكافي ص١٥.

ومحكمـات الكتـاب والسـنة تسـقط هذه الأوهـام، إلا أن الإبتعـاد عن أهل البيـت أوهم الكثيرين صحتها، فتركوا الدعاء وسـائر أعمال البر، لاعتقادهم بأن للإنسـان مصيرا واحدا لا يمكن تغييره ولا تبديله، وأنه ينال ما قدر له مـن الخـير أو الشر. وذلك ناشـئ عن ظنهم أن الدعاء أمـر خارج عن نطاق القضـاء والقدر، والواقع أن الدعـاء وإجابته من أجزاء القضاء والقدر، وأن المقدر معلق بأسـباب، ومن أسـبابه الدعـاء، ومتى أتى العبد بالسـبب وقع المقدر، وإذا لم يأت بالسـبب انتفى المقدر، ويعتبر الدعاء من أقوى الأسباب، وليـس شـئ من الأسـباب أنفع منه ولا أبلغ في حصـول المطلوب، لما ورد في فضلـه مـن آيات الكتاب وصحيح الأثر، فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصـح أن يقـال لا فائدة في الدعـاء. قال تعالى : (إن الله لا يخفى عليه شـئ في الأرض ولا في السـماء)[١]. وقـال الإمـام الكاظم عليه السلام : (لم يـزل الله عالما بالأشـياء قبل أن يخلق الأشـياء، كعلمه بالأشـياء بعد ما خلق الأشياء) [٢]. وقـال تعـالى : (وإنه في أم الكتاب لدينـا لعلي حكيم)[٣]، وقال تعالى : (يمحو اللـه مـا يشـاء ويثبت وعنـده أم الكتاب) [٤]، قـال الإمام الباقـر عليه السلام : (من الأمـور أمور محتومـة جائية لا محالة، ومن الأمور أمـور موقوفة عند الله يقدم منها ما يشاء، ويثبت منها ما يشاء) [٥]، وفي لوح المحو والإثبات يكتب التقديـر الأول، ولكنـه يعلق بتحقق شرطـه أو زوال مانعه، أي إنه موقوف عـلى أعمـال العباد، فالدعـاء والذكر والصدقة وصلة الأرحـام وبر الوالدين واصطناع المعروف، تحول شـقاء الإنسـان إلى سـعادة، بأن تنسـئ في أجله

١- القرآن الكريم، سورة آل عمران، ألآية ٥.

٢- القرآن الكريم، سورة آل عمران، ألآية ٥.

٣- القرآن الكريم، سورة الزخرف، ألآية ٤.

٤- القرآن الكريم، سورة الرعد، ألآية ٣٩.

٥- بحار الأنوار، ج٤ ص١١٩ ح ٥٨.

وتقيه مصارع الهوان وتدفع عنه ميتة السوء وتزكي أعماله وتنمي أمواله، وما إلى ذلك من الآثار الكثيرة الحسنة الواردة في الكتاب الكريم والحديث الصحيح. وعلى العكس من ذلك فإن اقتراف الذنوب وارتكاب السيئات كقطيعة الرحم وعقوق الوالدين وسوء الخلق وغيرها تحول مصير الإنسان من السعادة إلى الشقاء، قال تعالى : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[١]. والتغيير الذي في لوح المحو والإثبات لا يمس بكامل علم الله تعالى، فليس هو انتقال من عزيمة إلى عزيمة، وليس هو حصول للعلم بعد الجهل، وليس هو معارضا للتقدير الأول، بل إن الله تعالى عالم بما يؤول إليه مصير الإنسان في لوح المحو والإثبات، والظهور بعد الخفاء هو بالنسبة لنا، لا إلى علمه تعالى المحيط بكل شئ، وذلك كالنسخ في التشريع الذي لا يختلف عليه أهل العدل. قال الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب[٢]): فكل أمر يريده الله فهو في علمه قبل أن يصنعه، ليس شئ يبدو له إلا وقد كان في علمه، إن الله لا يبدو له من جهل[٣]. وقال عليه السلام : (من زعم أن الله عز وجل يبدو له في شئ لم يعلمه أمس، فأبرؤوا منه)[٤].

فتبين أن الإنسان لم يكن محكوما بمصير واحد مقدور غير قابل للتغير والتبديل، بل أنه يستطيع أن يغير مصيره لكي ينال سعادة الدارين بحسن أفعاله وصلاح أعماله، ومنها الدعاء والتضرع، وهذا مما يبعث الرجاء في القلوب المظلمة كي تشرق بنور الإيمان، ويوقد النور في أفئدة المذنبين، فلا ييأسوا من روح الله، ويسعوا للخلاص بالدعاء والتضرع والذكر وسائر أعمال البر، فإن الله يمحو ما

١- القرآن الكريم، سورة الرعد، ألآية ١١.

٢- القرآن الكريم،سورة الرعد، ألآية ٣٩.

٣- بحار الأنوار، ج٤ ص١٢١ / ٦٣.

٤- بحار الأنوار، ج٤ ص١١١ / ٣٠.

يشاء ويثبت ما يشاء، وكل يوم هو في شأن، ويداه مبسوطتان بالرحمة والمغفرة. والقول بسيادة القدر على اختيار الإنسان في مجال الطاعة والمعصية قول بالجبر الباطل بمحكمات الكتاب والسنة والعقل، وهو يفضي إلى القول بتعطيل جميع الأسباب وإلغاء إرسال الرسل وإنزال الكتب، وإلى بعث اليأس والقنوط في النفوس، فيستمر الفاسق في فسقه والظالم في ظلمه والمذنب في ذنبه، وذلك خلاف مشيئة الله وحكمته القاضية بأثر الدعاء في رد البلاء، والتوبة في طلب المغفرة والرحمة، وصلة الأرحام في طول الأعمار، وهكذا إلى آخر أعمال البر وصنائع المعروف. وبالدعاء ينال ما عند الله تعالى من الرحمة والمغفرة والنجاة من العذاب في الآخرة، وذلك من أبرز آثار الدعاء والتضرع إلى الله سبحانه، لأن عطاء الآخرة دائم مقيم لا نفاد له. قال الإمام الصادق عليه السلام : (أكثروا من أن تدعوا الله، فإن الله يحب من عباده المؤمنين أن يدعوه، وقد وعده عباده المؤمنين الاستجابة، والله مصير دعاء المؤمنين يوم القيامة لهم عملا يزيدهم في الجنة)[١]. وقال عليه السلام : (عليكم بالدعاء، فإن المسلمين لم يدركوا نجاح الحوائج عند ربهم بأفضل من الدعاء والرغبة إليه والتضرع إلى الله والمسألة، فارغبوا فيما رغبكم الله فيه، وأجيبوا الله إلى ما دعاكم لتفلحوا وتنجوا من عذاب الله) [٢].

والدعاء يفتح ويعمق علاقة المؤمن برسول الله صلى الله عليه وآله، ويعزز فهمه لأبعاد شخصيته ومكارم أخلاقه وإخلاصه لله، ودوره في تبليغ الرسالة وتجسيد معانيها، ووصيته بالإمامة لمن بعده، باعتبارها الامتداد الطبيعي للنبوة، وبيان مهمتها في إقامة مبادئ الدين والقرآن والحفاظ على السنة، وبيان صفات الإمام ومكارم أخلاقه وفضائله ودلائله.

والدعاء يذكر المؤمن باليوم الآخر، ويجعله يستحضر الموقف بين يدي الله تعالى عندما يقوم الناس لرب العالمين، حيث يحاسب الله تعالى الإنسان

١- الكافي، ج٨ ص٧ / ١.

٢- الكافي، ج ٨ ص٤ / ١.

بدقـه، كمـا يذكره بالجنـة ونعيمها الخالـد الذي أعده الله تعـالى للمؤمنين المتقـين، وبالنار وعقابها المقيم الذي أعـده الله للكافرين المتمردين. وجميع أدعيـة أهـل البيت تلهج بالخوف من عقاب الله تعالى والرجاء في ثوابه، وقد جاءت بأساليب بليغة تبعث في قلب المتدبر الخوف من الإقدام على المعصية. والدعـاء مفتـاح الحاجات، وبـاب مفتوح للعبد إلى ربه سـبحانه، يطلب من خلالـه كل مـا يحتاجـه في الدنيا من زيـادة الأعمار وصحة الأبدان وسـعة الأرزاق والخلاص مـن البلاء والغم.

ركائز الدعاء في ثقافة الكتلة الشيعية:

وقـد مر الدعاء في الثقافة الإسـلامية بأربع ركائز، بـدأت الركيزة الأولى بتثبيت تشريعه في التنزيل الذي تعرض للدعاء كأعظم وسيلة مفتوحة مع الله تعالى(قل مـا يعبـأ بكم ربي لولا دعاؤكم)[١]. (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد)[٢]. وجعل القرآن مفهوم الدعاء يصدق على العبادة(لن ندعو من دونه إلها) أي لن نعبد إلها دونه، فالدعاء في نفسه عبادة، بل هو معظم العبادة وأفضلها، لأنهما يشتركان في حقيقة واحدة، هي إظهار الخشوع والافتقار إلى الله تعالى، وهو غاية الخلق وعلته(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[٣]، بل الدعاء هو مخ العبادة وحقيقتها وأجلى صورها، فقد اقترن الدعاء بالعبادات والطاعات التي يتقرب بها العبد إلى خالقه تعالى، ففي الصلاة والصيام والحج دعوات مقررة في أوقات معينة، وقد تأكد اسـتحباب الدعاء في الركعة الثانية من كل فريضة أو نافلة وفي السجود وفي أدبار الصلوات، فالقنوت مستحب في كل صلاة مرة واحدة، فرضـا كانـت أو نفلا، أداء أو قضاء، ومحله بعد قراءة السـورة قبل الركوع[٤].

١- القرآن الكريم، سورة الفرقان، ألآية ٧٧.

٢- القرآن الكريم، سورة فاطر، ألآية ١٥

٣-- القرآن الكريم، سورة الذاريات، ألآية ٥٦.

٤- جواهر الكلام، ج١٠ ص٣٥٣.

والدعاء يرد القضاء، ويستدفع به البلاء ويكشف به السوء والضر والكرب العظيم(أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) [١]. (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه)[٢]. (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون)[٣]. (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا)[٤]. (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل)[٥].

وقد ذكر القرآن نماذج من دعاء الأنبياء (وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) [٦].(وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) [٧]. (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم * ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) [٨]. وكان النبي إبراهيم عليه السلام معروفا بالدعاء والمناجاة (إن

١- القرآن الكريم، سورة النمل، ألآية ٦٢.
٢- القرآن الكريم، سورة يونس، ألآية ١٢.
٣- القرآن الكريم، سورة الروم، ألآية ٣٣.
٤- القرآن الكريم، سورة الإسراء، ألآية٦٧.
٥- القرآن الكريم، سورة الزمر، ألآية ٨.
٦- القرآن الكريم، سورة الأنبياء، ألآية ٨٣ – ٨٤.
٧- القرآن الكريم، سورة الأنبياء، ألآية ٨٩ ٩٠.
٨- القرآن الكريم، سورة الأنبياء، ألآية ٧٦ ٧٧.

إبراهيم لأواه حليم)[١] والأواه هو الدعاء[٢]. ولما اشتد الفزع بأصحاب طالوت لكثـرة العدد والعدة في صف جالوت وجنوده، دعوا الله متضرعين(ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فهزموهم بإذن الله) [٣]. وفي بدر حيث التقى الجمعان، دعا رسول اللـه صلى الله عليه وآله ربه واسـتنصره متضرعـا إليه حتى سـقط رداؤه[٤]، فأنجـز له الله تعـالى ما وعده، وأمده بألف من الملائكة مردفين، ولاحت بشـائر الانتصار(إذ تسـتغيثون ربكم فاسـتجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين)[٥].

كمـا تعـرض التنزيل لـشروط وآداب الدعـاء، كإظهار التضرع والخشـوع (واذكـر ربـك في نفسـك تضرعـا وخيفـة) [٦]، وقـد ذم الله تعـالى الذين لا يتضرعون إليه(ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) [٧]. والاسـتكانة هي الخضوع، والتـضرع هو رفع اليدين والتضرع بهما[٨].

والركيـزة الثانيـة في بنـاء الدعـاء في ثقافـة الكتلـة الشـيعية هي تأكيد السـنة النبويـة وأهـل البيـت على مشروعيـة ومطلوبية الدعـاء كطريـق إلى الله تعالى، وتسـليط الضـوء على أبعاد وأهميـة وخطورة الدعاء في دنيا الإنسـان وآخرته، وتحديـد موقـع الدعـاء مـن الديـن، ومن العبـادة، ونسـبته إليها، قال رسـول اللـه صلى الله عليه وآله: (الدعـاء يرد القضاء وقـد أبرم إبرامـا، وضم أصابعـه)[٩]. و(الدعاء

١- القرآن الكريم، سورة التوبة، ألآية ١١٤.
٢- الكافي، ج٢ ص٣٣٨ / ١.
٣- القرآن الكريم، سورة البقرة، ألآية ٢٥٠ ٢٥١.
٤- راجع دلائل النبوة، البيهقي، ج٣ ص ٥٠ ٥١.
٥- القرآن الكريم، سورة الأنفال، ألآية ٩.
٦- القرآن الكريم، سورة الأعراف، ألآية ٢٠٥.
٧- القرآن الكريم، سورة المؤمنون، ألآية ٧٦.
٨- الكافي، ج٢ ص٣٤٨ / ٢، ٣٤٩ / ٦.
٩- الكافي، ج٢ ص ٣٤١ / ٦.

مـخ العبـادة، ولا يهلك مـع الدعاء أحـد)[١]، و(أفضل العبادة الدعـاء، وإذا أذن اللـه لعبـد في الدعـاء فتح لـه أبواب الرحمـة، إنه لن يهلـك مع الدعـاء أحد)[٢]. و(الدعـاء تـرس المؤمـن) [٣]. و(الدعـاء مفاتيـح النجـاح، ومقاليد الفـلاح)[٤]. و(الدعـاء سـلاح المؤمـن، وعمـود الديـن، ونـور السـماوات والأرض)[٥].

الركيزة الثالثة: شروط الدعاء، وآدابه، وأبعاده المعنوية!

فهـذه ركيـزة علمية، نظرية، ذكر فيها رسـول اللـه صلى الله عليه وآله وأئمة أهـل البيت آداباً للدعاء وشروطا، يسـتحب أن يراعيها الداعـي، فهي من باب كمال العمل المقدّم للباري عز وجل. فقد قال الإمام علي عليه السلام في وصيته لولده الحسن عليه السلام، يشترط على الداعي شروطاً وآداباً: (وألجئ نفسـك في أمورك كلها إلى إلهك، فإنك تلجئها إلى كهف حريز ومانع عزيز، واخلص في المسألة لربك، فإن بيده العطاء والحرمان. واعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض، قد أذن لك في الدعاء، وتكفل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك، وتسترحمه ليرحمك، ولم يجعل بينك وبينه مـن يحجبك عنه.. فإذا ناديته سـمع نـداك، وإذا ناجيته علـم نجواك، فأفضيت إليه بحاجتك، وأبثثته ذات نفسـك، وشـكوت إليه همومك، واستكشفته كروبك، واسـتعنته على أمورك، وسـألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائه غيره مـن زيـادة الأعمار، وصحة الأبدان، وسـعة الأرزاق، ثم جعـل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واسـتمطرت شـآبيب رحمته، فلتكن مسـألتك فيما يبقى لك جماله، وينفى عنك وباله، فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له. فلا يقنطك إبطاء إجابته، فإن العطية على

١- بحار الأنوار، ج ٩٣ ص ٣٠٠.

٢- عدة الداعي، ص ٣٥.

٣- الكافي، ج٢ ص ٣٤٠ / ٤.

٤- الكافي، ج٢ ص٣٤٠ / ٢.

٥- الكافي، ج ٢ ص ٣٣٩ / ١. وعيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢ ص ٣٧ / ٩٥.

قـدر النيـة، وربما أخرت عنـك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السـائل، وأجزل لعطاء الآمل، وربما سـألت الشـئ فلا تؤتاه وأوتيت خيرا منه عاجلا أو آجلا، أو صرف عنـك لما هـو خير لك، فلرب أمر قد طلبته فيه هـلاك دينك لو أوتيته)[١].

ومـن أهم هـذه الـشروط والآداب الطهـارة مـن الحدثين الأكـبر والأصغر والصدقـة والتطيب والصلاة فقد روى مسـمع عن الإمـام الصادق عليه السلام أنه قال: يا مسمع، ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غم من غموم الدنيا أن يتوضأ ثم يدخل مسجده، فيركع ركعتين فيدعو الله فيهما ؟ أما سمعت الله يقول: واستعينوا بالصبر والصلاة [٢]. كان أبي إذا طلب الحاجة قدم شيئا فتصدق به، وشم شـيئا من طيب، وراح إلى المسجد[٣].

والبدء بالبسملة! (لا يرد دعاء أوله بسم الله الرحمن الرحيم)[٤].

والـشروع والإنتهاء بالصلاة على محمـد وآل محمد(لا يزال الدعاء محجوبا حتى يصلى علي وعلى أهل بيتي)[٥]. وقال علي عليه السلام: و(كل دعاء محجوب حتى يصلى على محمد وآل محمد)[٦]. و(إذا كانت لك إلى الله سبحانه حاجة، فابدأ بمسألة الصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله ثم سل حاجتك، فإن الله أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضي إحداهما ويمنع الأخرى)[٧].

والثناء على الله تعالى! (من تشاغل بالثناء على الله، أعطاه الله فوق رغبة السائلين)[٨].

والإلحـاح! قـال رسـول الله صلى الله عليه وآله (رحم اللـه عبدا طلب من اللـه عز وجل حاجة

١- نهج البلاغة، الكتاب (٣١).

٢- تفسير العياشي، ج١ ص ٤٣ / ١٣٩.

٣- الكافي، ج٢ ص ٣٤٧ / ٧.

٤- بحار الأنوار، ج٩٣ ص٣١٣.

٥- كفاية الأثر، ص٣٩.

٦- مجمع الزوائد، ج١٠ ص ١٦٠.

٧- نهج البلاغة : الحكمة ٣٦١.

٨- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٦ ص١٩٠.

فألح في الدعاء، استجيب له أو لم يستجب)[١]. وقد يرى المؤمن في دعائه صلاحا ظاهرا، فيلح بالدعاء والمسألة، ولكن لو استجيب له، فإن الاستجابة قد تنطوي على مفسدة له أو لغيره لا يعلمها إلا الله تعالى، قال تعالى:(وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شـيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) [٢]. وفي زبور داود عليه السلام : يقول الله تعالى : (يا بن آدم، تسـألني فأمنعك، لعلمي بما ينفعك)[٣]. وعليه فإن إجابة الدعاء إن كانت مصلحة والمصلحة في تعجيلها، فإنه تعالى يعجلها، وإن اقتضت المصلحة تأخيرها إلى وقت معين أجلت، ويحصل للداعـي الأجـر والثواب لصبره في هذه المدة. وإذا لم يترتب على الإجابة غير الشر والفساد، فإنه تعالى لا يستجيب الدعاء لسبق رحمته وجزيل نعمته، ولأنه تعالى لا يفعل خلاف مقتضى الحكمة والمصلحة: (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخـير لقضي إليهم أجلهم)[٤] وفي هذه الحالة يثاب المؤمن على دعائه إما عاجلا بدفع السوء عنه، وإعطائه السكينة في نفسه، والانشراح في صدره، والصبر الذي يسهل معه احتمال البلاء الحاضر، أو آجلا في الآخرة كما يثاب على سائر الطاعات والصالحات من أعماله، وذلك أعظم درجة عند الله تعالى، لأن عطاء الآخرة دائم لا نفاد له، وعطاء الدنيا منقطع إلى نفاد. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (ما من مؤمن دعا الله سبحانه دعوة، ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم، إلا أعطاه الله بها أحد خصال ثلاث : إما أن يعجل دعوته، وإما أن يدخر له، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها. قالوا : يا رسول الله، إذن نكثر ؟

قال : أكثروا[٥]).

١- الكافي، ج٢ ص٣٤٥ / ٦.

٢- القرآن الكريم، سورة البقرة، ألآية ٢١٦.

٣- بحار الأنوار، ج٧٣ ص ٣٦٥ / ٩٨.

٤- القرآن الكريم، سورة يونس، ألآية ١١. الكافي، ج٢ ص ٣٥٤ / ١. وقرب الإسناد، ص ١٧١.

٥- وسائل الشيعة، ج٧ ص٢٧ / ٨.

وورد في دعاء الافتتاح : (وأسألك مستأنسا لا خائفا ولا وجلا مدلا عليك فيما قصدت فيه إليك، فإن أبطأ عني عتبت بجهلي عليك، ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور)[١].

وقد تؤخر الإجابة عن العبد المؤمن لزيادة صلاحه وعظم منزلته عند الله عز وجل، أو لمحبة سماع صوته والاكثار من دعائه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (إن الله ليتعهد عبده المؤمن بأنواع البلاء، كما يتعهد أهل البيت سيدهم بطرف الطعام، قال الله تعالى : « وعزتي وجلالي وعظمتي وبهائي إني لأحمي وليي أن أعطيه في دار الدنيا شيئا يشغله عن ذكري حتى يدعوني فأسمع صوته، وإني لأعطي الكافر منيته حتى لا يدعوني فأسمع صوته بغضا له »)[٢].

وطول الدعاء! (أطولكم قنوتا في دار الدنيا، أطولكم راحة يوم القيامة في الموقف)[٣].

والتوسل بالأسماء! (لله عز وجل تسعة وتسعون اسما، من دعا الله بها استجيب له)[٤].

وعدم التردد في طلب أصغر الحاجات! (ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع)[٥].

والإعتقاد بالله تعالى! (قال الله عز وجل : من سألني وهو يعلم أني أضر وأنفع استجبت له)[٦].

والثقة بالله! (ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة) [٧].

١-- مصباح المتهجد، ص٥٧٨.

٢- بحار الأنوار، ج٩٣ ص ٣٧١ / ١٠.

٣- ثواب الأعمال، ص٣٣. والأمالي، الشيخ الصدوق، ص٤١١.

٤- التوحيد، ص١٩٥ / ٩.

٥- بحار الأنوار، ج٩٣ ص٢٩٥ و٣٠٠.

٦- بحار الأنوار، ج٩٣ ص ٣٠٥.

٧- بحار الأنوار، ج٩٣ ص ٣٠٥ و٣٢١.

والدعـاء في الليـل والنهار(ألا أدلكم على سـلاح ينجيكم مـن أعدائكم، ويدر أرزاقكم ؟ قالوا : بلى يا رسـول الله، قال صلى الله عليه وآله: تدعون ربكم بالليل والنهار، فإن سـلاح المؤمن الدعاء) [١].

والتعميم(إذا دعا أحدكم فليعم، فإنه أوجب للدعاء)[٢].

والحزن والبكاء(إذا أحب الله عبدا نصب في قلبه نائحة من الحزن، فإن الله لا يدخل النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن إلى الضرع)[٣]. وكان فيمـا أوصى بـه رسـول الله صلى الله عليه وآله الإمام عـلي عليه السلام : (يا علي، أربـع خصال من الشـقاء : جمود العين، وقسـاوة القلب، وبعد الأمل، وحب البقاء) [٤]. وقال الإمام علي عليه السلام: (بكاء العيون وخشية القلوب من رحمة الله تعالى ذكره، فإذا وجدتموهـا فاغتنمـوا الدعاء، ولو أن عبدا بكى في أمة لرحم الله تعالى ذكره تلك الأمة لبكاء ذلك العبد)[٥].

والاخلاص (بالاخلاص يكون الخلاص، فإذا اشتد الفزع، فإلى الله المفزع)[٦].

وترقيق القلب(اغتنموا الدعاء عند الرقة، فإنها رحمة) [٧].

والإقبـال! فقد جـاء في وصية النبي صلى الله عليه وآله للإمام عـلي عليه السلام : (لا يقبل الله دعاء قلب ساه)[٨]، أو (لاه)[٩].

وطهـارة المداخيل المالية! فقـد ورد في الحديث القدسي : (فمنك الدعاء وعلي

١- الكافي، ج٢ ص ٢٤٠ / ٣.

٢- الكافي، ج٢ ص ٣٥٤ / ١.

٣- عدة الداعي، ص١٦٨.

٤- بحار الأنوار، ج٩٣ ص ٣٣٠ / ٩.

٥- بحار الأنوار، ج٩٣ ص٣٣٦.

٦- الكافي، ج٢ ص٣٤٠ / ٢.

٧- بحار الأنوار، ج٩٣ ص٣١٣.

٨- الفقيه، ج٤ ص٢٦٥.

٩- الكافي، ج٢ ص٣٤٤ / ٢.

الإجابة، فلا تحجب عني دعوة إلا دعوة آكل الحرام) [١]. وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا رسول الله أحب أن يستجاب دعائي، فقال صلى الله عليه وآله: (طهر مأكلك، ولا تدخل بطنك الحرام)[٢].

وتذكر الله في النعمة والرخاء! قال رسول الله صلى الله عليه وآله موصيا الفضل بن العباس : (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)[٣]. فينبغي بالمؤمن أن يدعو الله في جميع حالاته، في البلاء، عند الابتلاء بالمصائب والمحن، وعندما توصد الأبواب، وتنقطع العلل والأسباب، ويفزع الانسان إلى خالقه، وفي الرخاء، لأن الدعاء عبادة توصل الإنسان بربه، فيجب أن لا ينحصر في وقت الشدة والاضطرار بل يجب أن يكون في جميع الأحوال. فإذا اقتصر المؤمن على الدعاء في حال الاضطرار والشدة، فذلك جفاء وقسوة وابتعاد عن رحاب الرحمة والمغفرة. ولأن عدم نسيان الله في الرخاء، وسيلة لإستدرار إستجابته في الشدة فلا ينسى في الشدة من لم ينسه في الرخاء، لأن الذي ينسى الله ينساه! ومن نسي ربه في الرخاء يكون كمن اعتقد باستقلال الأسباب في الرخاء، ثم إذا دعا ربه في الشدة، فيعني ذلك أنه يقر بربوبيته في حال الشدة فقط! ولذلك يستحب التقدم بالدعاء في الرخاء قبل نزول البلاء. قال أمير المؤمنين عليه السلام لرجل يعظه : (لا تكن ممن إن أصابه بلاء دعا مضطرا، وإن ناله رخاء أعرض مغترا)[٤]. و(ما من أحد ابتلي وإن عظمت بلواه أحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء)[٥].

والإقرار بالذنب، فقد قال عليه السلام، في دعائه الذي رواه عنه كميل بن زياد، كنموذج لضرورة الإقرار بالذنب في الدعاء : (وقد أتيتك يا إلهي بعد تقصيري

١- بحار الأنوار، ج٩٣ ص٣٧٣.

٢- عدة الداعي، ص١٣٩.

٣- من لا يحضره الفقيه، ج٤ ص ٢٩٦ / ٨٩٦.

٤- نهج البلاغة، الحكمة (١٥٠).

٥- من لا يحضره الفقيه، ج٤ ص٢٨٥ / ٨٥٣. وأمالي الصدوق، ص٢١٨ / ٥. ونهج البلاغة، الحكمة (٣٠٢).

وإسرافي على نفسي، معتذرا نادما، منكسرا مستقيلا، مستغفرا منيبا، مقرا مذعنا معترفا، لا أجد مفرا مما كان مني، ولا مفزعا أتوجه إليه في أمري، غير قبولك عذري وإدخالك إياي في سعة من رحمتك، اللهم فاقبل عذري، وارحم شدة ضري، وفكني من شد وثاقي)[١].

وإظهار التضرع والخشوع، قال تعالى: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ)[٢]، وقد ذم الله تعالى الذين لا يتضرعون إليه، فقال تعالى: (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون)[٣].(الاستكانة هي الخضوع، والتضرع هو رفع اليدين والتضرع بهما) [٤].

وقال الإمام الحسين عليه السلام: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله يرفع يديه إذ ابتهل ودعا كما يستطعم المسكين) [٥] وكان يتضرع عند الدعاء حتى يكاد يسقط رداؤه[٦].

والتضرع من أسباب استجابة الدعاء، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (إن الله يستحي من العبد أن يرفع إليه يديه فيردهما خائبتين)[٧].

وأن يدعو الإنسان خفية وسراً ليبتعد عن مظاهر الرياء التي تمحق الأعمال وتجعلها هباء منثورا، قال تعالى:(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً)[٨]. فإن(دعوة العبد سرا دعوة واحدة تعدل سبعين دعوة علانية، ودعوة تخفيها أفضل عند الله من سبعين دعوة تظهرها)[٩].

١- نهج السعادة ص١٥٤ كتاب الدعاء.

٢- القرآن الكريم، سورة الأعراف، ألآية ٢٠٥.

٣- القرآن الكريم، سورة المؤمنون، ألآية ٢٦.

٤- الكافي، ج٢ ص٣٤٨ / ٢، ٣٤٩ / ٦.

٥- بحار الأنوار، ج٩٣ ص٣٣٩ / ٩.

٦- بحار الأنوار، ج٩٣ ص٣٣٩ / ١٠.

٧- بحار الأنوار، ج٩٣ ص٣٦٥ / ١١.

٨- القرآن الكريم، سورة الأعراف، ألآية ٥٥.

٩- الكافي، ج٢ ص٣٤٥ ٣٤٦ / ١.

والتأني، فإن رجلا دخل المسجد فصلى ركعتين، ثم سأل الله عز وجل فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: عجل العبد ربه، وجاء آخر فصلى ركعتين ثم أثنى على الله عز وجل وصلى على النبي صلى الله عليه وآله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: سل تعط[١].

والتزيّن، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عز وجل : إني لأستحي من عبد يرفع يده وفيها خاتم فيروزج فأردها خائبة[٢].

واختيار الدعاء في الليل، قال نوف البكالي: رأيت أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة وقد نهض من فراشه وقال لي : (يا نوف، إن داود عليه السلام قام في مثل هذه الساعة من الليل فقال : إنها ساعة لا يدعو فيها عبد إلا استجيب له)[٣].

وكان فيما ناجى به موسى بن عمران عليه السلام أن قال له : يا بن عمران، كذب من زعم أنه يحبني فإذا جنه الليل نام عني، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه ؟ ها أنا يا بن عمران مطلع على أحبائي إذا جنهم الليل حولت أبصارهم في قلوبهم، ومثلت عقوبتي بين أعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة، ويكلموني عن الحضور. يا بن عمران، هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينيك الدموع، وادعني في ظلم الليل، فإنك تجدني قريبا مجيبا[٤].

وألدعاء وقت الوتر والسحر وما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (خير وقت دعوتم الله عز وجل فيه الأسحار) وتلا هذه الآية في قول يعقوب عليه السلام:(سوف أستغفر لكم ربي) [٥] وقال صلى الله عليه وآله: أخرهم إلى السحر) [٦]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام : أجيبوا داعي الله، واطلبوا الرزق فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فإنه أسرع في طلب

١- الكافي، ج٢ ص٣٥٢ / ٦.

٢- بحار الأنوار، ج٩٣ ص٣٢١.

٣- نهج البلاغة، الحكمة (١٠٤).

٤- أمالي الصدوق، ص٢٩٢ / ١.

٥- القرآن الكريم، سورة يوسف، ألآية ٩٨.

٦- الكافي، ج٢ ص٣٤٦ / ٦.

الرزق من الضرب في الأرض، وهي الساعة التي يقسم فيها الرزق بين عباده. توكلوا على الله عند ركعتي الفجر إذا صليتموها، ففيها تعطوا الرغائب)[١].

والدعاء مستجاب بعد الصلوات المكتوبة، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (من أدى لله مكتوبة، فله في أثرها دعوة مستجابة) [٢].

والدعاء مستجاب ليلة الجمعة ويومها، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (إن يوم الجمعة سيد الأيام، يضاعف الله عز وجل فيه الحسنات، ويمحو فيه السيئات، ويرفع فيه الدرجات، ويستجيب فيه الدعوات)[٣]. وقال صلى الله عليه وآله: لا يسأل الله تعالى فيها عبد خيرا إلا أعطاه)[٤].

وسئل الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى: (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) [٥]! فقال عليه السلام : (فريضة على كل مسلم أن يقول قبل طلوع الشمس عشر مرات وقبل غروبها عشر مرات : لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهي حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شئ قدير). فقال السائل: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، ويميت ويحيي ! فقال عليه السلام : (يا هذا، لا شك في أن الله يحيي ويميت، ويميت ويحيي، ولكن قل كما أقول)[٦].

وأن يدعو المؤمن لأخيه في ظهر الغيب، وإيثار المؤمنين بالدعاء، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (ما من مؤمن أو مؤمنة مضى من أول الدهر أو هو آت إلى يوم القيامة إلا وهم شفعاء لمن يقول في دعائه : اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، وإن العبد ليؤمر به إلى النار يوم القيامة فيسحب، فيقول المؤمنون والمؤمنات

١- الخصال، ص٦١٥.

٢- أمالي الصدوق ١ ص٢٩٥.

٣- بحار الأنوار، ج٨٩ ص٢٧٤ / ٢٠.

٤- عدة الداعي، ص٤٧.

٥- القرآن الكريم، سورة طه، ألآية ١٣٠.

٦- الخصال، ص ٤٥٢ / ٥٨.

: يـا ربنـا، هذا الذين كان يدعو لنا فشـفعنا فيه، فيشـفعهم الله فينجو)[١]. وقال رسـول الله صلى الله عليه وآله: (ليس شـئ أسرع إجابة من دعـوة غائب لغائب)[٢]. وروي أن الله سـبحانه وتعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : (يا موسى، ادعني على لسـان لـم تعصنـي به. فقال عليه السلام : أنـى لي بذلك ؟ فقال : ادعني على لسـان غيرك)[٣]. ويدخل في إطار الدعاء الخاص الدعاء لأربعين من المؤمنين قبل أن يدعو المؤمن لنفسه، وهو من الأدعية المستجابة أيضا. ويتأكد هذا الدعاء بعد الفـراغ من صلاة الليل بأن يقول وهو سـاجد : (اللهـم رب الفجر، والليالي العشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر، ورب كل شئ، وإله كل شئ، ومليك كل شـئ، صـل على محمد وآلـه، وافعل بي وبفلان وبفـلان... ما أنت أهله، ولا تفعـل بنـا ما نحن أهله، يا أهـل التقوى وأهل المغفـرة)[٤]. وعن الإمام الحسـن بن علي (عليهما السـلام)، قال : (رأيت أمي فاطمة (عليها السـلام) قامـت في محرابهـا ليلة جمعتها، فلم تزل راكعة سـاجدة حتى اتضح عموم الصبح، وسـمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسـميهم، وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسـها بشـئ، فقلت لها : يا أماه، لم لا تدعين لنفسـك كما تدعين لغـيرك ؟ فقالت : يا بني، الجار ثم الدار)[٥].

ومـن الشروط التـي يجب أن يراعيهـا الداعي، إزالة الحجـب والموانع التي تحول دون صعود الدعاء، كاقتراف المعاصي، وأكل الحرام، والظلم، وعقوق الوالديـن، وغيرهـا من الذنوب التـي تحبس الدعاء، ولا يتهيـأ للداعي معها الاقبال على ربه، والاقبال هو الشرط الأساس في استجابة الدعاء، يقول أمير

١- بحار الأنوار، ج٩٣ ص٣٨٥ / ١٠.

٢- الكافي، ج٢ ص٣٧٠ / ٧.

٣- عدة الداعي، ص١٨٣. وبحار الأنوار، ج٩٣ ص٣٩٠.

٤- عدة الداعي، ص١٨٢.

٥- علل الشرائع، ص١٨١ / ١.

المؤمنين عليه السلام : (خير الدعاء ما صدر عن صدر نقي وقلب تقي)[١]. وأهم الموانع التي تحبس الدعاء :

اجتراح الذنوب! فمن دعاء أمير المؤمنين عليه السلام : (اللهم إني أعوذ بك من ذنب يحبط العمل، وأعوذ بك من ذنب يعجل النقم، وأعوذ بك من ذنب يمنع الدعاء)[٢]. وعن الإمام زين العابدين عليه السلام : (والذنوب التي ترد الدعاء وتظلم الهواء عقوق الوالدين[٣]). و(سوء النية، وخبث السريرة، والنفاق، وترك التصدق بالإجابة، وتأخير الصلوات المفروضات حتى تذهب أوقاتها، وترك التقرب إلى الله عز وجل بالبر والصدقة، واستعمال البذاء والفحش في القول)[٤].

وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت مواضع لا يرد فيها الدعاء، كدعاء الوالد الصالح لوده إذا بره، ودعاؤه عليه إذا عقه. ودعاء الولد الصالح لوالده. ودعاء المظلوم الذي لا يجد ناصرا إلا الله على من ظلمه، ودعاؤه لمن انتصر له. ودعاء الإمام العادل لرعيته. ودعاء المريض لعائده. ودعاء الغازي في سبيل الله. ودعاء الحاج أو المعتمر حتى يرجع. ودعاء الصائم حتى يفطر. ودعاء الأطفال ما لم يقارفوا الذنوب. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (أربعة لا ترد لهم دعوة حتى تفتح لهم أبواب السماء أو تصير إلى العرش : الوالد لولده، والمظلوم على من ظلمه، والمعتمر حتى يرجع، والصائم حتى يفطر)[٥]. وقال صلى الله عليه وآله: (إياكم ودعوة المظلوم، فإنها ترفع فوق السحاب حتى ينظر الله عز وجل إليها فيقول : ارفعوها حتى استجيب له، وإياكم ودعوة الوالد

١- الكافي، ج٢ ص٣٤٠ / ٢.

٢- بحار الأنوار، ج٩٤ ص٩٣ / ٩.

٣- معاني الأخبار ص٢٧٠.

٤- معاني الأخبار ص٢٧١.

٥- الكافي، ج٢ ص٣٧٠ / ٦. والفقيه، ج٢ ص١٤٦ / ٦٤٤.

فإنهـا أحد من السـيف)[١]. وقال ﷺ: (دعاء أطفال أمتي مسـتجاب مـا لـم يقارفوا الذنـوب)[٢]. وقال الإمـام عـلي عليه السلام : (لا تتركوا الأمر بالمعـروف والنهـي عن المنكـر فيولى عليكم شراركـم، ثم تدعون فلا يسـتجاب لكم)[٣]. و سـأل زيـد بن صوحان أمـير المؤمنين عليه السلام : أي دعوة أضل ؟ فقـال: الداعي بما لا يكون[٤].

الركيزة الرابعة: تحقق وظهور نفس مادة ونص الدعاء!

وبرزت في مدرسـة أهل البيت الركيـزة الرابعة من ظاهرة الدعاء في الثقافة الإسـلامية، التي ميّزتها عن سـائر المدارس الإسـلامية، وهي ركيزة تحقق وظهـور نفس مـادة ونص الدعاء، فقـد اهتم الأئمة من أهـل البيت بتقديم النـص النموذجـي للدعاء، حيث حفلت كتب الدعـاء الكثيرة بتراث غزير من أدعيتهـم، وهي على نوعين:

الأدعيـة التي هـي الأوراد والأذكار في كل يوم وليلة، والمشـتملة على تجديد العقائـد وطلب المقاصـد والأرزاق ودفع كيد الأعداء ونحو ذلك.

والأدعية المشـتملة على التوبة والاسـتغاثة والاعتذار وإظهار الحب والتذلل والانكسـار، كالأدعية الخمس عشرة، والمناجاة المعروفة بالانجيلية، والدعاء الذي رواه كميل بن زياد، والمناجاة الشعبانية، ودعاء الصباح، ودعاء الإمام الحسين في عرفة، والصحيفة السجادية.

وتعتـبر هـذه النصـوص صفحـة مشرقة مـن صفحـات التراث الإنسـاني، وذخـيرة مـن ذخائر المسـلمين، فهي مـن حيـث الصياغة والبلاغـة آية من آيـات الأدب الرفيع، ومـن حيث المضمون فقد أودع فيها أهل البيت خلاصة

١- الكافي، ج٢ ص٣٦٩ / ٣.

٢- بحار الأنوار، ج٩٣ ص٣٥٧ / ١٤.

٣- نهج البلاغة، الرسالة (٤٧).

٤- الفقيه، ج٤ ص٢٧٤ / ٧٢٩. أمالي الصدوق، ص٣٢٢ / ٤.

المعـارف الدينيـة، والإلهيـات والأخلاق، وتعاليـم القرآن، وآداب الإسـلام، وأسرار التوحيـد والنبوة والمعاد، مـن الموضوعات التي يترتب عليها آثار في تعليم النـاس الدين والأخلاق.

وكان الدعـاء مـن أبـرز ما تميّز بـه الإمام زين العابديـن عليه السلام، كما تميز ما نقل عنه من الأدعية المأثورة بالكثرة، والتنظيم والتبويب، والنفس الطويل، والشـهرة، والتـداول، لمـا تحتويه من أسـاليب جذابة ومسـتهوية للقلوب، تتجاوب معها الأرواح والنفوس. كما كان من سمات مدرسته عليه السلام التقدم في الدعـاء، فكان يقول: (لم أر مثل التقـدم في الدعاء، فإن العبد ليس تحضره الإجابة في كل ساعة)[١].

وجعـل الثناء والصلاة على النبي وآله مفتاحـا لأغلب فقرات الدعاء[٢]، كمـا ورد في الصحيفة السـجادية، حيث كان يبـدأ بالثناء فالصلاة على النبـي في جميـع فقرات الدعـاء ثم المسـألة، فمن دعائـه عليه السلام: (يا من لا تنقـضي عجائـب عظمته صل عـلى محمد وآله واحجبنا عـن الالحاد في عظمتـك، ويا من لا تنتهي مدة ملكه صل على محمد وآله واعتق رقابنا من نقمتك، ويا من لا تفنى خزائن رحمته صل على محمد وآله واجعل لنـا نصيبـا في رحمتك، ويا مـن تنقطع دون رؤيتـه الأبصار صل على محمد وآلـه وأدننا إلى قربك)[٣].

١- الإرشاد، ص٢٥٩.

٢- بحار الأنوار، ج٩٣ ص٣١٦.

٣- الصحيفة السجادية : الدعاء (٥).

الصحيفة السجادية

هي مجموعة أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام، كتبت بيد ولده الباقر عليه السلام بحضور الصادق عليه السلام أيضاً. وهي من أهم كتب الدعاء عند الشيعة، بل وعند عدد كبير من المتصوفة، ويلوذ إليها الشيعة عندما يريدون التوجه إلى الله، لأنها بكلمات أهل البيت، وتدعى بـ «زبور آل محمد» و«إنجيل أهل البيت». وهي من أهم النصوص الإسلامية عند الشيعة، وأكبر دليل على عظمة الدعاء وأهميّته ومدى ضرورته عند الإمام زين العابدين عليه السلام. وقد اهتم بها العلماء والعبّاد والعارفون أيّما اهتمام وتداولوها وحافظوا عليها أشدّ الحفاظ في كلّ الظروف القاسية خوفاً من إضاعتها وإتلافها من قِبل الظالمين. وفي بداية الصحيفة، وفي جزء خاص وضع سندها بشكل كامل، ويبدأ من أبي الحسن محمد بن الحسن بن أحمد العلوي الحسيني حتى يتصل بيحيى بن زيد بن علي زين العابدين، ولذلك فهي في غاية الوثاقة من حيث السند، ونسبتها إلى الإمام زين العابدين عليه السلام من الأمور المشهورة والمقطوع بها بين علماء الشيعة.

وكانت الصحيفة أولاً خمسة وسبعين دعاءً فُقد منها أحد عشر دعاءً، وما يعرف اليوم بالصحيفة السجادية الكاملة يحتوي على مجرد أربعة وخمسين دعاءً. وهناك أدعية أخرى عن الامام زين العابدين عليه السلام تذكرها كتب الأدعية والروايات.

وهناك أكثر من شرح وتفسير وتعليق على هذا الكتاب النفيس، أهمها «رياض السالكين» للعلامة السيد علي الحسيني المدني، وهو شرح باللغة العربية، نشرته مؤسسة النشر الإسلامي في أربعة مجلدات.

وكان تكميل الصحيفة موضع اهتمام علماء الشيعة الإمامية منذ العثور عليها. وقد جمعت لأجل ذلك صحيفة سجادية ثانية وثالثة ورابعة. فجمع بعضهم مجموع الأدعية من المصادر الروائية الأخرى ونشروها كمستدرك للصحيفة السجادية. ومن أهم وأشمل هذه الكتب:

الصحيفة السجادية للعلامة السيد محسن الأمين العاملي التي اشتملت على ٣٨١ دعاءً. والصحيفة السجادية الجامعة للسيد محمد باقر الموحد الإصفهاني والتي اشتملت على ٠٧٢ دعاءً ومناجاة، وقد نشرتها مؤخراً مؤسسة الإمام المهدي في قم، وهي أكمل صحيفة حيث اشتملت على كل أدعية الامام زين العابدين عليه السلام المتناثرة في شتى الكتب.

وتقسم الصحيفة إلى أجزاء:

الجزء الأول: تقديم، وهو جزء يشتمل على سند الصحيفة وقصتها.

فقد رواها نَجْمُ الدِّينِ، بَهَاءُ الشَّرَفِ، أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ بْنِ يَحْيَى الْعَلَوِيُّ الْحُسَيْنِيُّ عن الشَّيْخ أَبُي عَبْدِ اللَّه مُحَمَّد بْن أَحْمَدَ بْنِ شَهْرَيَارَ، الْخَازِنُ لِخزَانَة أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام في شَهرِ رَبِيع الأَوَّلِ مِنْ سَنَةِ سِتَّ عَشْرَةَ وخَمْسِمِائَة، عَنِ الشَّيْخ الصَّدُوق، أَبِي مَنْصُور، مُحَمَّد بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْعُكْبَرِيِّ الْمُعَدِّلِ عَنْ أَبِي الْمُفَضَّلِ، مُحَمَّد بْن عَبْدِ اللَّه بْنِ الْمُطَّلِبِ الشَّيْبَانِيِّ، عن جَعْفَر بْن مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ(عَلَيْهِمُ السَّلامُ) عن عَبْدِ اللَّه بْنِ عُمَرَ بْنِ خَطَّاب الزَّيَّات سَنَةَ خَمْس وستِّينَ ومِائَتَيْنِ، عن عَلِيِّ بْنِ النُّعْمَانِ الأَعْلَم عن عُمَيْرِ بْن مُتَوَكِّلٍ الثَّقَفِيّ الْبَلْخِيّ عَنْ أَبِيه مُتَوَكِّلِ بْنِ هَارُونَ.

قَالَ : لَقِيتُ يَحْيَى بْنَ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام وهُوَ مُتَوَجِّه إِلَى خُرَاسَانَ بَعْدَ قَتْلِ أَبِيه فَسَلَّمْتُ عَلَيْه، فَقَالَ لِي : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟

قُلْتُ : مِنَ الْحَجِّ !

فَسَأَلَنِي عَنْ أَهْلِه وبَنِي عَمِّه بِالْمَدِينَةِ، وأَحْفَى السُّؤَالَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام، فَأَخْبَرْتُه بِخَبَرِه وخَبَرِهِمْ وحُزْنِهِمْ عَلَى أَبِيه زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام.

فَقَالَ لِي: قَدْ كَانَ عَمِّي مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام أَشَارَ عَلَى أَبِي بِتَرْكِ الْخُرُوجِ وعَرَّفَه إِنْ هُـوَ خَرَجَ وفَـارَقَ الْمَدِينَةَ مَا يَكُونُ إِلَيْه مَصيرُ أَمْـرِه فَهَلْ لَقِيتَ ابْنَ عَمِّي جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليه السلام ؟

قُلْتُ : نَعَمْ.

قَالَ: فَهَلْ سَمِعْتَه يَذْكُرُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِي ؟

قُلْتُ : نَعَمْ.

قَالَ: بِمَ ذَكَرَنِي ؟ خَبِّرْنِي !

قُلْـتُ : جُعِلْـتُ فِـدَاكَ مَا أُحِبُّ أَنْ أَسْـتَقْبِلَكَ بِمَا سَـمِعْتُه مِنْه. فَقَـالَ: أَبِالْمَوْتِ تُخَوِّفُنِـي ؟ هَاتِ مَا سَـمِعْتَه !

فَقُلْتُ : سَمِعْتُه يَقُولُ إِنَّكَ تُقْتَلُ وتُصْلَبُ كَمَا قُتِلَ أَبُوكَ وصُلِبَ ؟

فَتَغَيَّرَ وَجْهُه وقَالَ (يَمْحُوا الله ما يَشاءُ ويُثْبِتُ وعِنْدَه أُمُّ الْكِتاب)، يَا مُتَوَكِّلُ إِنَّ اللَّـه عَـزَّ وجَـلَّ أَيَّدَ هَـذَا الأَمْرَ بِنَـا وجَعَلَ لَنَـا الْعِلْمَ والسَّـيْفَ فَجُمِعَا لَنَا وخُـصَّ بَنُو عَمِّنَا بِالْعِلْمِ وَحْدَه.

فَقُلْـتُ : جُعِلْـتُ فِدَاءَكَ إِنِّي رَأَيْتُ النَّـاسَ إِلَى ابْنِ عَمِّكَ جَعْفَـرٍ عليه السلام أَمْيَلَ مِنْهُمْ إِلَيْكَ وإِلَى أَبِيكَ !

فَقَالَ : إِنَّ عَمِّي مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ وابْنَه جَعْفَراً عليه السلام دَعَوَا النَّاسَ إِلَى الْحَيَاةِ ونَحْنُ دَعَوْنَاهُمْ إِلَى الْمَوْتِ !

فَقُلْتُ : يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّه أَهُمْ أَعْلَمُ أَمْ أَنْتُمْ ؟

فَأَطْـرَقَ إِلَى الأَرْضِ مَلِيّـاً ثُـمَّ رَفَعَ رَأْسَـه وقَالَ : كُلُّنَا لَه عِلْـمٌ غَيْرَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُـونَ كُلَّ مَـا نَعْلَـمُ، ولا نَعْلَمُ كُلَّ مَا يَعْلَمُونَ ثُمَّ قَـالَ لِي : أَكَتَبْتَ مِنِ ابْنِ عَمِّي شَيْئاً ؟

قُلْتُ : نَعَمْ !

قَالَ : أَرِنِيه !

فَأَخْرَجْتُ إِلَيْه وُجُوهاً مِنَ الْعِلْمِ وأَخْرَجْتُ لَه دُعَاءً أَمْلَاه عَلَيَّ أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام وحَدَّثَنِي أَنَّ أَبَاه مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ(عَلَيْهِمَا السَّلامُ) أَمْلَاه عَلَيْه وأَخْبَرَه أَنَّه مِنْ دُعَاءِ أَبِيه عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ(عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) مِنْ دُعَاءِ الصَّحِيفَةِ الْكَامِلَةِ. فَنَظَرَ فِيه يَحْيَى حَتَّى أَتَى عَلَى آخرِه، وقَالَ لِي : أَتَأْذَنُ فِي نَسْخِه؟

فَقُلْتُ : يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّه أَتَسْتَأْذِنُ فِيمَا هُوَ عَنْكُمْ؟

فَقَالَ : أَمَا لأُخْرِجَنَّ إِلَيْكَ صَحِيفَةً مِنَ الدُّعَاءِ الْكَامِلِ مِمَّا حَفِظَه أَبِي عَنْ أَبِيه، وإِنَّ أَبِي أَوْصَانِي بِصَوْنِهَا ومَنْعِهَا غَيْرَ أَهْلِهَا.

فَقُمْتُ إِلَيْه فَقَبَّلْتُ رَأْسَه، وقُلْتُ لَه : واللَّه يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّه إِنِّي لأَدِينُ اللَّه بِحُبِّكُمْ وطَاعَتِكُمْ، وإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يُسْعِدَنِي فِي حَيَاتِي ومَمَاتِي بِوَلَايَتِكُمْ!

فَرَمَى صَحِيفَتِيَ الَّتِي دَفَعْتُهَا إِلَيْه إِلَى غُلَام كَانَ مَعَه وقَالَ : اكْتُبْ هَذَا الدُّعَاءَ بِخَطٍّ بَيِّنٍ حَسَنٍ واعْرِضْه عَلَيَّ لَعَلِّي أَحْفَظُه فَإِنِّي كُنْتُ أَطْلُبُه مِنْ جَعْفَرٍ حَفِظَه اللَّه فَيَمْنَعُنِيه!

فَنَدِمْتُ عَلَى مَا فَعَلْتُ ولَمْ أَدْرِ مَا أَصْنَعُ، ولَمْ يَكُنْ أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام تَقَدَّمَ إِلَيَّ أَلَّا أَدْفَعَه إِلَى أَحَد. ثُمَّ دَعَا يحي بن زيد بِعَيْبَةٍ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهَا صَحِيفَةً مُقْفَلَةً مَخْتُومَةً فَنَظَرَ إِلَى الْخَاتَمِ وقَبَّلَه وبَكَى، ثُمَّ فَضَّه وفَتَحَ الْقُفْلَ، ثُمَّ نَشَرَ الصَّحِيفَةَ ووَضَعَهَا عَلَى عَيْنِه وأَمَرَّهَا عَلَى وَجْهِه. وقَالَ : واللَّه يَا مُتَوَكِّلُ لَوْ لَا مَا ذَكَرْتَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ عَمِّي إِنَّنِي أُقْتَلُ وأُصْلَبُ لَمَا دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ ولَكُنْتُ بِهَا ضَنِيناً. ولَكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ قَوْلَه حَقٌّ أَخَذَه عَنْ آبَائِه وأَنَّه سَيَصِحُّ فَخِفْتُ أَنْ يَقَعَ مِثْلُ هَذَا الْعِلْمِ إِلَى بَنِي أُمَيَّةَ فَيَكْتُمُوه ويَدَّخِرُوه فِي خَزَائِنِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ. فَاقْبِضْهَا واكْفِنِيهَا وتَرَبَّصْ بِهَا فَإِذَا قَضَى اللَّه مِنْ أَمْرِي وأَمْرِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَا هُوَ قَاضٍ فَهِيَ أَمَانَةٌ لِي عِنْدَكَ حَتَّى تُوصِلَهَا إِلَى ابْنَيْ عَمِّي مُحَمَّدٍ وإِبْرَاهِيمَ ابْنَيْ عَبْدِ اللَّه بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَإِنَّهُمَا الْقَائِمَانِ فِي هَذَا الأَمْرِ بَعْدِي.

فَقَبَضْتُ الصَّحِيفَةَ، فَلَمَّا قُتِلَ يَحْيَى بْنُ زَيْدٍ صِرْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلَقِيتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَحَدَّثْتُه الْحَدِيثَ عَنْ يَحْيَى، فَبَكَى واشْتَدَّ وَجْدُه به. وقَالَ : رَحِمَ اللَّه ابْنَ عَمِّي وأَلْحَقَه بِآبَائِه وأَجْدَادِه. واللَّه يَا مُتَوَكِّلُ مَا مَنَعَنِي مِنْ دَفْعِ الدُّعَاءِ إِلَيْه إِلَّا الَّذِي خَافَه عَلَى صَحِيفَةِ أَبِيه، وأَيْنَ الصَّحِيفَةُ ؟

فَقُلْتُ: هَا هِيَ!

فَفَتَحَهَا وقَالَ : هَذَا واللَّه خَطُّ عَمِّي زَيْدٍ ودُعَاءُ جَدِّي عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ(عَلَيْهِمَا السَّلامُ) ثُمَّ قَالَ لِابْنِه : قُمْ يَا إِسْمَاعِيلُ فَأْتِنِي بِالدُّعَاءِ الَّذِي أَمَرْتُكَ بِحِفْظِه وصَوْنِه. فَقَامَ إِسْمَاعِيلُ فَأَخْرَجَ صَحِيفَةً كَأَنَّهَا الصَّحِيفَةُ الَّتِي دَفَعَهَا إِلَيَّ يَحْيَى بْنُ زَيْدٍ فَقَبَّلَهَا أَبُو عَبْدِ اللَّه ووَضَعَهَا عَلَى عَيْنِه وقَالَ: هَذَا خَطُّ أَبِي وإِمْلَاءُ جَدِّي(عَلَيْهِمَا السَّلامُ) بِمَشْهَدٍ مِنِّي.

فَقُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّه! إِنْ رَأَيْتَ أَنْ أَعْرِضَهَا مَعَ صَحِيفَةِ زَيْدٍ ويَحْيَى ؟

فَأَذِنَ لِي فِي ذَلِكَ، وقَالَ : قَدْ رَأَيْتُكَ لِذَلِكَ أَهْلًا فَنَظَرْتُ وإِذَا هُمَا أَمْرٌ وَاحِدٌ ولَمْ أَجِدْ حَرْفاً مِنْها يُخَالِفُ مَا فِي الصَّحِيفَةِ الأُخْرَى ! ثُمَّ اسْتَأْذَنْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّه عليه السلام فِي دَفْعِ الصَّحِيفَةِ إِلَى ابْنَيْ عَبْدِ اللَّه بْنِ الْحَسَنِ، فَقَالَ: (إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمانات إِلى أَهْلِها)، نَعَمْ فَادْفَعْهَا إِلَيْهِمَا. فَلَمَّا نَهَضْتُ لِلقَائِهِمَا قَالَ لِي : مَكَانَكَ. ثُمَّ وَجَّه إِلَى مُحَمَّدٍ وإِبْرَاهِيمَ فَجَاءَا فَقَالَ : هَذَا مِيرَاثُ ابْنِ عَمِّكُمَا يَحْيَى مِنْ أَبِيه قَدْ خَصَّكُمْ بِه دُونَ إِخْوَتِه ونَحْنُ مُشْتَرِطُونَ عَلَيْكُمَا فِيه شَرْطاً.

فَقَالا : رَحِمَكَ اللَّه قُلْ فَقَوْلُكَ الْمَقْبُولُ !

فَقَالَ: لا تَخْرُجَا بِهَذِه الصَّحِيفَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ !

قَالا : ولِمَ ذَاكَ ؟

قَالَ : إِنَّ ابْنَ عَمِّكُمَا خَافَ عَلَيْهَا أَمْراً أَخَافُه أَنَا عَلَيْكُمَا.

قَالا : إِنَّمَا خَافَ عَلَيْهَا حِينَ عَلِمَ أَنَّه يُقْتَلُ،

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام: وأَنْتُمَا فَلَا تَأْمَنَّا فَوَاللَّه إِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكُمَا سَتَخْرُجَانِ كَمَا

خَرَجَ، وسَتُقْتَلَانِ كمَا قُتِلَ. فقَامَا وهُمَا يَقُولَانِ: لَا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إِلَّا باللَّه الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. فَلَمَّا خَرَجَا قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام: يَا مُتَوَكِّلُ كَيْفَ قَالَ لَكَ يَحْيَى إِنَّ عَمِّي مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ وابْنَه جَعْفَراً دَعَوَا النَّاسَ إِلَى الْحَيَاةِ ودَعَوْنَاهُمْ إِلَى الْمَوْتِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ أَصْلَحَكَ اللَّه قَدْ قَالَ لِي ابْنُ عَمِّكَ يَحْيَى ذَلِكَ!

فَقَالَ: يَرْحَمُ اللَّه يَحْيَى، إِنَّ أَبِي حَدَّثَنِي عَنْ أَبِيه عَنْ جَدِّه عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله أَخَذَتْه نَعْسَةٌ وهُوَ عَلَى مِنْبَرِه. فَرَأَى فِي مَنَامِه رِجَالًا يَنْزُونَ عَلَى مِنْبَرِه نَزْوَ الْقِرَدَةِ يَرُدُّونَ النَّاسَ عَلَى أَعْقَابِهِمُ الْقَهْقَرَى فَاسْتَوَى رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله جَالِساً والْحُزْنُ يُعْرَفُ فِي وَجْهِه. فَأَتَاه جِبْرِيلُ عليه السلام بِهَذِه الآيَةِ (ومَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ والشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ونُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً) يَعْنِي بَنِي أُمَيَّةَ. قَالَ: يَا جِبْرِيلُ أَعَلَى عَهْدِي يَكُونُونَ وفِي زَمَنِي قَالَ: لَا، ولَكِنْ تَدُورُ رَحَى الإِسْلَامِ مِنْ مُهَاجَرِكَ فَتَلْبَثُ بِذَلِكَ عَشْراً، ثُمَّ تَدُورُ رَحَى الإِسْلَامِ عَلَى رَأْسِ خَمْسَةٍ وثَلَاثِينَ مِنْ مُهَاجَرِكَ فَتَلْبَثُ بِذَلِكَ خَمْساً، ثُمَّ لَا بُدَّ مِنْ رَحَى ضَلَالَةٍ هِيَ قَائِمَةٌ عَلَى قُطْبِهَا، ثُمَّ مُلْكُ الْفَرَاعِنَةِ قَالَ: وأَنْزَلَ اللَّه تَعَالَى فِي ذَلِكَ (إِنَّا أَنْزَلْناه فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ومَا أَدْراكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) تَمْلِكُهَا بَنُو أُمَيَّةَ لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. قَالَ: فَأَطْلَعَ اللَّه عَزَّ وجَلَّ نَبِيَّه أَنَّ بَنِي أُمَيَّةَ تَمْلِكُ سُلْطَانَ هَذِه الأُمَّةِ ومُلْكَهَا طُولَ هَذِه الْمُدَّةِ فَلَوْ طَاوَلَتْهُمُ الْجِبَالُ لَطَالُوا عَلَيْهَا حَتَّى يَأْذَنَ اللَّه تَعَالَى بِزَوَالِ مُلْكِهِمْ، وهُمْ فِي ذَلِكَ يَسْتَشْعِرُونَ عَدَاوَتَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ وبُغْضَنَا. أَخْبَرَ اللَّه نَبِيَّه بِمَا يَلْقَى أَهْلُ بَيْتِ مُحَمَّدٍ وأَهْلُ مَوَدَّتِهِمْ وشِيعَتُهُمْ مِنْهُمْ فِي أَيَّامِهِمْ ومُلْكِهِمْ. قَالَ: وأَنْزَلَ اللَّه تَعَالَى فِيهِمْ (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ الله كُفْراً وأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وبِئْسَ الْقَرارُ) ونِعْمَةُ الله مُحَمَّدٌ وأَهْلُ بَيْتِه، حُبُّهُمْ إِيمَانٌ يُدْخِلُ الْجَنَّةَ، وبُغْضُهُمْ كُفْرٌ ونِفَاقٌ يُدْخِلُ النَّارَ فَأَسَرَّ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله ذَلِكَ إِلَى عَلِيٍّ وأَهْلِ بَيْتِه.

ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام: مَا خَرَجَ ولَا يَخْرُجُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ إِلَى قِيَام قَائِمِنَا أَحَدٌ لِيَدْفَعَ ظُلْماً أَوْ يَنْعَشَ حَقّاً إِلَّا اصْطَلَمَتْه الْبَلِيَّةُ، وكَانَ قِيَامُه زِيَادَةً فِي مَكْرُوهِنَا وشِيعَتِنَا. ثُمَّ أَمْلَى عَلَيَّ أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام الأَدْعِيَةَ وهِيَ خَمْسَةٌ وسَبْعُونَ بَاباً، سَقَطَ عَنِّي مِنْهَا أَحَدَ عَشَرَ بَاباً، وحَفِظْتُ مِنْهَا نَيِّفاً وسِتِّينَ بَاباً.

الجزء الثاني: الأدعية، ويشتمل على أربعة وخمسين دعاء معنونة حسب موضوعها. ورواها أَبُو الْمُفَضَّل عن مُحَمَّد بْن الْحَسَن بْن رُوزْبه أبي بَكْر الْمَدَائِنِي الْكَاتب نَزِيل الرَّحْبَة فِي دَارِه عن مُحَمَّد بْن أَحْمَدَ بْن مُسْلِم الْمُطَهَّرِي عن أَبِيه عَنْ عُمَيْر بْن مُتَوَكِّل الْبَلْخِيِّ عَنْ أَبِيه الْمُتَوَكِّل بْن هَارُونَ قَالَ : لَقِيتُ يَحْيَى بْنَ زَيْد بْن عَلِيٍّ عليه السلام، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِتَمَامِه إِلَى رُؤْيَا النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله الَّتِي ذَكَرَهَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّد عَنْ آبَائِه، وفِي هذه الرِوَايَةِ ذِكْرُ الأَبْوَابِ وهِيَ :

١- التَّحْمِيدُ للَّه عَزَّ وجَلَّ.
٢- الصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّد وآله.
٣- الصَّلَاةُ عَلَى حَمَلَةِ الْعَرْشِ.
٤- الصَّلَاةُ عَلَى مُصَدِّقِي الرُّسُلِ.
٥- دُعَاؤه لِنَفْسِه وخَاصَّته.
٦- دُعَاؤه عِنْدَ الصَّبَاحِ والْمَسَاءِ.
٧- دُعَاؤه فِي الْمُهِمَّات.
٨- دُعَاؤه فِي الاسْتِعَاذَة.
٩- دُعَاؤه فِي الاشْتِيَاق.
١٠- دُعَاؤه فِي اللَّجَإِ إِلَى اللَّه تَعَالَى.
١١- دُعَاؤه بِخَوَاتِم الْخَيْرِ.
١٢- دُعَاؤه فِي الاعْتِرَاف.
١٣- دُعَاؤه فِي طَلَبِ الْحَوَائِجِ.

١٤- دُعَاؤه فِي الظُّلَامَاتِ.
١٥- دُعَاؤه عِنْدَ الْمَرَضِ.
١٦- دُعَاؤه فِي الاسْتِقَالَة.
١٧- دُعَاؤه عَلَى الشَّيْطَانِ.
١٨- دُعَاؤه فِي الْمَحْذُورَاتِ.
١٩- دُعَاؤه فِي الاسْتِسْقَاء.
٢٠- دُعَاؤه فِي مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ.
٢١- دُعَاؤه إِذَا حَزَنَه أَمْرٌ.
٢٢- دُعَاؤه عِنْدَ الشِّدَّة.
٢٣- دُعَاؤه بِالْعَافِيَةِ.
٢٤- دُعَاؤه لأَبَوَيْه.
٢٥- دُعَاؤه لِوُلْدِه.
٢٦- دُعَاؤه لِجِيرَانه وأَوْلِيَائِه.
٢٧- دُعَاؤه لأَهْلِ الثُّغُورِ.
٢٨- دُعَاؤه فِي التَّفَزُّعِ.
٢٩- دُعَاؤه إِذَا قُتِّرَ عَلَيْه الرِّزْقُ.
٣٠- دُعَاؤه فِي الْمَعُونَةِ عَلَى قَضَاءِ الدَّيْنِ.
٣١- دُعَاؤه بِالتَّوْبَة.
٣٢- دُعَاؤه فِي صَلَاة اللَّيْلِ.
٣٣- دُعَاؤه فِي الاسْتِخَارَة.
٣٤- دُعَاؤه إِذَا ابْتُلِيَ أَوْ رَأَى مُبْتَلًى بِفَضِيحَةٍ بِذَنْبٍ.
٣٥- دُعَاؤه فِي الرِّضَا بِالْقَضَاءِ.
٣٦- ُعَاؤه عِنْدَ سَمَاعِ الرَّعْدِ.

٣٧- دُعَاؤه فِي الشُّكْر.
٣٨- دُعَاؤه فِي الاعْتذَار.
٣٩- دُعَاؤه فِي طَلَب الْعَفْو.
٤٠- دُعَاؤه عِنْدَ ذكْر الْمَوْت.
٤١- دُعَاؤه فِي طَلَب السَّتْر والْوِقَايَة.
٤٢- دُعَاؤه عِنْدَ خَتْمه الْقُرْآنَ.
٤٣- دُعَاؤه إذَا نَظَرَ إلَى الْهلَال.
٤٤- دُعَاؤه لِدُخُوْل شَهْر رَمَضَانَ.
٤٥- دُعَاؤه لِوَدَاع شَهْر رَمَضَانَ.
٤٦- دُعَاؤه فِي عِيد الْفِطْر والْجُمُعَة.
٤٧- دُعَاؤه فِي يَوْم عَرَفَةَ.
٤٨- دُعَاؤه فِي يَوْم الأَضْحَى والْجُمُعَة.
٤٩- دُعَاؤه فِي دَفْع كَيْد الأَعْدَاء.
٥٠- دُعَاؤه فِي الرَّهْبَة.
٥١- دُعَاؤه فِي التَّضَرُّع والاسْتِكَانَة.
٥٢- دُعَاؤه فِي الإلْحَاح.
٥٣- دُعَاؤه فِي التَّذَلُّل.
٥٤- دُعَاؤه فِي اسْتِكْشَاف الْهُمُوم

الجزء الثالث: ملحقات بعض الادعية الملحقة بالصحيفة ببعض النسخ.

الجزء الرابع: أدعية الأيام، ويشتمل على سبعة أدعية بعدد ايام الأسبوع، كل دعاء خاص بيوم معين من ايام الأسبوع.

الجزء الخامس: المناجات الخمس عشر، وهي معنونة حسب حالة المناجي (مناجاة الخائفين، مناجاة الزاهدين، مناجاة المحبين)

والصحيفة السجادية عجيبة في تنوع موضوعاتها، فقد ضمّن الإمام زين العابدين عليه السلام أدعيته، التي تمثّلت في الصحيفة الكاملة وسائر الأدعية التي وصلت إلينا عنه، منهاجاً كاملاً للحياة الإنسانية، فلم يترك الإمام جانباً مما تحتاجه الأمة الإسلامية إلا وتعرّض له وعالجه بأسلوبه الفذّ وبلاغته البديعة. إن هذه الروح التي نطقت بأدعية الصحيفة السجادية وبالمناجاة المأثورة عنه هي الروح التي تحدّت الطغاة، وكانت مستعدّة للشهادة والقتل في سبيل الله، وفي هذا خير شاهد على اجتماع روح الحماسة وروح الدعاء والمناجاة والعبادة. وهذه الحقيقة أدّت بدورها إلى أن تحمل أدعية الإمام عليه السلام جوانب سياسيّة وجهاديّة واجتماعيّة وأخلاقيّة إلى جوار جوانبها العقائدية والمعرفية والعبادية، فكانت ذات أهداف تغييرية شاملة.

وقد كان للأدعية التي أصدرها أبعاد فكرية واسعة المدى، بالنصوص الحاسمة لقضايا عقائدية إسلامية، كانت بحاجة إلى البت فيها بنص قاطع، بعد أن عصفت بالعقيدة، تيارات الإلحاد، كالتشبيه والجبر والإرجاء والتفويض. فتضمنت أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام في الصحيفة السجادية الأصل الأول من أصول العقيدة الإسلامية، فيقول عليه السلام : (الحمد لله الأول بلا أول كان قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده، الذي قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين، وعجزت عن نعته أوهام الواصفين)[١].

ومن دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام : (يا ذا الجلال والاكرام أسألك عملا تحب به من عمل به، ويقينا تنفع به من استيقن به حق اليقين في نفاذ أمرك. اللهم صل على محمد وآل محمد، واقبض على الصدق نفسي، واقطع من الدنيا حاجتي، واجعل فيما عندك رغبتي شوقا إلى لقائك، وهب لي صدق التوكل عليك)[٢]. وقال عليه السلام : (وليس الخوف من بكى وجرت دموعه

١- الصحيفة السجادية : الدعاء رقم (١) في التحميد لله عز وجل والثناء عليه.

٢- الصحيفة السجادية : الدعاء (٥٤).

مـا لـم يكن له ورع يحجره عـن معاصي الله، وإنما ذلك خـوف كاذب) [١].
ومـن دعـاء الإمام زين العابدين عليه السلام : (اللهـم قد أكدى الطلب وأعيت الحيل إلا عنـدك، وضاقت المذاهـب وامتنعت المطالب وعـسرت الرغائب وانقطعت الطـرق إلا إليـك، وتصرمـت الآمال وانقطـع الرجاء إلا منـك، وخابت الثقة وأخلـف الظـن إلا بك، اللهـم إني أجد سـبل المطالب إليك منهجـة، ومناهل الرجـاء إليـك مفتحة، وأعلـم أنك لمن دعـاك لموضع إجابة، وللصـارخ إليك لمرصـد إغاثـة، وأن القاصد لك لقريب المسـافة منك) [٢]..
وكان مـن دعـاء الإمـام السـجاد عليه السلام : (ولا تجعلنـي ممن يبطـره الرخاء، ويصرعـه البـلاء، فلا يدعوك إلا عند حلول نازلـة، ولا يذكرك إلا عند وقوع جائحـة، فيضرع لـك خده، وترفع بالمسـألة إليك يده)[٣].
وقد أوصل الإمام زين العابدين عليه السلام سلاح الدعاء إلى الذروة فبلغ على يديه من الشمول والإستيعاب كل الغايات، وأصبح في قاموس حياة الإمام عليه السلام مدرسة بتمام معنى الكلمة، كما كانت عبادته مدرسة متكاملة شكلاً ومضموناً.
ولـم يكن الدعاء عنده ارتجالاً يُلقى في مناسـبة ثم يُنسى ويؤتى بدعاء آخر في مناسـبة أخرى وهكذا... بل كان وثيقة تسـجل ويعتنى بتوثيقها ونقلها وصيانتهـا مـن التحريف وحمايتهـا من أن تقع في أيـدي الظالمين فيتلفوها أو يحرفوها، فهي سـلاح ماضٍ لم يسـتطع الظالمون تجريد المظلومين منه مهما بلغوا من القوة، فاسـتعمل الامام أسـلوب الأدعية وأكثر منها، فجاءت أدعيتـه تعـبر عن أحداث عصره ومليئة بمعاني الرسـالة وبناء الأمة وإعادة صياغتهـا، بعـد أن رأى أن يجـرد كلماتـه وآراءه من ثـوب العنف والثورة وإن كانت في واقعها أشـد من العنف والثورة، ولأنه عليه السلام رأى أن الآراء تفقد

١- عدة الداعي، ص١٧٦.
٢- بحار الأنوار، ج٩٥ ص٤٥٠ / ٣.
٣- بحار الأنوار، ج٩٤ ص١٣٠.

حرمتها وتصبح عرضة للحجر عليها إذا ألبس التعبير عنها ثوباً من الإيعاز والتحريـض المباشر، فجاءت كلماته شـكوى ودعاء، ولكنـه بث فيها كل ما أراد مـن ثـورة وتحريـض.. فالدعاء هو إعـادة أواصر العلاقة مـع الله عز وجل، لأن معنى ذلك فوراً هو قطع العلاقة مع الظلم والظالمين وهو أساس الإنطلاق في طريق الثورة والتغيير، و(قطع العلاقة مع الظلم) عنوان متعدد المصاديـق، ابتـداءً من العلاقة مـع الله والحب لمحمـد وآل محمد إلى حقوق الوالدين والجيران والإخوان إلى التمسـك بمكارم الأخلاق.

ولقـد زخر التراث الغزير، الذي تركـه لنا الإمام زين العابدين عليه السلام في أدعية الصحيفة السجادية، بثروة كبيرة من النماذج التي تسلط الضوء على مفاهيم الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان المسلم الشيعي على المستوى الأخلاقي، وتعيد بناء وصياغة مكارم الأخلاق وخطوطها التفصيلية عنده، فتسـاعده عـلى تهذيب نفسـه وصفائهـا، وتنمية نزعاتهـا الخيرة، وردعهـا عن غيها، وترويضهـا على طلـب الخير. وهذا دعـاؤه عليه السلام في مـكارم الأخلاق ومرضي الأفعـال الذي جـاء فيه : (اللهم صل على محمـد وآل محمد، ومتعني بهدى صالح لا أسـتبدل به، وطريقة حق لا أزيغ عنها، ونية رشـد لا أشـك فيها... اللهم لا تدع خصلة تعاب مني إلا أصلحتها، ولا عائبة أونب بها إلا حسنتها، ولا أكرومـة فيّ ناقصة إلا أتممتها) [1].

والإمـام عليه السلام وإن كان معارضـا للنظـام الأموي، ويجـد في فضحه وتزييف عمله والكشف عن سوء إدارته، ويحكم على القائمين به بالخروج عن الحق والعدل، وهو لا يزال ينظر إلى مصارع شهداء كربلاء بعيون تملؤها العبرة، لكنه يدعو بصوت تخنقه العبرة كذلك لأهل الثغور الإسلامية. لأنه هو الإمام، والمسؤول الحقيقي، والحفاظ على الإسلام وحدود دولة الإسلام، حتى ولو

١- الصحيفة السجادية، الدعاء رقم (٢٠).

كانت قيادتها المغتصبة منحرفة وضالة، من أهم واجباته، وهي مقدمة على غيرها من المصالح الخاصة، وهي في الرتبة الأولى من حيث الأهمية، وهذا يفسر موقف أمير المؤمنين من حروب الردة ومن تقديم إستشارته في الفتوحات، فقد قامت للإسلام دولة، حتى ولو كان قيامها مرتجلاً ومتسرعاً، وقادتها هم ما هم! فسوف تتراجع أهمية الموضوعات الأخرى، كقضية الاستيلاء على منصب الإمامة. وهكذا نفهم الدعاء لأهل الثغور للإمام زين العابدين عليه السلام بتلك القوة، وذلك الشمول، وبهذه اللهجة، وهذا الحنان، لحرس الحدود، وهم جزء من جيش الحكومة الفاسدة، ووحدة من وحدات كيان الدولة الظالمة! وهو موقف في غاية الدقة والحساسية والمسؤولية! ما يدل على أن الإمام في ذروة الدقة والقدرة على تحديد الحق وفرزه عن الباطل، ولم يتخل عن مركزه القيادي والسياسي، كإمام يرعى مصلحة الإسلام، والأمة الإسلامية، وهو أمر واجب على كل مسلم، وهذا هو الذي استهدفه الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه لأهل الثغور، فهو ينبه الناس إلى خطورة هذا الواجب ويهيج الأحاسيس تجاه الثغور وحمايتها. ومهما كان الحكام في الداخل، يعيثون فسادا، فإنهم لا محالة زائلون، ومهما جدوا في التقتيل والظلم والإجرام، والتخريب فإنهم لن يتمكنوا من القضاء على كل معالم هذا الدين، الذي يعد المسلمون الحفاظ عليه من واجباتهم، وباللهجة القوية القاطعة لكل عذر. وبالنبرة الحادة ذاتها التي يدعو بها لزوال حكم الظالمين، يدعو لاستتباب الأمن والعدل والصلاح على أرض الإسلام. قال الإمام في دعائه لأهل الثغور:

اللهم صل على محمد وآله، وحصن ثغور المسلمين بعزتك، وأيد حماتها بقوتك، وأسبغ عطاياهم من جدتك. اللهم صل على محمد وآله، وكثر عدتهم، واشحذ أسلحتهم، واحرس حوزتهم، وامنع حومتهم، وألف جمعهم، ودبر

أمرهم، وواتر بين ميرهم، وتوحد بكفاية مؤنهم، واعضدهم بالنصر، وأعنهم بالصبر، والطف لهم في المكر. اللهم صل على محمد وآله، وعرفهم ما يجهلون، وعلمهــم ما لا يعلمون، وبصرهم ما لا يبصرون. اللهم صل على محمد وآله، وأنســهم عند لقائهم العدو ذكر دنياهــم الخداعة الغرور، وامح عن قلوبهم خطرات المال الفتون، واجعل الجنة نصب أعينهم، ولوح منها لأبصارهم ما أعددت فيها من مســاكن الخلد، ومنازل الكرامة، والحور الحسان، والأنهار المطردة بأنواع الأشربة، والأشــجار المتدلية بصنوف الثمر، حتى لا يهم أحد منهــم بالإدبار، ولا يحدث نفســه عن قرنه بفرار. اللهــم افلل بذلك عدوهم، وأقلم عنهم أظفارهم، وفرق بينهم وبين أســلحتهم، واخلع وثائق أفئدتهم، وباعد بينهم وبين أزودتهم، وحيرهم في سبلهم، وضللهم عن وجههم، واقطع عنهــم المدد، وانقص منهم العدد، واملأ أفئدتهم الرعب، واقبض أيديهم عن البســط، واخزم ألســنتهم عن النطق، وشرد بهم من خلفهم، ونكل بهم من ورائهــم، واقطــع بخزيهم أطمــاع من بعدهــم. اللهم عقم أرحام نســائهم، وييبس أصلاب رجالهم، واقطع نسل دوابهم وأنعامهم، لا تأذن لسمائهم في قطر، ولا لأرضهم في نبات. اللهم وفق بذلك محال أهل الإسلام، وحصن به ديارهــم، وثمر به أموالهم، وفرغهم عن محاربتهم لعبادتك، وعن منابذتهم للخلــوة بــك، حتى لا يعبد في بقاع الأرض غيرك، ولا تعفر لأحد منهم جبهة دونــك. اللهــم اغز بــكل ناحية من المســلمين على من بإزائهــم من المشركين، وامددهــم بملائكــة من عندك مردفــين، حتى يكشــفوهم إلى منقطع التراب قتــلا في أرضــك وأسرا، أو يقــروا بأنــك أنت الله الذي لا إلــه إلا أنت، وحدك لا شريــك لك. اللهم واعمم بذلــك أعداءك في أقطار البلاد، من الهند، والروم، والترك، والخزر، والحبش، والنوبة، والزنج، والســقالبة، والديالمة، وســائر أمــم الشرك الذيــن تخفى أســماؤهم وصفاتهم، وقد أحصيتهــم، بمعرفتك،

وأشرفت عليهم بقدرتك. اللهم أشغل المشركين بالمشركين عن تناول أطراف المسلمين، وخذهم بالنقص عن تنقيصهم، وثبطهم بالفرقة عن الاحتشاد عليهم، اللهم أخل قلوبهم من الأمنة، وأبدانهم من القوة، وأذهل قلوبهم عن الاحتيال، وأوهن أركانهم عن منازلة الرجال، وجنبهم عن مقارعة الأبطال، وابعث عليهم جندا من ملائكتك ببأس من بأسك، كفعلك يوم بدر، تقطع به دابرهم، وتحصد به شوكتهم، وتفرق به عددهم. اللهم وامزج مياههم بالوباء، وأطعمتهم بالأدواء، وارم بلادهم بالخسوف، وألح عليها بالقذف، وأفرعها بالمحول، واجعل ميرهم في أحص أرضك، وأبعدها عنهم، وامنع حصونها منهم، أصبهم بالجوع المقيم والسقيم الأليم. اللهم وأيما غاز غزاهم من أهل ملتك، أو مجاهد جاهدهم من أتباع سنتك ليكون دينك الأعلى، وحزبك الأقوى، وحظك الأوفى، فلقه اليسر، وهيئ له الأمر، وتوله بالنجح، وتخير له الأصحاب، واستقو له الظهر، وأسبغ عليه في النفقة، ومتعه بالنشاط، وأطفئ عنه حرارة الشوق، وأجره من غم الوحشة، وأنسه ذكر الأهل والولد، وأثر له حسن النية، وتوله بالعافية، وأصحبه السلامة، وأعفه من الجبن، وألهمه الجرأة، وارزقه الشدة، وأيده بالنصرة، وعلمه السير والسنن، وسدده في الحكم، واعزل عنه الرياء، وخلصه من السمعة، واجعل فكره وذكره وظعنه وإقامته فيك ولك، فإذا صاف عدوك وعدوه فقللهم في عينه، وصغر شأنهم في قلبه، وأدل له منهم، ولا تدلهم منه. فإن ختمت له بالسعادة، وقضيت له بالشهادة، فبعد أن يجتاح عدوك بالقتل، وبعد أن يجهد بهم الأسر، وبعد أن تأمن أطراف المسلمين، وبعد أن يولي عدوك مدبرين. اللهم وأيما مسلم خلف غازيا، أو مرابطا، في داره، أو تعهد خالفيه في غيبته، أو أعانه بطائفة من ماله أو أمده بعتاد، أو شحذه على جهاد، أو أتبعه في وجهه دعوة، أو رعى له من ورائه حرمة، فأجر له مثل

أجـره، وزنا بوزن، ومثلا بمثل، وعوضه من فعله عوضا حاضرا يتعجل به نفع ما قدم، وسرور ما أتى به، إلى أن ينتهي به الوقت إلى ما أجريت له من فضلك، وأعددت له من كرامتك. اللهم وأيما مسلم أهمه أمر الإسلام، وأحزنه تحـزب أهـل الشرك عليهم، فنوى غزوة، أو هـم بجهاد، فقعد به ضعف، أو أبطـأت بـه فاقة، أو أخره عنه حادث، أو عرض له دون إرادته مانع، فاكتب اسـمه في العابديـن، وأوجب له ثـواب المجاهدين، واجعله في نظام الشـهداء والصالحين. اللهم صل على محمد عبدك ورسـولك، وآل محمد، صلاة عالية عـلى الصلـوات، مشرفة فـوق التحيات، صـلاة لا ينتهي أمدهـا، ولا ينقطع عددهـا، كأتم ما مضى من صلواتك على أحد من أوليائك. إنك المنان، الحميد، المبـدي، المعيد، الفعال لما تريد[١].

إن الصحيفـة السـجادية تعـبّر عـن عمـل إجتماعـي عظيم كانـت ضرورة المرحلـة تفرضـه على الإمـام إضافة إلى كونهـا تراثاً ربانيّاً فريـداً يظلّ على مدى الدهور مصدر عطاء ومشـعل هداية ومدرسـة أخلاق وتهذيب وتظل الإنسـانية بحاجة إلى هذا التراث المحمدي العلـوي وتزداد حاجة كلّما ازداد الشـيطان إغراءً والدنيا فتنة[٢].

إن أول ما تمثّله أدعية الصحيفة هو التجرّد التام من عالم المادّة، والانقطاع الكامـل إلى اللـه تعـالى والاعتصـام به والذي هـو أثمن مـا في الحياة. وهي تكشـف عن كمال معرفة الإمام زيـن العابدين عليه السلام بالله تعالى وعميق إيمانه بـه. وتمتـاز عـن أدعيـة باقي المعصومـين بما فيهـا من أفانـين التضرّعات وإظهار التذلّل والمسـكنة لله تعالى، وبما فتحته للإنسـان المسـلم من أبواب الأمـل والرجـاء برحمة الله الواسـعة. كمـا أنها فتحت للمناظـرات البديعة مـع الله تعـالى باباً مهمّاً يتضمّن أنواع الحجج البالغة لاسـتجلاب عفو الله

١- الصحيفة السجادية، الدعاء السابع والعشرون.

٢- مقدمة الصحيفة السجادية، الشهيد الصدر.

وغفرانــه مثـل قولــه عليه السلام: « إلهي إن كنت لا تغفــر إلا لأوليائك وأهل طاعتك فإلى من يفزع المذنبون؟! وإن كنت لا تُكرِم إلا أهل الوفاء لك فبمن يستغيث المسيئون؟! « وهكذا قوله عليه السلام: « إلهي إني امرؤ حقير وخطري يسير وليس عذابي ممّا يزيــد في ملكك مثقال ذرّة.. «

وقد تضمّنت الصحيفة في نفس النصوص برامج أخلاقية روحية وســلوكية مهمّة لتربية الإنسان ورسمت له أصول الفضائل النفسية والكمالات المعنويّة، إضافــة إلى أنهــا احتــوت على حقائــق علميّة لم تكن معروفــة في عصره عليه السلام. وتضمّنت بركاناً ثائراً على الفســاد الفردي والاجتماعي والســياسي في عصر أشــاعت فيــه السياســة الأموية الفســاد الأخلاقــي والخلاعــة والمجون بين المسلمين، فكانت الصحيفة خير وسيلة للإصلاح في أحلك الظروف التي اتبع فيها الأمويون سياســة القمع والإرهاب.

إن ظــروف الإمام زين العابدين عليه السلام وموقعــه الاجتماعي، وطغيان الحكام وعبثهــم، يثبت أن ما قام به الإمام مــن خلال الدعاء هو تحد صارخ للدولة ومخططاتها التي اســتهدفت كيان المجتمع الإسلامي لتزعزعه.

وقــد أثــرى الإمــام زيــن العابديــن عليه السلام الأدب العربي بمــادة غزيرة من نصوص الأدعية التي تعد من أروع أمثلة الأدب العربي في النثر[1]، فهي بعد هذا منجم من مناجم البلاغة والفصاحة وينبوع ثري للأدب العربي الهادف والبلاغة الفريدة البنّاءة، باعتراف مشاهير العلماء والبلغاء، فهي لا تفترق عن نهج البلاغة في هذا المضمار، لأنها من تأليف الإمام نفســه، وإملائه، وكان لها وقع كبير في نفوس العرب، وتستحق أن تكون مرجعاً في النحو واللغة والبلاغة لأنها على الأقل تعود إلى القرن الأول الهجري، عــدا عــن أن مؤلفها إمام من أئمة أهل البيــت، الذين كانوا يدركون جيداً

١- مجلة تراثنا، من أدب الدعاء في الإسلام، العدد١٤، السنة الرابعة ١٤٠٩ ص٣٠.

قيمة الأدب في عملية التأثير في الناس، وتوجيه العامة ودحض الباطل وإحقاق الحق! فكانوا يهتمون بذلك، سواء في تطعيم ما يصدرونه، بألوان من البلاغة، نثرا وشعرا، كما كانوا يحثون الشعراء على النظم في القضايا الحقة، ويروجونها بين الناس، حتى برز شعراء من الشيعة، نظموا في قضايا الحق والدعوة إلى الإسلام من خلال مذهب أهل البيت، في وقت هوى فيه الأدب والشعر في الرذيلة والمجون في عصر بني أمية وبني العباس، فانعكست مدرسة أهل البيت أدباً إسلامياً هادفاً على المستوى الديني والسياسي.

وفتح العلماء للصحيفة السجادية مجالا خاصا في التراث الإسلامي، وأغدق عليها المبدعون بأجمل ما عندهم من مهارات في الخط والزخرفة، وأولاها الداعون عناية فائقة في الالتزام والأداء، والعلماء في الشرح والرواية.

المستجاب الدعاء:

وهذا هو الفصل الأخير من مدرسة الدعاء عند الإمام زين العابدين عليه السلام وهي النتيجة المباشرة لحياة الزهد والعبادة، والإخلاص لله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإغاثة الملهوف، وترك كل شيء ورد في الشريعة أنه يحجب الدعاء، وفعل كل شيء ورد في الشريعة أن به يستجاب الدعاء، فاقتحم على الظالمين أبراجهم، وقصورهم، وملأ أثوابهم خيفة ورهبة، كما غشى عيونهم وأفكارهم. فلما طلب مسلم بن عقبة الإمام، فأكرمه، كان قبل ذلك مغتاظا عليه، يبرأ منه ومن آبائه، فلما رآه ارتعب، وقام له، وأقعده إلى جانبه ! فقيل له: رأيناك تسب هذا الغلام وسلفه، فلما أتي به إليك رفعت منزلته! فقال مسلم: ما كان ذلك لرأي مني، لقد ملئ قلبي منه رعبا[1].

١- مروج الذهب، ج٣ ص٨٠.

ولما جلب عبد الملك بن مروان الإمام عليه السلام مقيدا مغلولا من المدينة إلى الشام، دخل عليه الإمام عليه السلام بصورة مفاجئة وقال له: ما أنا وأنت ؟

قال عبد الملك: أقم عندي.

فقال الإمام: لا أحب، ثم خرج.

قال عبد الملك: فوالله، لقد امتلأ ثوبي منه خيفة[١].

لقد كان الغيب جاهزاً للتدخل وحماية الإمام عليه السلام عندما يستنفذ الإمام عليه السلام فرصه في التملص من قبضة الظالم الذي يريد قتله والله يأبى ذلك! فيتدخل أمر الله ولكن بدعاء من الإمام عليه السلام.

٢- البكاء على سيّد الشهداء عليه السلام:

أسس الإمام زين العابدين ومنذ الحادي عشر من المحرّم المدرسة الكبرى للمقاومة السياسية والتي سوف تتناقلها الأجيال بعده عبر التاريخ إلى يومنا هذا، فتسقط بها التيجان وتتزلزل العروش، ألا وهي إحياء ذكرى عاشوراء، فراح الإمام يؤجج نيران الغضب والنقمة في الصدور، وورث أهل البيت بعده إدارة هذه المدرسة وتزويدها بالطاقة المادية والمعنوية حتى تستمر، وقد كان لها أبلغ الأثر في دك ملك بني أمية وفي نشر روح الإسلام الثوري والمناهض للظلم. والبكاء بذاته مشروع مطلقاً، فمرت هذه المدرسة من بين سيوف الإرهاب والقمع وثبتت نفسها ثم أخذت تنظم الجماهير في صفوفها وتنخر بدن الظالمين.

والبكاء واحد من الأساليب التي جعلها الإمام زين العابدين عليه السلام وسيلة لإحياء ذكرى كربلاء، إلى جانب أساليب أخرى، كالحض على زيارة الحسين عليه السلام، كل يوم، أو كل جمعة، أوكل شهر، والتحذير من أن من لم يزره مستخف بحق رسول الله صلى الله عليه وآله[٢]. وكالإحتفاظ بتراب قبر الحسين عليه السلام

١- تاريخ مدينة دمشق، الحديث٤٢. مختصر تاريخ دمشق، ج١٧ ص٤، ٢٣٥.

٢- فضل زيارة الحسين عليه السلام ص٤٣، ح١٧.

للسجود عليه[١]. والتختم بخاتم أبيه الحسين عليه السلام[٢]. بل كان يبقي الذاكرة مستيقظة دائماً فينقل فصولاً من وقعة الطف، فقد كان يظهر الميل إلى ولد عقيل، فقيل له ما بالك تميل إلى بني عمك هؤلاء دون آل جعفر؟ فقال: إني أذكر يومهم مع أبي عبد الله الحسين عليه السلام فأرق لهم[٣].

وقد صاحبت هذه الظاهرة الإمام زين العابدين عليه السلام مدة إمامته، بحيث لا يمر يوم أو ساعة لا يرى فيها باكياً، ولا ريب أن بكاءه كان وسيلة لإثارة القضية، أمام الآخرين. والحكام الظالمون، يحاولون إسكات أعدائهم بالقتل، أو بالسجن، ولكنهم، رغم جبروتهم، لا يستطيعون منع العواطف من أن تظهر في دموع العيون، فالبكاء من أبسط الحقوق الطبيعية للناس. وقد وظّف الإمام زين العابدين عليه السلام هذا الحق في صالح القضية التي من أجلها راح الشهداء صرعى على أرض معركة كربلاء. وبينما يعد الطغاة البكاء دليلا على العجز والضعف، فيكفون اليد عن الباكي، لأن بكاءه علامة على اندحاره واستسلامه، نجد عامة الناس، يهتمون بالبكاء لأنه يثير عطفهم، ويجعلهم يتجاوبون إلى حد ما مع الضعيف المغلوب.

والبكاء على شهداء كربلاء، ظاهرة فريدة في التاريخ السياسي، فقد بدأت قبل كربلا بخمسين عاماً[٤]، وما زالت حتى يومنا هذا..أما الإمام زين

١- بحار الأنوار، ج٤٦ ص٧٩، باب٥، الحديث ٧٥. عوالم العلوم ص١٢٩. وباختصار في مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص١٦٢، عن مصباح المتهجد للشيخ الطوسي.

٢- الكافي، ج٦ ص٤٧٣. مسند الرضا عليه السلام، ج٢ ص٣٦٥. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٥.

٣- بحار الأنوار، ج٤٦ ص١٠٨، ١١٠. حلية الأولياء، ج٣ ص١٣٨. مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٣٠٣. الخصال ص١٣١. كامل الزيارات ص١٠٧.

٤- تاريخ مدينة دمشق، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام ص١٦٥ ص ١٨٥ ص٢٣٥. دلائل النبوة، ج٦ ص٤٦٨. مسند أحمد، ج٣ ص٢٤٢، ٢٦٥. الأمالي، الصدوق، ص١٠١. ص١٢٦ ص٤٧٨، ٤٧٩.. دلائل النبوة ص٧٠٩ رقم٤٩٢. وقعة صفين ص١٤١. المصنف، ابن أبي شيبة، ج١٥ ص٩٨، رقم ١٩١٢١٤. كنز العمال، ج٧ ص١٠٥ و ١١٠.

العابدين عليه السلام فقد اتخذ من البكاء عادة، بل اعتمدها عبادة، فقد كانت وسيلة هامة لأداء المهمة الإلهية التي حمل الإمام عليه السلام أعباءها، فبكى عشرين سنة حتى خيف على عينيه. وكان إذا أخذ إناء يشرب ماء بكى حتى يملأها دمعا، فقيل له في ذلك فقال: وكيف لا أبكي؟ وقد منع أبي من الماء الذي كان مطلقا للسباع والوحوش. وقيل له: إنك لتبكي دهرك فلو قتلت نفسك لما زدت على هذا ؟ فقال: نفسي قتلتها وعليها أبكي. وما وضع بين يديه طعام إلا بكى، حتى قال له مولى له: جعلت فداك يا ابن رسول الله إني أخاف عليك أن تكون من الهالكين قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلا خنقتني لذلك عبرة.

وأشرف مولى له وهو في سقيفة له ساجد يبكي، فقال له: أما آن لحزنك أن ينقضي؟ فرفع الإمام رأسه إليه فقال له: ويلك أو ثكلتك أمك، والله لقد شكا يعقوب النبي عليه السلام إلى ربه في أقل مما رأيت حين قال يا أسفى على يوسف، وإنه كان له اثنا عشر ابنا فغيب الله إبناً واحدا منهم، فابيضت عيناه من كثرة بكائه عليه، واحدودب ظهره من الغم، وكان ابنه حيا في الدنيا، وأنا نظرت إلى أبي وأخي وعمي وأربعة عشر رجلا[1] من أهل بيتي يذبحون في غداة واحدة ! فترون حزنهم يذهب من قلبي أبدا؟[2].

لقد بكى حتى عدّه الإمام جعفر الصادق عليه السلام خامس البكائين في تاريخ النبوات، فقال: البكاؤن خمسة: آدم ويعقوب، ويوسف، وفاطمة بنت محمد،

١- تراوح عدد المقتولين من أولاد علي وفاطمة عليهما السلام في كربلاء بين ستة عشر رجلا، كما في مجمع الزوائد، الهيثمي، ج٩ ص ١٩٨. والمعجم الكبير، الطبراني، ج٣ ص ١١٨. وسبعة عشر رجلاً كما في تاريخ خليفة بن خياط ص ١٧٩. وثمانية عشر رجلاً كما في وسائل الشيعة، أبواب المزار ج ١٠ ص ٣٩٣ عن عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١ ص٢٩٩. نزهة الناظر وتنبيه الخاطر ص٤٥.

٢- كامل الزيارات ص ١٠٧. الأمالي، الصدوق، المجلس ٩ ص٩١. تيسير المطالب ص ١١٨، تاريخ مدينة دمشق، الحديث٧٨. مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور، ج١٧ ص٢٣٩، حلية الأولياء، ج٣ ص١٣٨.

وعلي بن الحسين عليه السلام فأما آدم: فبكى على الجنة حتى صار في خديه أمثال الأودية، وأما يعقوب: فبكى على يوسف حتى ذهب بصره، وحتى قيل له: « تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين»[١]، وأما يوسف: فبكى على يعقوب حتى تأذى به أهل السجن فقالوا: إما أن تبكي بالنهار وتسكت بالليل، وإما أن تبكي بالليل وتسكت بالنهار، فصالحهم على واحد منهما، وأما فاطمة بنت محمد رضي الله عنها فبكت على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تأذى بها أهل المدينة، وقالوا لها: قد آذيتنا بكثرة بكائك، فكانت تخرج إلى مقابر الشهداء فتبكي حتى تقضي حاجتها ثم تنصرف[٢].

ثم جعل من كربلاء مدعاة لكل الناس إلى إحيائها، وتزويدها بوقود الدموع، فليست خاصة بأهل البيت، بل هي مصاب كل الناس، فهو يقول: وهذه الرزية التي لا مثلها رزية. أيها الناس، فأي رجالات منكم يسرون بعد قتله ؟ أم أي فؤاد لا يحزن من أجله ؟ أم أي عين منكم تحبس دمعها ؟[٣]. وكان عليه السلام يحث المؤمنين على البكاء ويقول: أيما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين بن علي (عليهما السلام) دمعة حتى تسيل على خده بوأه الله بها في الجنة غرفا يسكنها أحقابا ، وأيما مؤمن دمعت عيناه حتى تسيل على خده فينا لأذى مسنا من عدونا في الدنيا بوأه الله بها في الجنة مبوأ صدق ، وأيما مؤمن مسه أذى فينا فدمعت عيناه حتى تسيل على خده من مضاضة ما أوذي فينا صرف الله عن وجهه الأذى وآمنه يوم القيامة من سخطه والنار[٤].

إن إكثار الإمام زين العابدين عليه السلام من البكاء على أبيه الحسين سيّد الشهداء عليه السلام طيلة حياته لم يكن لمحض الرقّة والعاطفة، ولا من ضعف،

١- القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية٨٥.

٢- الخصال، الصدوق، ص٢٧٢. الأمالي، الصدوق، المجلس٢٩ ص١٢١.

٣- كامل الزيارات ص ١٠٠. مقتل الحسين عليه السلام، السيد محسن الأمين العاملي ص٢١٣.

٤كامل الزيارات، ص ٢٠١ – ٢٠٩. ثواب الأعمال، الصدوق، ص٨٣.

ولا استولى هول الفجيعة عليه، كما لم يكن حاقداً على بني أمية، أو هدفه الانتقام، من مجرمي كربلاء، فقد كان منه نحو عوائل بعض الأمويين عطف ورحمة، عندما التجأ مروان بن الحكم بأهله وزوجته عائشة ابنة عثمان إلى بيت الإمام زين العابدين عليه السلام، فحماهم مدة وجود الجيش الأموي في المدينة[١]. وبذلك كسب ود أعدائه، حتى قالوا فيه إنه خير لا شر فيه[٢] وإنه مشغول بنفسه[٣].

كما دل على صلابته صبره غير العادي على المصائب، فقد سمع واعية في بيته، وعنده جماعة، فنهض إلى منزله، ثم رجع إلى مجلسه، فقيل له: أمن حدث كانت الواعية ؟ قال: نعم.

فعزوه، وتعجبوا من صبره.

فقال: إنا أهل بيت نطيع الله في ما نحب، ونحمده في ما نكره[٤].

ويدعو شيعته إلى أن يكونوا قدوة مثله ونموذجاً أعلى في هذا الخلق، فيقول لهم: عليكم بأداء الأمانة، فوالذي بعث محمدا بالحق نبيا، لو أن قاتل أبي الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ائتمنني على السيف الذي قتله به، لأديته إليه[٥].

وهكذا نجح في امتحان إثبات المثل الأعلى، فهو الذي يعفو عمن ظلمه وهو الصبور في الشدائد، وهو الحريص على أداء الأمانة ولو كانت في موضع مستحيل في نظر العرف! وهو عندما يبكي لا يبكي من عاطفة وإحساس شخصي بالفراق، فلا مكان للأبوة والأخوة ولا لأي صورة من صور المادة في دوافعه للبكاء، فقد نظر يوماً إلى سائل يبكي! فقال عليه السلام: لو أن الدنيا كانت في

١- أنساب الأشراف، ج٤ ص٣٢٣. تاريخ الأمم والملوك، ج٥ ص٤٩٣. مروج الذهب، ج٢ ص ١٤. كشف الغمة. ج٢ ص١٠٧.

٢- قاله مسرف بن عقبة لما استباح المدينة.

٣- قاله الزهري لعبد الملك.

٤- تاريخ مدينة دمشق ومختصره لابن منظور، ج١ ص ٢٤٠.

٥- الأمالي، الصدوق، ص١٢٨، المجلس٤٣.

كف هذا ثم سقطت منه ما كان ينبغي له أن يبكي[١]. بل هو يبكي الإمام الذي قتل من أجل مبادئ الإسلام، وهذا يعني أنه يريد الاستمرار على تلك المبادئ التي سقاها الإمام الشهيد بدمه في كربلاء، فبكاؤه بكاء نموذجي هو المثل الأعلى في البكاء! إذن فهو يليق بمنصب الإمامة والرئاسة، ولجه من حيث لا يستطيع أن يلجه واحد غيره! ما أفاده حرية نسبية استفاد منها في مشروع نقض البنيان الأموي. ولما رآه الناس يبكي ليل نهار، لا يفتأ يذكر الحسين الشهيد عليه السلام، فكان ذلك سببا لاستمرار الذكرى، وبقاء الأهداف في الضمائر، فإن بكاءه، ليس إلا لأجل ما هو أعظم من الدنيا وما فيها، إنه بكاء مقدس! كما عرّف الإمام زين العابدين عليه السلام ببكائه، الأجيال المتعاقبة ظلامة أهل البيت عليهم السلام. وما اتصف به الأمويّون من القساوة والفظاعة وخروجهم عن حريم الدين والشريعة وتنمّرهم تجاه العدل والمروءة والإنسانية. وحيث لم تسعه المجاهرة بموبقات من اغتصب الخلافة الإلهية وجرّ إلى أهل البيت الويلات ونكّل بهم، اتخذ البكاء طريقاً لتنبيه الناس إلى تلكم الجرائم، وهذا منه عليه السلام أكبر جهاد ناجع في تحطيم عرش من أهلك الحرث والنسل ونشر العبث والفساد في البلاد، فكان بكاؤه متمماً للنهضة المقدّسة.. وكان ينفّذ خطة استراتيجية من أجل تحقيق الهدف الذي استشهد من أجله الإمام الحسين عليه السلام.

٤- مقاومة العصبية والعنصرية:

إن من أخطر نتائج استيلاء رجال يحملون في قلوبهم العصبية للقبيلة على الحكم وعلى قيادة الدولة الإسلامية، هو الإبقاء على العصبية والعنصرية الجاهلية التي كان محوها من العقل البشري أحد الأهداف السامية للإسلام[٢]، فرجحها الذين تسنموا قيادة الدولة على روح العدالة والمساواة التي أرادها الإسلام، ثم اعتمدها الأمويون، بعد إحكام قبضتهم على الحكم،

١- كشف الغمة، ج٢ ص١٠٦.

٢- -القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية ٩٢.

سياسة رسمية هدفها تفتيت المجتمع الإسلامي، من باب فرّق تسد! خلافاً لما نهى عنه الله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)[١]. فأخذت النزارية تفخر على اليمنية، واليمنية تفخر على النزارية، وثارت العصبية في البدو والحضر[٢]. وبعد ما بذله الإسلام في محو العصبية الجاهلية، عادت وكأن الإسلام لم يكن، واشتعل أوار العصبية القومية بسبب انتصار العرب في الفتوحات، وانعكس ذلك على الحكم والإدارة والمجتمع والطقوس الدينية، فأمّرَ العربي، وقدّم على غير العربي، في مناصب الديوان، والقضاء. وتجاوزوا حدود الله في التزامهم بالقومية العربية الجاهلية، وأمعنوا في الاستهتار بالمحرمات، والظلم، والقتل، حتى تجاوزوا أعرافا عربية سائدة بين العرب قبل الإسلام، فخانوا العهد، وأخفروا الذمة، وهتكوا العرض. فكان معاوية يعتبر الناس العرب، ويعتبر الموالي شبه الناس[٣]! وكان العرب لا يزوجون الموالي[٤]، حتى أن حاكم البصرة، بلال بن أبي بردة، ضرب شخصا من الموالي، لأنه تزوج امرأة عربية[٥]. وأسوأ من مواقف السلطان الحاكم في هذا المجال كان موقف علماء البلاط! الذين اتبعوا سياسة أسيادهم، فقد اعترف الزهري بأنه لا يروي الحديث عن الموالي[٦]. فلم يكن الحكم الأموي حكما إسلاميا يساوى فيه بين الناس، ويكافأ فيه المحسن عربيا كان أو مولى، ويعاقب من أجرم عربيا كان أم مولى، ولم تكن الخدمة للرعية على السواء،

١- القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

٢- مروج الذهب، ج٢ ص١٩٧.

٣- تاريخ مدينة دمشق، مختصر ابن منظور، ج١٧ ص٢٨٤.

٤- وسائل الشيعة، كتاب النكاح، الباب ٢٦، الحديث ٤، تسلسل ٢٥٠٦٠. العقد الفريد، ج٣ ص٣٦٤، ٣٦٠.

٥- الطبقات الكبرى، ج٧ ص٢٦. تهذيب الكمال، ج٤ ص٢٧٢.

٦- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ص٤٠٩، رقم٤٣١. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج١ ص١٩٢.

وإنما كان الحكم عربيا، والحكام فيه خدمة للعرب على حساب غيرهم، وكانت تسود العرب فيه النزعة الجاهلية، لا النزعة الإسلامية[١].

وكان من أهم مباديء الإسلام المحمدي الأصيل الذي تبناه أهل البيت وشيعتهم روح العدالة والمساواة بين البشر، فكان على الإمام زين العابدين عليه السلام جعل مقاومته للعصبية القبلية والقومية شعاراً للتشيع، فاستفاد من موقعه الديني ومن نسبه، وتبنى سياسة مخالفة لبني أمية، وبينما كان الأمويون يقيمون ملكهم على العصبية العربية عامة، كان الإمام عليه السلام يشيع روح المساواة في المجتمع، ما جعل مذهب أهل البيت يثبت ويترسخ في المجتمع الإسلامي الذي أراد له الأمويون أن يقوم على العصبية.

وكانت خطة الإمام زين العابدين عليه السلام قائمة على سكتين: تقديم أطروحة الإسلام النظرية في هذه المسألة، والممارسة العملية، فكان يقول: لا يفخر أحد على أحد، فإنكم عبيد، والمولى واحد[٢]. ولا حسب لقرشي ولا عربي إلا بالتواضع، ولا كرم إلا بالتقوى، ولا عمل إلا بالنية، ولا عبادة إلا بالتفقه، ألا وإن أبغض الناس إلى الله من يقتدي بسنة إمام، ولا يقتدي بأعماله[٣].

والعصبية التي يأثم صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم[٤].

كلمات من نور. في عصر من عصور الظلام، وفي أمة كان ينبغي أن لا تخرج إلى العالم إلاّ وهي حاملة لشعاع هذا الفكر النير، فتفتح أبواب الإنسانية بنور الإسلام المحمدي الأصيل، ولكن هيهات هيهات! فقد خرجت أمة العرب وقد

١- ضحى الإسلام، ج١ ص١٨٧.

٢- التذكرة الحمدونية في التاريخ والأدب والنوادر والاشعار، ابن حمدون، ج٣ ص٣٩٠.

٣- تحف العقول ص٢٨.

٤- الكافي، ج٢ ص٣٠٨.

بقيت جاهليتها كما كانت وبدلاً من أن تحمل الدواء للعصبية الجاهلية عند شعوب الأرض إذا بجاهليتها تفوق جاهلياتهم خسة ولؤماً وعنصرية.

وكان الإمام عليه السلام يجالس مولى لآل عمر بن الخطاب، فقال له رجل من قريش: أنت سيد الناس، وأفضلهم، تذهب إلى هذا العبد وتجلس معه؟! فقال عليه السلام: أءتي من أنتفع بمجالسته في ديني[١]، إنما يجلس الرجل حيث ينتفع[٢].

والإمام لا يحتاج إلى أحد، فالنفع كله عنده، ولكن نفس مجالسة هذا المولى، تحقق غرضاً سياسياً ثورياً يريده الإمام عليه السلام، وهو أن علو النسب لا مكان له في دين الإسلام، وأن البشر متساوون أمام الله في الحقوق والواجبات، مخالفاً بذلك ما ذهب إليه بنو أمية من التمييز العنصري والقبلي. وحينما قال له طاوس اليماني، وقد رآه يجزع ويناجي ربه بلهفة: يا بن رسول الله، ما هذا الجزع والفزع، وأبوك الحسين بن علي، وأمك فاطمة الزهراء، وجدك رسول الله صلى الله عليه وآله؟!

فالتفت الإمام عليه السلام إليه وقال: هيهات، هيهات، يا طاوس، دع عني حديث أبي، وأمي، وجدي، خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن، ولو كان عبدا حبشيا، وخلق النار لمن عصاه، ولو كان سيداً قرشيا، أما سمعت قوله تعالى: (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون)[٣] والله، لا ينفعك، غداً، إلا تقدمة تقدمها من عمل صالح[٤].

وأعتق الإمام زين العابدين عليه السلام مملوكة له، ثم تزوجها[٥]، وكان لعبد الملك بن مروان، الخليفة الأموي، عين بالمدينة يكتب إليه بأخبار ما يحدث فيها،

١- سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٨٨. حلية الأولياء، ج٣ ص١٣٧. صفوة الصفوة، ج٢ ص٩٨.

٢- تاريخ مدينة دمشق، الحديث ٣٠. مختصر ابن منظور، ج١٧ ص٢٣٣. الطبقات الكبرى، ج٥ ص٢١٦.

٣- القرآن الكريم، سورة المؤمنون، الآية ١٠١.

٤- مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٢٩١. كشف الغمة، ج٤ ص١٥١. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٨٢. مجالس ثعلب، ج٢ ص٤٦٢.

٥- بحار الأنوار، ج٤٦ ص٣٥٢.

فكتب إليه أن علي بن الحسين عليه السلام أعتق جارية له ثم تزوجها، فكتب إلى الإمام يعاتبه على ذلك، ويقول: (إنك علمت أن في أكفائك من قريش من تتمجد به في الصهر، وتستنجبه في الولد، فلا لنفسك نظرت، ولا على ولدك أبقيت).

فجمع عبد الملك بين الجاهلية وعنصريتها وغرورها، ومحاولة التعريض بالإمام عليه السلام بأنه ليس حكيماً، لأنه تخلى عن خلق وعادات قرشية، وأن مقتضى الحكمة أن يتمجد بمصاهرة واحد من قريش، وأن ولده لا ينجب إلا بمثل ذلك! وهذا إرث من تركة الجاهلية التي ظهر أنها ما زالت تعشش في قلب عبد الملك بعد مضي سبعين عاماً على شروق شمس الإسلام على قلوب البشر!

فأجابه الإمام زين العابدين عليه السلام بكتاب، جاء فيه: أما بعد: فقد بلغني كتابك، تعنفني فيه بتزويجي مولاتي، وتزعم أنه كان في قريش من أتمجد به في الصهر، وأستنجبه في الولد. وإنه ليس فوق رسول الله مرتقى في مجد، ولا مستزاد في كرم. وكانت هذه الجارية ملك يميني، خرجت مني إرادة لله عز وجل بأمر ألتمس فيه ثوابه، ثم ارتجعتها على سنة رسول الله صلى الله عليه وآله. ومن كان زكيا في دين الله تعالى فليس يخل به شي من أمره. وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة، وتمم به النقيصة، وأذهب به اللؤم، فلا لؤم على امرئ مسلم، وإنما اللؤم لؤم الجاهلية. والسلام[1].

وضع الإمام عليه السلام النقاط على الحروف، فكان كتابه فرصة لكي يسمع بنو أمية كلاماً يوضح حقيقتهم، وأن ما عندهم من العصبية هو جاهلية وهو مخالف للإسلام ولسنة الرسول صلى الله عليه وآله، ورد الحجر من حيث أتى، فجعل العتاب مردودا على عبد الملك، والنقص والعار واردا على من يحمل في قلبه مرض الجاهلية التي هي ليست إلا لؤماً!.

١- الكافي، الفروع، ج٥ ص٣٤٤.

فلمـا قرأ عبـد الملك بن مروان الكتاب قال لمن عنـده: أخبروني عن رجل إذا أتـى ما يضع الناس لم يـزده إلا شرفا ؟ قالوا تملقاً له: ذاك أمير المؤمنين!

قال: لا والله ما هو ذاك ؟

قالوا: ما نعرف إلا أمير المؤمنين!

قال: فلا والله ما هو بأمير المؤمنين ولكنه علي بن الحسين[١]

ثم رمى بالكتاب إلى ابنه سليمان فقرأه، فقال: يا أمير المؤمنين لشد ما فخر عليك علي بن الحسين !

فقال: يا بني لا تقل ذلك فإنها ألسن بني هاشم التي تفلق الصخر، وتغرف من بحر، إن علي بن الحسين عليه السلام يا بني يرتفع من حيث يتضع الناس[٢].

إعداد الموالي من قبل أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم:

كانـت مسـألة الرق والعبيـد حلبة المبارزة بين الإسـلام والعصبيـة القبلية والعنصرية القومية، لكن من يحرز قصب السـبق فيها هو من كان في ذاته نظيفـاً مـن مرض العصبيـة والعنصرية، ولذلـك كانت هذه القضية سـيفاً ماضيـاً في يـد أهل البيت عـلى أعدائهم الذين كانوا لا يحسـنون اسـتعمالها لطبائعهم القبلية والعنصرية! فعندما كان العبيد يعتقون وينالون حريتهم، ويصبحون موالي، يرثون من أعتقهم ويورّثهم، وقد استوطنوا ديار المسلمين وبنـوا بيوتاً لهم واسسـوا أسراً وعائلات، بل أصبـح بعضهم من أهل العلم والدين والتقوى، كان الأمويون ينتهجون سياسة التمييز العنصري حيالهم، إذ كانـوا يعتبرونهـم مـا زالوا عبيـداً أو بمنزلـة العبيد أو شـبه الناس[٣].. بينمـا اعتنـى بهم أئمة أهـل البيت اعتناءً تامـاً، حتى أصبـح العتق ظاهرة

١- بحار الأنوار، ج٤٦ ص ١٠٥. الكافي، ج٥ ص٣٤٥.

٢- بحـار الأنـوار، ج٤٦ ص ١٦٤، ١٦٥. الـكافي، ج٥ ص٣٤٤. مناقب آل أبـي طالب، ج٣ ص٣٠٠. العقد الفريد، ج٦ ص١٢٨.

٣- مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور، ج١٧ ص٢٨٤.

فريدة تميزوا بها، فقد أعتق علي بن أبي طالب عليه السلام ألف أهل بيت بما مجلت يـداه([1]) وعـرق جبينه، فتربّى كثير من المـوالى في بيوت أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، فكان ذلك مما ساعد على نشوء الميول والاتجاهات الشيعيّة بينهم، وكان إعـداد الموالي وتربيتهم من الأمور الشـائعة إبّان القرن الأول والثاني الهجريـين. فهم، بمـا أوتوا من مواهب، وما كانوا عليه من اسـتعداد لطلب العلـم، وما شـعروا به من ضعف أمـام العرب كانوا يطمحـون إلى تلافيه، كانـوا مجدّين في عملهم، وطفقوا يعملون في حقل الحديث حتّى اسـتطاعوا أن يصبحوا في عداد الفقهاء والمحدّثين في الأمصار الإسلامية الرئيسة خلال فترة قصيرة. وكان هؤلاء قد تربّوا في وسط أسر عربية مختلفة، فتسرّ إليهم تلـك الأسر ما كانت تحمله من توجّهات دينية وسياسـية، ولمّا كانت الكوفة ذات ميول شـيعيّة أقوى من غيرها، فكذلك كان مواليها.

وأخذ أهل البيت عليهم السلام هذه المسألة بعين الاعتبار فخططوا لإعداد الموالي وتربيتهم. وتزوج نفس الأئمة بغير العربيات بكثرة، حتى إن عددا منهم قد ولد من هؤلاء النسـاء بالـذات، وكان الأئمة يخاطبون الموالي بلغاتهم، مما كسـب ودهم. بينما كان الحكام يمارسـون سياسـة التمييز العنصري، وتفضيل العرب على كل من سواهم بأبشع الصور، وأرذلها. وقد أدت سياسة أهل البيت إلى أن يكون للموالي دور عظيم في نشر الإسلام والتشيع في الأمم الأخرى بصورة عامة.

إلا أن تحريـر الرقيـق كان يشـكّل ظاهـرة بـارزة في عمـل الإمـام زيـن العابدين عليه السلام بسبب الأعداد الهائلة من الرقيق والعبيد التي كانت تتواتر على الدولة الأموية، على أثر توالي الفتوحات وسرعتها([2])، وكان من طبائع الأمور

١- في النهايـة: « يقـال: مجلـت يـده تمجل مجلاً ومجلـت تمجل مجلاً أي من بابـي نصر وفرح كما في مجمع البحرين، الطريحي إذا ثخن جلدها وتعجّر فيها ما يشـبه البثر من العمل بالأشـياء الصلبة الخشـنة، ومنه حديث فاطمة عليها السلام: أنه شـكت إلى علي مجل يديها من الطحن.

٢- فجر الإسلام، أحمد أمين ص٩٠.

أن يؤدي انتشار العبيد وكثرتهم من دون أي تحصين أخلاقي، أو تربية إسلامية، إلى شيوع البطالة، والفساد، وهو ما تركز عليه الدولة الظالمة التي تعمل في هذا الاتجاه بالذات. ولذلك كان لا بد من العمل على هذه الفئة من الناس، المضطهدين والمستضعفين، والإستفادة من وضعهم النفسي والمادي لدفعهم نحو الإلتزام بقيم الإسلام، ومن ثم لكي ينشأ في أوساطهم حب واحترام لأهل البيت، فيكونوا من عناصر قوة الكتلة الشيعية العتيدة. وكان أسلوب الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام في التخطيط لافتاً للنظر، إذ بذل جهوده في إعداد الموالي كي يمهّد الطريق في المدينة للمستقبل. وحاول أن يموّنهم بالإسلام الصحيح والسليم، بخاصّة أنّهم كانوا يتمتّعون بأرضيّة مناسبة. واستطاع أن يؤثّر فيهم. وكان متمكّناً تماماً من نقل العواطف الشيعيّة إليهم عبر بعض الممارسات العمليّة التي كانت تظهر منه، كالبكاء المتواصل على أبيه الحسين عليه السلام، وكانت أول خطوة في تثقيف الموالي بالثقافة الإسلامية الصحيحة هي شراء العبيد وإعتاقهم حتى يتحولوا إلى موالي أحرار. وعرف العبيد ذلك فباعوا أنفسهم له واختاروه، وانفلتوا من أيدي السادة ليقعوا في يده... ثم كان يأخذ بتعليمهم وتثقيفهم، وكتابة ذنوبهم في كتاب، ثم يذكرهم بها ويعتقهم. حتى أعتق ألوفاً كثيرة منهم. كان الإمام عليه السلام بصدد إسقاط السياسة التي كان يزاولها الأمويون في معاملتهم مع الرقيق. فحرر مجموعة كبيرة من عباد الله وإمائه، الذين وقعوا في الأسر، وتلك حالة استثنائية غير طبيعية، ومع أن الإسلام كان قد أقرها لأمور يعرف بعضها من خلال قراءة التاريخ، إلا أن الشريعة قد وضعت طرقا عديدة لتخليص الرقيق وإعطائهم الحرية، وقد استغل الإمام عليه السلام كل الظروف والمناسبات لتطبيق تلك الطرق، وتحرير العبيد والإماء. وفي عمله تطبيق للشريعة وسننها. فقد كان الصراع من جهة الإمام زين العابدين عليه السلام قائماً، بعد وقعة

كربلاء، على قاعدة الصمود والثبات، ثم الإنتقال إلى التوسع والتركيز، وكان الموالي والعبيد يحملون في قلوبهم ونفوسهم روح المظلومية والغربة، فكانوا مجالاً لتقدم أهل البيت على الأمويين، كماً ونوعاً. ولذلك برز تحرير العبيد في حياة الإمام زين العابدين عليه السلام بشكل ليس له مثيل في تاريخ الإمامة.

وهكذا! بدأ الإمام عليه السلام ينفذ مشروعاً طويل الأمد، يقوم على شراء العبيد والإماء، وعدم إبقاء أحدهم عنده أكثر من سنة واحدة، فقد كان مستغنياً عن خدمتهم[١]. فيعتقهم بحجج متعددة وفي مناسبات مختلفة، ما يدل على وجود خطة عنده من وراء شرائهم ثم إعتاقهم! حتى أنه كان يعتق العبد غير مبال بما يكلفه الإعتاق من مال، فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار قد دفع للإمام زين العابدين عليه السلام، ثمناً لغلام عنده اسمه «مطرف»، ألف دينار أو عشرة آلاف درهم[٢]، ربما لأدبه، وذكائه، وحنكته، وقوته. ومع أنه كان في إمكانه أن يبيعه بهذا الثمن الغالي، ويعتق بالثمن مجموعة من الرقيق، ولكن الإمام أراد أن يؤكد على سنة العتق! ليكون عمله قدوة للشيعة كي يقوموا بعتق ما يملكون من الرقاب، فدعا الغلام، فلما قام بين يديه، قال: إذهب، فأنت حر لوجه الله[٣].

لقد أعتقه ووهبه الحرية. ولم يعتبره صفقة ويتركه في نير العبودية، لأنه تعامل معه تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان، والإنسانية لا تشترى ولا تباع، ولأن هدفه عند شرائه أصلاً كان نقله إلى الحرية، ولكن عبر مدرسة أهل البيت، حيث الإسلام المحمدي الأصيل، وليس المتاجرة به، فقد كان تحرير العبيد جسراً لتزويد الشيعة بالعدد والنوعية على طريق بناء الكتلة الشيعية.

١- الإقبال، السيد ابن طاوس ص٤٧٧.

٢- تاريخ مدينة دمشق، الحديث٨٢. مختصرتاريخ دمشق، ج١٧ ص٢٣٩. مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٣٠٢. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٩٥. مسند أحمد بن حنبل، ج٢ ص٤٢٠. صحيح البخاري، ج٣ ص١١٧.

٣- صحيح البخاري، ج٣ ص١٨٨، كتاب العتق والكفارات. صحيح مسلم، ج١٠ ص١٥٢، في العتق. صحيح الترمذي، ج٤ ص١١٤، في النذور، رقم ١٥٤١. حلية الأولياء، ج٣ ص١٣٦. زين العابدين، سيد الأهل ص٤٧.

وفي المدة التي كان العبيد يمكثونها عنده لم يكن يعاملهم كعبيد أو إماء، بل كان يعاملهم معاملة إنسانية تعزز في نفوسهم الأخلاق الكريمة وتحبّب إليهم الإسلام وأهل البيت. كما كان يعلّمهم أحكام الدين ويغذّيهم بالمعارف الإسلامية. بحيث يخرج الواحد من عنده محصنا بالعلوم التي يفيد منها في حياته، ويدفع بها الشبهات، ولا ينحرف عن الإسلام الصحيح. وإذا ما حان وقت إعتاقهم كان يزوّد من يعتقه بما يغنيه، فيدخل المجتمع ليزاول الأعمال الحرة، كأيّ واحد من الناس، ولا يكون عالة على أحد.

وقد شكّل الرقيق المعتقون جيلا من الموالي الذين تربوا على الصدق والإخلاص، في بيت الإمام عليه السلام، وعرفوا على يده الحق وأهله، وتزودوا بتعاليم الإسلام من عقائد وشرائع وأخلاق. وكان ذلك كله تحت نظر ومراقبة الأمويين الذين لم يملكوا القدرة على منعه، وإقفال هذه المدرسة التي خرّجت فطاحل في الفقه والعقيدة، فاستقطب الإمام عليه السلام ولاء هذه الأعداد الكبيرة من الموالي المحرّرين وأبنائهم وأحفادهم وهم يرتبطون به برباط ولاء العتق الذي قرّره الإسلام وألِفَته النفوس البشريّة التي جُبلت على مجازاة الإحسان بالإحسان وشكر النعمة وتقدير المعروف، حتى صار في المدينة جيش من الموالي الأحرار والجواري الحرائر. قيل إنهم بلغوا خمسين ألفا، وقيل: مائة ألف![1]. وكلهم في ولاء زين العابدين[2] عليه السلام. وكان أثر هذه المدرسة الإلهية في بيت الإمام عليه السلام يطفو على السطح أحياناً وتظهر آثاره لكل غافل أو متتبع! فقد عرف الموالي أنّ أهل البيت عليهم السلام يتبعون سيرة جدّهم أمير المؤمنين عليه السلام برفض عبودية الانسان للانسان، وبإنقاذ الموالي وتحريرهم، وصاروا يعتبرونهم مثلاً أعلى لهم، وكان أقل أثر تأثروا به هو اعتناق خطهم في الدين والعقيدة والمذهب، وأصبحوا مستعدّين للوقوف إلى جانبهم،

١- بحار الأنوار، ج٤٦ ص١٠٤، ١٠٥.

٢- زين العابدين، سيد الأهل ص٤٧.

والانتصار لهم إذا تعرّضوا لظلم أو لبغي من قبل السلطات، وأصبحوا يشكّلون قوّة ضاغطة على الجهاز الحاكم فيما بعد. ففي يوم من الأيام كان الإمام عليه السلام خارجا من المسجد فلقيه رجل فسبه! فثار إليه العبيد والموالي، يريدون ضربه دفاعاً عن الإمام عليه السلام، فقال الإمام عليه السلام لهم: مهلاً عن الرجل! ثم أقبل على الرجل، فقال له: ما ستر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحيى الرجل، فألقى عليه الإمام عليه السلام خميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم. فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد أنك من أولاد الرسول[١].

ولما حاول عبد الله بن الزبير الضغط على آل أبي طالب في مكة، وشيخهم محمد بن الحنفية، لإجبارهم على مبايعته، وهددهم بإحراق دورهم عليهم، وسمع هؤلاء العبيد والموالي هذه الأخبار، وقفوا موقفاً دفاعياً تاريخياً آخر، عن أهل البيت، فتجمعوا بالمدينة، غضبا للطالبيين ولمحمد بن الحنفية، ومراغمة لابن الزبير. وكان أن مر بهم ابن عمر فرأى غلاما له فيهم، وهو شاهر سيفه ! فقال له: رباح !

قال رباح: والله، إنا خرجنا لنردكم عن باطلكم إلى حقنا!

فبكى ابن عمر، وقال: اللهم إن هذا لذنوبنا[٢].

حقا لقد تحين الإمام عليه السلام الفرص، واهتبل حتى الزلة الصغيرة تصدر من أحد الموالي ليهب له الحرية، فكان يكافئ الإساءة بالإحسان ليكون أعذب عند الذي يعتق، وأركز في خلده، فلا ينساه. فكان يهب الحرية في كل عام، وكل شهر، وكل يوم، وعند كل هفوة، وكل خطأ يصدر من العبد، لقد استنفد كل وسيلة للتحرير، فقد نادى، ذات يوم، مملوكه مرتين، فلم يجبه، ثم أجابه في الثالثة، فقال له الإمام عليه السلام: يا بني ! أما سمعت صوتي ؟

١- صفوة الصفوة، ج٢ ص١٠٠. تاريخ مدينة دمشق، الحديث ١١٢. كشف الغمة، ج٢ ص٨١. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٩٩. عوالم العلوم ص١١٥.

٢- أنساب الأشراف، ج٣ ص٢٩٥.

قال المملوك: بلى !

قال الإمام: فما بالك لم تجبني ؟

قال المملوك: أمنتك !

قال الإمام عليه السلام: الحمد لله الذي جعل مملوكي يأمنني[١].

وجعلت جارية له تسكب عليه الماء يتهيأ للصلاة، فسقط الإبريق من يد الجارية على وجهه، فشقه، فرفع رأسه إليها، فقالت الجارية: إن الله عز وجل يقول: (والكاظمين الغيظ).

فقال لها: قد كظمت غيظي.

قالت:(والعافين عن الناس).

فقال لها: قد عفا الله عنك.

قالت:(والله يحب المحسنين)[٢]..

قال: اذهبي، فأنت حرة[٣]. فكأن هذا الحوار كان امتحانا واختبارا، نجحت فيه هذه الجارية، بحفظها هذه الآية، واستشهادها بها، فكانت جائزتها من الإمام عليه السلام أن تعتق!

وأذنب غلام له ذنبا استحق منه العقوبة، فأخذ له السوط، فقال:(قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله)[٤].

فقال الغلام: وأما أنا كذلك، إني لأرجو رحمة الله وأخاف عقابه.

فألقى الإمام عليه السلام السوط، وقال: أنت عتيق[٥].

وكان عند الإمام عليه السلام قوم، فاستعجل خادم له شواءاً كان في التنور، فأقبل به الخادم مسرعا، وسقط السفود من يده على بني للإمام عليه السلام أسفل الدرجة،

١- تاريخ مدينة دمشق، الحديث٩٠. مختصر ابن منظور، ج١٧ ص٢٤٠. شرح الأخبار، ج٣ ص٢٦٠.

٢- القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية ١٢٤.

٣- تاريخ مدينة دمشق، الحديث ٩٠. مختصر ابن منظور، ج١٧ ص٢٤٠.

٤- القرآن الكريم، سورة الجاثية، الآية ١٤.

٥- تاريخ مدينة دمشق، الحديث ١١٣. مختصر ابن منظور، ج١٧ ص٢٤٤.

فأصاب رأسه، فقتله، فوثب الإمام عليه السلام، فلما رآه، قال للغلام: إنك حر، إنك لم تتعمده، وأخذ في جهاز ابنه[١].

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: إن أبي ضرب غلاما له قرعة واحدة بسوط، وكان بعثه في حاجة فأبطأ عليه، فبكى الغلام وقال: الله يا علي بن الحسين تبعثني في حاجتك ثم تضربني؟!

فبكى أبي وقال: يا بني اذهب إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله فصل ركعتين ثم قل: اللهم اغفر لعلي ابن الحسين خطيئته يوم الدين، ثم قال للغلام: اذهب فأنت حر لوجه الله، فقال أبو بصير للإمام الباقر عليه السلام: جعلت فداك كأن العتق كفارة الضرب ؟! فسكت[٢].

وكان يدعو خدمه كل شهر ويقول: إني قد كبرت ولا أقدر على النساء، فمن أرادت منكن التزويج زوجتها، أو البيع بعتها، أو العتق أعتقتها، فإذا قالت إحداهن: لا، قال: اللهم اشهد، حتى يقول ثلاثا، وإن سكتت واحدة منهن قال لنسائه: سلوها ما تريد، وعمل على مرادها[٣].

وكان إذا دخل شهر رمضان لا يضرب عبدا له ولا أمة، وإذا أذنب العبد والأمة يكتب عنده: أذنب فلان، أذنبت فلانة يوم كذا وكذا، ولم يعاقبه، فيجتمع عليهم الأدب، حتى إذا كان آخر ليلة من شهر رمضان دعاهم وجمعهم حوله ثم أظهر الكتاب ثم قال: يا فلان فعلت كذا وكذا، ولم أؤدبك أتذكر ذلك ؟ فيقول: بلى يا ابن رسول الله، حتى يأتي على آخرهم، ويقررهم جميعا، ثم يقوم وسطهم ويقول لهم: ارفعوا أصواتكم، وقولوا: يا علي بن الحسين إن ربك قد أحصى عليك كلما عملت كما أحصيت علينا كلما عملنا، ولديه كتاب ينطق عليك بالحق، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة مما أتيت إلا أحصاها،

١- تاريخ مدينة دمشق، الحديث١١٨. مختصر ابن منظور، ج١٧ ص٢٤٤.

٢- بحار الأنوار، ج٤٦ ص٩٢.

٣- بحار الأنوار، ج٤٦ ص٩٣. مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٣٠١.

وتجـد كل ما عملت لديه حاضرا كما وجدنا كلما عملنا لديك حاضرا، فاعف واصفـح كما ترجو من المليك العفو، وكمـا تحب أن يعفو المليك عنك فاعف عنـا تجـده عفوا، وبـك رحيما، ولك غفـورا ولا يظلم ربك أحـدا، كما لديك كتاب ينطق بالحق علينا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة مما أتيناها إلا أحصاها، فاذكر يا علي بن الحسين ذل مقامك بين يدي ربك الحكم العدل، الذي لا يظلم مثقال حبة من خردل، ويأتي بها يوم القيامة وكفى بالله حسـيبا وشـهيدا، فاعف واصفح يعف عنك المليك ويصفح، فإنه يقول: « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبـون أن يغفـر اللـه لكم « وهو ينادي بذلك على نفسـه ويلقنهم، وهم ينـادون معـه وهو واقـف بينهم يبكي وينـوح ويقول: رب إنـك أمرتنا أن نعفـو عمـن ظلمنا، وقد عفونا عمن ظلمنا كما أمـرت فاعف عنا، فإنك أولى بذلـك منا ومن المأمورين! وأمرتنا أن لا نرد سـائلا عـن أبوابنا، وقد أتيناك سؤالا ومساكين وقد أنخنا بفنائك وببابك نطلب نائلك ومعروفك وعطاءك، فامنن بذلك علينا ولا تخيبنا فإنك أولى بذلك منا ومن المأمورين، إلهي كرمت فأكرمني إذ كنت من سؤالك وجدت بالمعروف فأخلطني بأهل نوالك يا كريم. ثـم يقبل عليهـم فيقول: قد عفـوت عنكم فهل عفوتم عنـي ومما كان مني إليكم من سـوء ملكة ؟ فاني مليك سـوء لئيم ظالم مملوك لمليك كريم جواد عادل محسـن متفضل ؟ فيقولون: قد عفونا عنك يا سـيدنا، وما أسأت!

فيقول لهم قولوا: اللهم اعف عن علي بن الحسين كما عفا عنا، فأعتقه من النار كما أعتق رقابنا من الرق، فيقولون ذلك، فيقول: اللهم آمين رب العالمين اذهبوا فقد عفوت عنكم وأعتقت رقابكم رجاء للعفو عني وعتق رقبتي! فيعتقهم. فإذا كان يوم الفطر أجازهم بجوائز تصونهم وتغنيهم عما في أيدي الناس، ومـا مـن سـنة إلا وكان يعتق فيهـا في آخر ليلة من شـهر رمضـان ما بين العشريـن رأسـا إلى أقـل أو أكثر، وكان يقـول: إن لله تعـالى في كل ليلة من

شهر رمضان عند الافطار سبعين ألف ألف عتيق من النار كُلاً قد استوجب النار فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق فيها مثل ما أعتق في جميعه، وإنـي لأحب أن يراني اللـه وقد أعتقت رقابا في ملكي في دار الدنيا رجاء أن يعتق رقبتي من النار.

وما استخدم الإمام عليه السلام خادما فوق حول، كان إذا ملك عبدا في أول السنة أو في وسـط السـنة إذا كان ليلة الفطر أعتق، واستبدل سواهم في الحول الثاني ثم أعتق، كذلك كان يفعل حتى لحق بالله تعالى، ولقد كان يشتري السودان ومـا بـه إليهم من حاجة، يأتي بهـم عرفات، فإذا أفاض أمـر بعتق رقابهم وجوائز لهم من المال[١].

إذن كان الإمـام زين العابدين عليه السلام بعمله، الذي لم يكن مثيراً للجهاز الحاكم، يسـتهدِف ضرب السياسة التي انتهجها الأمويّون مع الموالي، وقد حقّق عدة أهداف سياسية وتربوية وتثقيفية واجتماعية وإقتصادية بهذه العبادة في آنٍ واحد، فإنّ الرقيق المعتقين أصبحوا يشـكلون جيلاً من التلامذة الذين كانوا قـد تربّوا في بيت الإمام عليه السلام وعلى يديه وعاشـوا مع سـيرته الإلهية العطرة، ومن الطبيعي أن ينقلوا انطباعاتهم إلى أبنائهم ولو كان الإمام عليه السلام يريد فتح مدرسة للتعليم بغير هذا الأسلوب لكان يواجه منعاً من الجهاز الحاكم، بينما كان حرّاً وبعيداً عن الرقابة الحكوميّة وهو يزاول عمليّة شراء الرقيق وعتقهم. وهكـذا حـل الإمام زين العابدين عليه السلام مشـكلة الرق والعبوديـة، وحوّلها إلى مرحلـة إيجابيـة في حيـاة هؤلاء الناس تصـب في النهايـة في صالح المجتمع والديـن[٢]. ولأن الإمام عليه السلام كان مفترض الطاعة عند شـيعته، وأعلم الفقهاء وأورعهـم وأتقاهم، عند جمهور العامة، وسـيد أهـل البيت في زمانه! فلا بد أن يـترك عمله هذا في مسـألة العبوديـة أثراً في نفـوس كل الناس المحيطين

١- بحار الأنوار،ج٤٦ ص١٠٣، ١٠٥.

٢- عوالم العلوم، ص١٥١، ١٥٥.

بـه، فيقتدون به في تحرير الرقيق، ومواجهة النفس العنصرية التي نشـأت بسبب الفتوحات وتعمقت على يد الأمويين! لقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام يخـوض معركـة ضارية دفاعاً عن نقاء صفحة الإسـلام من لوثة العبودية التي لم يكن مسـؤولاً عن نشـوئها في المجتمع الإنسـاني، وها هو يكافحها ويحاول اسـتئصالها من المجتمع، ويحولها إلى موقع من مواقع المبارزة مع الأمويين وأسلافهم ممن أخذ المسلمين بعيداً في طريق العصبية والعنصرية.

٥- الإنفاق

بدأت في تاريخ الدولة الإسـلامية أزمـة الإنتفاع من ميزانية الدولة على عهد عمر بن الخطاب الذي افتتح تقسـيم المال الرسـمي بناء على سياسة التمييز العنـصري، ففضّـل قريـش على العرب وفضـل العرب عـلى غيرهم، وفضل المهاجرين على الأنصـار، والأوس على الخزرج وهكذا!

وبعد أن أعاد علي بن أبي طالب عليه السلام الإنتفاع من بيت المال إلى سابق عهده كما كان ايام رسـول الله صلى الله عليه وآله، مبنياً على المسـاواة المطلقة بين المسلمين، إنتكست السياسـة على عهـد معاوية إلى الحضيـض، فتفـردت الأسرة الحاكمة بمال الدولة، وسيطرت بذلك على عصب الحياة في البلاد، سلاحاً ماضياً بيدها ضد أعدائها، وتشتري به الأنصار والأعوان. فقد أوعز معاوية إلى ولاته في جميع الأمصار: انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليا وأهل بيته فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه[١].

إن تحقيق الإعتدال والتوازن في المسـتوى المعيشي لدى أفراد الأمة والقضاء عـلى البطالـة والفقر هـو أهم هموم كل حركة ثوريـة، ولكن تحقيق ذلك لا يتـم إلا بحسـم مـادة الدولة وبناء نظـام إقتصادي صحيـح! وإلا، مع عدم الإمسـاك برأس السلطة السياسية سوف تبقى كل تلك الأهداف عملاً خيرياً

١- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١١ ص٤٥.

فردياً لا يستطيع أن يحل مشكلة الفقر الكبرى على مستوى الأمة! والإمام زين العابدين عليه السلام بنشاطه الفردي مع الفقراء والمساكين لم يكن بصدد رفع مستوى معيشتهم بقدر ما كان يريد أن يبني مداميك حبه والتأثر بكلماته وبشخصيته في أوساط أهل المدينة، ويريد تربية الشيعة على صعود مدارج الكمال في الإيثار والعطاء والتضحية بالمال في سبيل ذلك، كل ذلك من أجل استكمال مشروعه الإستراتيجي بعد كربلاء! ألا وهو بناء الحزب الشيعي النموذجي، هذا الحزب يحتاج إلى القدوة العالية النموذجية أولاً ثم يحتاج إلى أن يكون أفراده كإمامهم، يهتمون بالفقراء والمساكين ويحملون الطعام في الليل إليهم سراً، فكان يقول: إن الصدقة في سواد الليل تطفئ غضب الرب[1]. إنه يريد بذلك أن تلتحم في الخارج نفوس شيعته بدموع وآهات الفقراء والمساكين، فهو يريد بناء الحزب الذي سوف يقوم في يوم ما ببناء دولة المستضعفين في الأرض.

فالإنفاق على الفقراء والمساكين، في السر والعلانية، ومما يحب الإنسان، إذن هو مدرسة ربى فيها الإمام زين العابدين عليه السلام كل من تناهى إلى سمعه إسمه وأفعاله وأقواله، فالإنفاق رأس العطاء ومادة الإيمان حتى أن الله تعالى حث عليها في القرآن الكريم عشرات المرات وفي كل مناسبة، لأن العطاء والإيثار من أخطر درجات سمو النفس وغناها. ولذلك سار الإمام زين العابدين عليه السلام على هذا الطريق وأسس مدرسة العطاء عند الكتلة الشيعية، التي كان يحثها على المواساة والإحسان، والمنافسة، فيقول: معاشر شيعتنا أما الجنة فلن تفوتكم سريعا كان أو بطيئا، ولكن تنافسوا في الدرجات، واعلموا أن أرفعكم درجات وأحسنكم قصورا ودورا وأبنية أحسنكم فيها إيجابا لاخوانه المؤمنين، وأكثرهم مواساة لفقرائهم، إن الله عز وجل ليقرب

١- تاريخ مدينة دمشق، ح٧٦. مختصر تاريخ دمشق، ج١٧ ص٢٣٨.

الواحد منكم إلى الجنة بكلمة يكلم بها أخاه المؤمن الفقير بأكثر من مسير مائة ألف عام في سنة بقدمه وإن كان من المعذبين بالنار فلا تحتقروا الاحسان إلى إخوانكم، فسوف ينفعكم الله تعالى حيث لا يقوم مقام ذلك شئ غيره [١].

ولقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام يقوم بعطاءاته في سرية تامة، وصلت إلى حد أن يتهم بالبخل[٢] عند من لم يكن يعلم بما يفعله الإمام. وكان إذا جنه الليل، وهدأت العيون، يقوم إلى منزله، فيجمع ما يبقى فيه عن قوت أهله، ويجعله في جراب ويرمى به على عاتقه، ويخرج في الليلة الظلماء[٣]، إلى دور الفقراء والمساكين وهو متلثم يغطي وجهه حتى إذا ناول فقيرا لا يعرفه، فيأتي الدور بابا بابا، فيقرعه ثم يناول من كان يخرج إليه، ويفرق عليهم ما كان يحمله، وكثيرا ما كانوا قياما على أبوابهم ينتظرونه فإذا رأوه تباشروا به، وقالوا: جاء صاحب الجراب. وكان إذا ناول الصدقة السائل قبّله ثم ناوله[٤].

وكان مائة أهل بيت[٥] من أهل المدينة يعيشون، لا يدرون من أين كان معاشهم، وقد خفيت طريقته على أقرب الناس إليه عليه السلام، بل حتى على الفقراء أنفسهم، الذين لم يطلعوا على الحقيقة إلا بعد وفاته، وانقطاع أعطياته! فقد وجدوا بظهره أثرا، فسألوا عنه! فقالوا: هذا مما كان ينقل الجراب على ظهره إلى منازل الأرامل[٦]. وكان في كل بيت جماعة من الناس، فلما مات وفقد الفقراء ما كانوا يؤتون به بالليل[٧] وفقدوا صدقة السر[٨]، صرخوا صرخة واحدة.

١- بحار الأنوار، ج٧١ ص٣٠٨.

٢- تاريخ مدينة دمشق، ح٨٠. مختصر تاريخ دمشق، ج١٧ ص٢٣٩.

٣- تاريخ مدينة دمشق، ح٧٦. مختصر تاريخ دمشق، ج١٧ ص٢٣٨.

٤- بحار الأنوار، ج٤٦ ص٨٨، ٨٩. حلية الأولياء، ج٣ ص١٣٥،١٣٦، ١٣٧. الأغاني، ج١٤ ص٧٥.

٥- تاريخ مدينة دمشق، ح٨٠. مختصر ابن منظور، ج١٧ ص٢٣٩. التمهيد، ابن عبد البر، ج٩ ص١٥٨.

٦- تاريخ مدينة دمشق، ح٧٩. مختصر تاريخ دمشق، ج١٧ ص٢٣٨.

٧- تاريخ مدينة دمشق، ح٧٧. مختصر تاريخ دمشق، ج١٧ ص٢٣٨.

٨- حلية الأولياء، ج٣ ص٣٦١. تاريخ مدينة دمشق، ح٨١. مختصر تاريخ دمشق، ج١٧ ص٢٣٩. سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٩٣.

وهو كان يعرف أن الناس سوف تعرف حقيقة الأمر ولو بعد حين أو بعد موته، فيكون عمله أوقع في النفوس وأكثر تأثيرا في حب الناس لأهل البيت، وأبعد عن الرياء، والسمعة، والمباهاة. ولكن حظ العلانية لم يكن ناقصاً عنده فلا يمكن أن يتم بعض الأمور سراً، فقد كان في اليوم الذي يصوم فيه يأمر بشاة فتذبح وتقطّع أعضاؤها وتُطبخ، فإذا كان المساء انكبّ على القدور حتى يجد ريح المرق، وهو صائم، ثمّ يقول: هاتوا القصاع، اغرفوا لآل فلان، ولآل فلان، حتى يأتي على آخر القدور ثم يؤتى بخبز وتمر فيكون عشاءه([١]). وشكا إليه عليه السلام بعض أصحابه دينا، فبكى الإمام عليه السلام فلما سئل عن سبب بكائه ؟ قال عليه السلام: وهل البكاء إلا للمحن الكبار؟ وأي محنة أكبر من أن يرى الإنسان أخاه المؤمن في حاجة لا يتمكن من قضائها، وفي فاقة لا يطيق دفعها[٢]. إني لأستحيي من الله عز وجل أن أرى الأخ من إخواني، فأسأل الله له الجنة، وأبخل عليه بالدنيا، فإذا كان يوم القيامة قيل لي: (لو كانت الجنة بيدك لكنت بها أبخل وأبخل وأبخل)[٣].

ودخل على محمد بن أسامة بن زيد، في مرضه، فجعل محمد يبكي، فقال: ما شأنك ؟

قال محمد: علي دين.

قال: كم هو ؟

قال: خمسة عشر ألف دينار، أو بضعة عشر ألف دينار!

قال الإمام: فهي علي[٤]. وقد قاسم الله تعالى ماله مرتين[٥].

١- بحار الأنوار، ج٤٦ ص ٣٣٤.

٢- الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٣٦٧. ونقله في عوالم العلوم ص٢٩ في حديث طويل.

٣- تاريخ مدينة دمشق، ح٨٤. مختصر تاريخ دمشق، ج١٧ ص٢٣٩. تهذيب التهذيب، ج٧ ص٣٠٦.

٤- تاريخ مدينة دمشق، ح٨٣. مختصر تاريخ دمشق، ج١٧ ص٢٣٩.

٥- تاريخ مدينة دمشق، ح٧٥.

٦ – إحياء القرآن والسنة:

كانت المرحلة الثانية من عمل أئمة أهل البيت بعد كربلاء، وبعد ظهور الأخطار الثقافية على الأمة بسبب الفتوحات، تتطلّب من الإمام زين العابدين عليه السلام جهوداً علميّة وتربوية تكون حصناً منيعاً أمام الخطر الثقافي، ويكاد الدارسون الاجتماعيون لحياته يتفقون على أنه ابتعد عن الحياة السياسية، وانكب على الشؤون الدينية، ورواية الحديث، والتعليم[1]، وتربية أصحابه المقربين من شيعته، وتخريج العلماء والفقهاء. ولا شك أنه قام بكل هذا بجدارة عالية، ولكن الكلام في أن نعتبر ما فعله خارجاً، أو بديلا، أو بعيداً عن العمل السياسي، مع أن ما فعله إنما هو في صلب وظيفة الأنبياء والأئمة والمصلحين السياسيين، فأقل ما ينبغي لهم أن يفعلوه هو رفع الأمم والشعوب إلى مستويات راقية على مستوى التعاليم الإلهية. كما أن الذي يريد التغيير في السياسة عليه أن يغيّر في المباديء والقيم اولاً، لأن تثقيف الجماهير، وتوعيتها، من أخطر وأهم مقومات كل حركة سياسية، لتكون على علم بما يجري حولها وما يجب لها من حقوق وما عليها من واجبات.

وقد قام الإمام زين العابدين عليه السلام بأداء دور سياسي خطير، ولكنه في الميدان الثقافي، فكان في طليعة ما أخذه المسلمون عنه من المعارف مغازي رسول الله صلى الله عليه وآله وسراياه، فكان عليه السلام يعلم مغازي النبي صلى الله عليه وآله وسراياه كما يعلم السورة من القرآن، وكان يروي ما رآه بأم عينيه، في كربلاء، من بطولات أبيه الإمام الحسين عليه السلام وجهاد أصحابه الأوفياء، في سبيل إعلاء كلمة الله، ويزرع في وجدان الشيعة تلك الصور الفريدة للإيثار والعطاء.

ولم يكن للحديث أو السيرة أو الفقه تدوين وتأليف بسبب الحظر الذي فرضته السلطة بعد غياب الرسول صلى الله عليه وآله، فلم يكن الخطّ السياسي العام في الدولة

١- معتزلة اليمن ص١٧، ١٨.

الإسلامية طوال القرن الأول الهجري مؤاتياً لذلك، فتصدى الإمام عليه السلام لنشر حديث رسول الله صلى الله عليه وآله الذي كان تحدّياً لحظر السلطة السياسية، التي ورثت قرار المنع من رواية الحديث ونقله وكتابته وتدوينه، الذي صدر، بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله مباشرة، من قبل أبي بكر، ثم تشدد عمر على من كتب شيئا من الحديث أو نقله ورواه، من أجل المنع من تسرب شي منه إلى الناس، فحبس جمعا من الصحابة ممن روى الحديث، وهدد آخرين بالضرب والنفي، وأحرق ما دوّن. والتزمت الدولة خط الإرهاب الفكري هذا في محاصرة السنة النبوية، وأصبح شعارها السياسي، حتى أعلن عثمان ومعاوية منع الحديث النبوي إلا حديثا كان على عهد عمر، بل بلغ الأمر بالحجاج الثقفي أن ختم على أيدي وأعناق صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، حذرا من أن يحدثوا الناس، أو يسمع الناس حديثهم[١]! وقد استشرى المنع من تداول السنة النبوية، وقام إلى جانبه ترويج هائل لخرافات القصاصين، ولروايات وعاظ البلاط ووضاعي الحديث الذي يخدم السلطة السياسية، حتى أصبحت مضامين الحديث النبوي الحقيقي الذي ينقله أهل البيت، غريبة، مستنكرة، قد تثير دهشة السامع، أو ربما استهزاءه! فها هو الإمام زين العابدين عليه السلام يقول: ما ندري، كيف نصنع بالناس! إن حدثناهم بما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وآله ضحكوا، وإن سكتنا لم يسعنا[٢].

وهكذا، قبل أن يرفع قرار المنع من تدوين السنة النبوية بقرار من قبل الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، قاوم أئمة أهل البيت وأتباعهم هذه السياسة الإرهابية الفكرية، فكانوا يكتبون الحديث، ويروونه، وينشرونه، ويبثونه بين الناس، حتى وُصف الإمام زين العابدين عليه السلام من قبل النسابين ومصنفي طبقات الصحابة والتابعين بالثقة المأمون، الكثير الحديث[٣]، فكان

١- أسد الغابة، ابن الأثير، ج٢ ص٤٧٢، ترجمة سهل الساعدي.

٢- الكافي، ج٣ ص٢٣٤، ح٤. بحار الأنوار، ج٤٦ ص١٤٢. عوالم العلوم ص٨٥، و ص٢٩٠.

٣- تهذيب التهذيب، ج٧ ص٣٠٥. المجدي في أنساب الطالبيين، على بن محمد العلوي، ص٩٢.

القيام برواية الحديث ذروة في العمل الثوري المعارض، وتحدياً خطيراً لأوامر الدولة وسياستها. بل كان الإمام يطبق السنة ويدعو إلى تطبيقها والعمل بها، فقد قال: إن أفضل الأعمال ما عمل بالسنة وإن قل[١].

واهتمّ الإمام زين العابدين عليه السلام بتدريس القرآن وتفسيره وحفظه وإكرام حملته، فكان يقول: عليك بالقرآن، فإن الله خلق الجنة بيده، لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وجعل ملاطها المسك، وترابها الزعفران، وحصاها اللؤلؤ، وجعل درجاتها على قدر آيات القرآن، فمن قرأ منها قال له: (إقرأ وارق) ومن دخل الجنة لم يكن في الجنة أعلى درجة منه، ما خلا النبيين والصديقين[٢].

وروي عنه عليه السلام: آيات القرآن خزائن العلم، فكلما فتحت خزانة ينبغي لك أن تنظر ما فيها[٣] ومن ختم القرآن بمكة لم يمت حتى يرى رسول الله صلى الله عليه وآله ويرى منزله في الجنة[٤]. وكان يقول: لو مات من ما بين المشرق والمغرب ما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي[٥]. بل كان أحسن الناس صوتا بالقرآن، حتى أن السقائين كانوا يمرون ببابه، فيقفون لاستماع صوته، يقرأ[٦]. وكان مرجعا في علوم القرآن ومعارفه، يسأله كبار العلماء عن القرآن[٧]. وكان إذا ما شرح القرآن أو فسّره يوسع مفاهيمه ويوسع بالتالي مصاديق تلك المفاهيم، فيتحول التفسير على يديه إلى مادة لصناعة الحياة وبناء الإنسان الجديد، فقد روي عنه في تفسير قوله تعالى: «ولكم في القصاص حياة»[٨]: أن من هم بالقتل، فعرف أنه

١- المحاسن، البرقي، ص٢٢١، ح ١٣٣.

٢- البرهان في تفسير القرآن، ج٣ ص١٥٦.

٣- أصول الكافي،ج٢ ص٦٠٩. المحجة البيضاء، المولى الكاشاني، ج٢ ص٢١٥.

٤- المحجة البيضاء، ج٢ ص٢١٥.

٥- الكافي، الأصول، ج٢ ص٦٠٢. المحجة البيضاء، ج٢ ص٢١٥. بحار الأنوار، ج٤٦ ص١٠٧.

٦- الكافي، ج٢ ص٦١٦. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٧٠، ب٥، ح٤٥. عوالم العلوم ص١٣٥.

٧- تاريخ مدينة دمشق، مختصر تاريخ دمشق، ج١٧ ص٢٤٠. سير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٩٦.

٨- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ١٧٩.

يقتــص منــه، فكف لذلك من القتل، كان حياة للذي هم بقتله، وحياة لهذا الجافي الذي أراد أن يقتل، وحياة لغيرهما من الناس إذا علموا أن القصاص واجب، ولا يجسرون على القتل مخافة القصاص! عباد الله، هذا قصاص قتلكم لمن تقتلونه في الدنيا، وتفنون روحه ! أفلا أنبئكم بأعظم من هذا القتل ؟ وما يوجبه الله على قاتلــه مما هو أعظم من هذا القصاص ؟

قالوا: بلى، يا بن رسول الله!

قال: أعظم من هذا القتل أن يقتله قتلا لا يجبر، ولا يحيى بعده أبدا !

قالوا: ما هو ؟

قال: أن يضله عن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وعن ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، ويســلك بــه غير ســبيل الله، ويغير به باتباع طريق أعــداء علي عليه السلام والقول بإمامتهم، ودفع علي عليه السلام عن حقه، وجحد فضله، وأن لا يبالي بإعطائه واجب تعظيمه، فهــذا هــو القتل الذي هو تخليد المقتول في نار جهنم، مخلدا أبدا، فجزاء هذا القتــل مثل ذلك: الخلــود في نار جهنم[١].

بــل كان الإمــام عليه السلام يجري مقارنــات جريئــة تطبيقية صارخة عــلى الواقع الســياسي والإجتماعــي المعاصر، ويستشــهد عليهــا بآيات من القــرآن، مما يؤسس لمدرسة البناء السياسي للقرآن وعدم شطبه من المعادلات السياسية، فقــد ذكــر حال من مســخهم اللــه قردة من بنــي إسرائيــل، وحكى قصتهم المذكــورة في القــرآن، فلما بلغ آخرها، قال: إن الله تعالى مســخ أولئك القوم لاصطيادهــم الســمك! فكيف ترى، عنــد الله عز وجل، يكــون حال من قتل أولاد رســول اللــه صلى الله عليه وآله وهتــك حريمــه ؟ إن الله تعالى، وإن لم يمســخهم في الدنيــا، فــإن المعد لهم من عــذاب الآخرة أضعاف أضعاف عذاب المســخ[٢].

١- الاحتجاج، ص٣١٩.

٢- الاحتجاج، ص٣١٢.

إن هذا التفسير للإمام زين العابدين عليه السلام هو أكثر من مجرد تعليم وتفسير للقرآن، بل هو ذروة في التثقيف والمعارضة للنظام القائم، ولا ريب أن ذلك يعتبر تحديا خطيراً للدولة الأموية، مما يشير إلى أن العمل السياسي المعارض للدولة الظالمة لا يقتصر على شهر السيف، بل ربما يكون تفسير القرآن وشرح معانية على خلاف هوى السلطان أشد عنفاً وخطراً من شهر السيف. وقد استطاع الإمام زين العابدين عليه السلام أن يجمع عدداً كبيراً من طلاّب المعرفة الذين عُرفوا بالقرّاء، باعتبار أنّ قراءة القرآن وحفظه وتعليم تفسيره كانت هي المحور في التعلّم والتعليم حينذاك، فاحتف القرّاء والفقهاء والعلماء بالإمام عليه السلام بنحو لا نجد له نظيراً في غيره من العصور، فإن القرّاء كانوا لا يفارقونه في حضر أو سفر حتى قال سعيد بن المسيّب:» إن القرّاء كانوا لا يخرجون إلى مكّة حتى يخرج عليّ بن الحسين، فخرج وخرجنا معه ألف راكب[١].

ألإمام يخوض معركة التأويل:

وأشاد الإمام زين العابدين قواعد التوحيد الإلهي وأجاب على الشبهات التي كان يثيرها دعاة الجبر والتجسيم والتشبيه والإرجاء. فقد كانت مرحلة التنزيل قائمة على تثبيت التوحيد، ومحو آثار الوثنية، وكسر أصنام الجاهلية. وأما دوره في مرحلة التأويل فقد دارت رحا أحد محاوره حول مواجهة عقيدة تجسيم الإله وتشبيهه بالخلق، والدعوة إلى التوحيد في الذات والصفات، والتنزيه عن كل ما يمت إلى المخلوقات، وكان الاتجاه القبلي قد استولى على قيادة الأمة وهي تتلمس الطريق في أول وعيها، وأبعد أهل البيت عن هذه القيادة، ثم ابتدع الفتوحات وأخرج أمة العرب باكراً من ديارها قبل أن تتعلم دينها وقرآنها وسنة نبيها، فتعثرت الخطوة الأهم بعد نقل الأمة من الوثنية إلى التوحيد، ألا وهي توضيح وتفصيل

١- اختيار معرفة الرجال، ص١١٧، رقم١٨٧. عوالم العلوم، ص٣٠٣.

وتعميق فكرة التوحيد، فبقيت سطحية قشرية، لم تفارق الوثنية سوى في الشكل، وتحولت إلى تجسيم الإله الواحد وتشبيهه بالخلق. ثم سيطر الإتجاه الجاهلي الذي تسلط على المسلمين في فترة مظلمة من تاريخ الإسلام، حينما تسنم الحزب الأموي أريكة الخلافة، فبدأت معركة ثانية من معارك التأويل، ألا وهي مواجهة عقيدة الجبر، أخطر ما روجته الدولة الأموية، للتمكن من السيطرة على الناس، والهيمنة على أفكارهم، ولعلها أم معارك التأويل العقائدية ذات المضمون السياسي، لأن اعتقاد الأمة بالجبر معناه أنها سوف تعتقد بأن كل ما يجري عليها هو من الله وبإذنه، وبالتالي فإن كل ما يقوم به الخليفة من فساد وظلم وجور وقتل ونهب وغصب، هو من الله، فعلى الأمة أن تستكين للظالم، وتخضع، ولا تحاول التخلص من سيطرته، ولا دفع عدوانه، ولا حتى مجرد التفكير في ذلك، لأن ذلك مخالفة لإرادة الله ومشيئته، فالخليفة والأمير والحاكم والوالي إنما ينفذون إرادة الله، وهم يد الله على عباده ! وهكذا! تموت الأمة عندما تموت شخصيتها وقدرتها على التحرر والتفكير في وجه سلطة الظالم واعتداءاته وتجاوزاته[١].

ولقد خاض أمير المؤمنين عليه السلام وأئمة أهل البيت معركة مواجهة فكرة الجبر بكل قوة ووضوح[٢]، فلما سيطر الأمويون، وقامت دولة معاوية الإرهابية، غسل أدمغة الناس وملك أنفاسهم، وتمكن من عقولهم وأفكارهم، بفعل جيش من القصاصين وعلماء الزور ووعاظ السلاطين، فادعى بأن ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه، ليجعله عذرا في ما يأتيه ويوهم أنه مصيب فيه، وأن الله جعله إماما وولاه الأمر، وكان يقول «لو لم يرني الله أهلا لهذا الأمر ما تركني وإياه ولو كره الله تعالى ما نحن فيه لغيّره»! و«أنا عامل من عمال الله أعطي من أعطاه

١- رسائل العدل والتوحيد، القاضي عبد الجبار في (المغني في أبواب العدل والتوحيد) ص٨٥، ٨٦.
٢- الاحتجاج ص٢٠٨، في احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام.

الله وأمنع من منعه الله ولو كره الله أمرا لغيّره»[١]. فكان أول من انتحل القول بالجبر وأظهره[٢]، وفشا ذلك في ملوك بني أمية[٣]، وبسبب قبول الناس لهذه العقيدة، وعدم معارضتهم لها، لأنهم لم يتلقوا دروس حكمة الإسلام في القرآن والسنة بعد أن أخرجوا من ديارهم باكراً في الفتوحات، ولم يعرفوا إمام زمانهم، حتى يأخذوا منه العقيدة الصحيحة، بل اعتقدوا أنه عمر بن الخطاب أو عثمان بن عفان، أو معاوية أو يزيد بن معاوية! فوقعت الأمة في قبضة الخلطة الأموية بالإسلام، وتمكن الأمويون، وهم في الشام، من تسليط الأمة، وهي في العراق، على الإمام الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وآله، بكل جرأة، ومن دون نكير! كما قال الله تعالى عن فرعون وكيف استطاع أن يستخف عقول قومه ويقنعهم بأنه ربهم الأعلى! فجعل الله تعالى علة ذلك في أنهم كانوا قوماً فاسقين! وهذا هو نفس ما فعله الأمويون، فقد أعلن يزيد في مجلسه وأمام الناس، أن الحسين عليه السلام إنما قتله الله[٤]. والملفت أن عبيد الله بن زياد كان قال قبل ذلك نفس الكلام في الكوفة: أليس قد قتل الله علي بن الحسين ؟ لكن الإمام عليه السلام خاض معركة التأويل وهو في القيد، فلم يترك ذلك يمر بلا رد، بل قال ليزيد: قتل أبي الناس[٥]. وأجاب على إبن زياد بأن أخاه علي بن الحسين قتله الناس وأن الله لا يقتل أحداً بل هو إنما يتوفى الأنفس حين موتها[٦]. فغضب الطاغية وأراد قتله، مستعملاً سلطانه في فرض فكرة الجبر، وأعقب ذلك بأن خاطب الناس، فقال: الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين وحزبه[٧].

١- المنية والأمل ص٨٦.

٢- تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، أبي ريان ص١٤٨، ١٥٠.

٣- رسائل العدل والتوحيد، ج٢ ص٤٦.

٤- الاحتجاج ص٣١١.

٥- الاحتجاج ص٣١١.

٦- القرآن الكريم، سورة الزمر، الآية ٤٢.

٧- الإرشاد، المفيد ص٢٤٤. تاريخ مدينة دمشق، ح٢٥.

التربية والتعليم:

خطّـط الامـام لحركته العلميـة تخطيطاً بارعـاً، فهو بالإضافـة إلى تفرّغه للتعليم، نجده يرسـم للمتعلمين آداب التعلّم والتعليم، فأسس مدرسة علميّة إسـلاميّة عامرة بصنوف المعرفة الإسـلامية، وأوجد حركة فكرية بما بدأه من حلقات البحث والتدريس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وبما كان يثيره في خطبه في صلوات الجُمَع اسـبوعياً، فكان يحدّث الناس بصنوف المعرفة الإسـلامية من تفسـير وحديث وفقـه وعقائد وأخلاق، ويفيض عليهـم من علوم آبائه الطاهريـن، ويمرّن النابهـين منهم على التفقّه والاسـتنباط. وقد تخرج من هذه الحلقة عدد مهمّ من فقهاء المسـلمين، فكانت منطلقا» لما نشـأ بعد ذلك من مدارس الفقه والأسـاس لحركته الناشطة(١).

وحقّق النشـاط العلمي للإمام عليه السلام غاياته المتوخاة، فالمسجد النبوي الشريف ودار الإمام عليه السلام شـهدا طوال خمسـة وثلاثين عاماً، نشاطاً فكرياً من الطراز الأول، حيث اسـتقطب الإمام عليه السلام طلاب المعرفة الإسلامية في جميع حقولها، لا في المدينـة المنـورة ومكّـة المكرمـة وحدهما، وإنما في السـاحة الإسـلامية بأكملها، حتى استطاع عليه السلام أن يخلق نواة مدرسة فكريّة لها طابعها ومعالمها المميّـزة، تخـرّج منها قادة ورواة ومحدّثون وفقهـاء. وبهذه القوة، ليصنع منهم جيلا، متكتلا، متوثبا، طموحا، ثابت الجأش، قوي العزيمة، متماسـك الصف، متحد الهدف.

وقد خرّجت مدرسة الإمام زين العابدين عليه السلام بجهوده وتحصيناته وتعاليمه المركـزة، كوكبة من العلماء الكبار، المتسـلحين بالإسـلام، بعلومه وعقيدته وتقـواه وإخلاصـه، منهم الفقهاء والمفسّرون الذين سـطعت أسـماؤهم في العالـم الإسـلامي وإليهم يعود الفضل في دفع عجلـة الإحياء العلمي في ذلك

١- من مقدمة الشهيد الصدر على الصحيفة السجادية.

العصر الرهيب وما تلاه من عصور، فأصبحوا أمثلة للشيعة، وقدوة صالحة للتعريف لمن يستحق هذا الاسم من المنتمين إلى التشيع، وفي مقدمتهم الإمام أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام، الذي تحمل الإمامة من بعده، وقاد الشيعة، وأسس المدرسة الفقهية على قواعد وأصول، عندما بدأ الحكام بترويج فقه وعاظ السلاطين، فحفظ بذلك الشريعة من الزوال. ومنهم الحسين بن علي الأصغر، الذي روى عن أبيه، واشتهر بالعبادة والصلاح[١]. وأخذ الحديث عن عمته فاطمة بنت الحسين، وأخيه الإمام الباقر عليه السلام[٢]. كذلك كان من أوائل من تتلمذ على يد الإمام زين العابدين ابنه زيد الشهيد عليه السلام[٣]، وسعيد بن جبير، الذي مثل به الحجاج وقتله[٤] وكان قد خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث، يحارب دولة بني أمية وكان يومئذ يقول: قاتلوهم ولا تأثموا من قتالهم، بنية ويقين، على آثامهم قاتلوهم، وعلى جورهم في الحكم، وتجبرهم في الدين، واستذلالهم الضعفاء، وإماتتهم الصلاة[٥].

والذين تواروا عن الأنظار خوفاً من جور بني أمية مثل سالم بن أبي حفصة، وسليم بن قيس الهلالي، وعامر بن واثلة الكناني، ومحمد بن جبير بن مطعم، وكان من ضمن المجموعة التي ثبتت على الإمامة ولم تعصف بها العواصف. ومن الذين هربوا فنجاهم الله مثل أبي خالد الكابلي، وكان من خواصّ الإمام وممّن خدمه دهراً من عمره، وكان بابه وموضع سرّه. وثابت بن أبي صفيّة، أبو حمزة الثمالي، وهو عالم جليل ورع تقيّ تربّى بآداب أهل

١- الإرشاد، المفيد ص٢٦٩.

٢- الإرشاد، المفيد ص٢٦٩.

٣- الإرشاد، المفيد ص٢٦٨.

٤- اختيار معرفة الرجال ص١١٩، رقم١٩٠. بحار الأنوار، ج٤٦ ص١٣٦. مروج الذهب، ج٣ ص١٧٣. الإمامة والسياسة، ج٢ ص٥١. الاختصاص ص٢٠٥.

٥- اختيار معرفة الرجال ص١١٩، رقم١٩٠. بحار الأنوار، ج٤٦ ص١٣٦. مروج الذهب، ج٣ ص١٧٣. الإمامة والسياسة، ج٢ ص٥١. الاختصاص ص٢٠٥. أيام ال٧العرب في الإسلام ص٤٧٨.

البيت عليهم السلام وحمل علومهم ومعارفهم، وأجمع المترجمون على وثاقته وأنه كسلمان الفارسي في زمانه وكانت الشيعة ترجع إليه في الكوفة لإحاطته بفقه أهل البيت عليهم السلام. وشعيب مولى الإمام[1]. والمنهال بن عمرو الأسدي. وآل أعين الذين قال الحجاج فيهم: (لا يستقيم لنا الملك ومن آل أعين رجل تحت حجر)، فاختفوا وتواروا[2].

وأبان بن تغلب بن رباح، أبو سعيد البكري الجريري، وهو كوفي المولد والنشأة، وكان نابهاً ومقدّماً في كلّ فن، من قرآن وحديث وأدب ولغة ونحو. وتتلمذ عند الأئمّة الثلاثة زين العابدين والباقر والصادق عليهم السلام وكان يقول له الإمام الباقر عليه السلام: « إجلس في مسجد المدينة وافت الناس فإنّي أحب أن يرى في شيعتي مثلك»، وألّف أبان في تفسير غريب القرآن وفي فضائل اهل البيت كما روى ما يناهز ثلاثين ألف حديث عن أئمته. لهُ كتابُ صِفِّين، دخل إلى أبي عبد الله عليه السلام، فلما بصر به أمر بوسادة فألقيت له. وصافحه واعتنقه وساءله ورحب به. وكان أبان إذا قدم المدينة تقوضت إليه الحلق، وأخليت له سارية النبي صلى الله عليه وآله. وقال أبو عبد الله عليه السلام لما اتاه نعيه : اما والله لقد أوجع قلبي موت ابان [3].

وإسماعيل بن عبد الخالق: وجه من وجوه أصحاب الأئمة عليهم السلام وفقيه من فقهائهم، روى عن الإمام الباقر وزين العابدين، وأدرك الإمام الصادق عليه السلام وروى عنه، وكان عنده ليلا فدخل عليه الأحول، فدخل به من التذلل والاستكانة أمر عظيم، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: مالك ؟ وجعل يكلمه حتى سكن، ثم قال له : بما تخاصم الناس ؟

١- لاحظ تراجم هؤلاء في كتب رجال الحديث عند الشيعة الإمامية وغيرهم. عوالم العلوم ص٢٧٩.

٢- رسالة أبي غالب الزراري ص١٩٠،الفقرة ٤.

٣- راجع ترجمته بالتفصيل في رجال ابن الغضائري، أحمد بن الحسين الغضائري الواسطي البغدادي ص ١٢٤. معجم رجال الحديث، السيد الخوئي، ج١ ص ١٣٢ – ١٣٣. الفهرست، الشيخ الطوسي ص٥٧.

فأخبره بما يخاصم الناس، ولم يحفظ إسماعيل بن عبد الخالق منه ذلك، فقال أبو عبد الله عليه السلام خاصمهم بكذا وكذا.

وسأل أبو مالك الأحمسي مؤمن الطاق، واسمه محمد بن علي النعمان، أبو جعفر الأحول: ما الذي جرى بينك وبين زيد بن علي في محضر أبي عبد الله؟ قال مؤمن الطاق: قال زيد بن علي يا محمد بن علي بلغني أنك تزعم أن في آل محمد إماما مفترض الطاعة ؟ فقلت له: نعم، وكان أبوك علي بن الحسين أحدهم! فقال زيد : ويحك فما كان يمنعه من أن يقول لي، فوالله لقد كان يؤتى الطعام الحار فيقعدني على فخذه ويتناول البضعة(اللقمة) فيبردها بيده، ثم يلقمنيها، أفتراه كان يشفق علي من حر الطعام ولا يشفق علي من حر النار ؟ فقلت له: كره أن يخبرك فتكفر، فيجب عليك من الله الوعيد، فلا يكون له فيك الشفاعة، ولا لله فيك المشية، فتركك مرجئا لله فيك المشية، وله فيك الشفاعة. فقال لي أبو عبد الله عليه السلام: أخذته من بين يديه ومن خلفه، فما تركت له مخرجا[1].

ورشيد الهجري: من أبطال الإسلام وأعلام الجهاد وقد صلبه الأمويون من أجل عقيدته وولائه لأهل البيت عليهم السلام.

ويحيى بن أمّ طويل المطعمي، الذي عد من القلائل الذين بقوا بعد كربلاء على ولائهم واتصالهم بالإمام زين العابدين عليه السلام[2]، بل هو من حواريه[3]،

١- راجع ترجمته بالتفصيل في معجم رجال الحديث، السيد الخوئي، ج٤ ص٦٣. فهرست اسماء مصنفي الشيعة (رجال النجاشي)، النجاشي ص ٢٧. اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، الشيخ الطوسي، ج١ ص ٣٦٤. ج ٢ ص ٤٢٤ – ٤٢٥. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٤٦، ص ١٩٣. معجم رجال الحديث، السيد الخوئي، ج ٨، ص ٣٦١ – ٣٦٢. ج ١٨، ص ٣٧ – ٣٨. اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، الشيخ الطوسي، ج ٢، ص ٤٢٥ – ٤٢٦. قاموس الرجال، الشيخ محمد تقي التستري، ج ٩، ص ٤٦٦.

٢- اختيار معرفة الرجال، ص١٢٣، رقم١٩٤.

٣- معجم رجال الحديث، ج٢٠ ص٤٢.

وموضع سرّه، وحلقة الوصل بينه وبين الناس. وكان من المجاهرين بالحق، كان يقف بالكناسة في الكوفة، وينادي بأعلى صوته: معاشر أولياء الله! إنا برءآء مما تسمعون. من سب علياً عليه السلام فعليه لعنة الله. ونحن برءآء من آل مروان وما يعبدون من دون الله. ثم يخفض صوته فيقول: من سب أولياء الله فلا تقاعدوه، ومن شك في ما نحن عليه فلا تفاتحوه، ومن احتاج إلى مسألتكم من إخوانكم فقد خنتموه[١]. وكان يدخل مسجد الرسول صلى الله عليه وآله ويقول: كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء[٢]. وقد طلبه الحجاج، وأمر بقطع يديه ورجليه، وقتله[٣].

وقد ذكر المؤرخون مجموعة أخرى من أصحاب الإمام إضافة إلى هؤلاء الرجال، صحبوه واستفادوا منه، وكانوا من أصحاب آبائه، مثل جابر بن عبدالله الأنصاري، وعامر بن وائلة، وقنبر مولى أمير المؤمنين، وكميل بن زياد، وسليم بن قيس.

مواجهة ظاهرة الغلو عند الشيعة

فقد انتصرت دعوة الإسلام، ولم تبرز في الثقافة الإسلامية فكرة الغلو، كتأليه الأشخاص وعبادتهم، ولم تطرح فكرة أن النبي صلى الله عليه وآله كائن فوق البشر، رغم ما أتى به من خوارق ومعجزات، أقلها رحلة الإسراء والمعراج، بل كان ثابتاً عند عامّة المسلمين إستناداً إلى القرآن الكريم أنه سوف يموت، مثله مثل بقية الناس[٤].

وكان أول انعكاس مبكر، لما قام به أهل البيت عليهم السلام من الخوارق والمعجزات، كالنطق بالغيب، ظهر عند أشخاص في منتصف القرن الأول يؤلّهون الإمام

١- الكافي، الأصول، ج٢ ص٢٨١، باب مجالسة أهل المعاصي، ح١٦.

٢- الاختصاص ص٦٤.

٣- رجال الكشي ص١٢٣، رقم١٩٤.

٤- القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية١٤٤.

عـلي، في زمـان خلافته، عندما ادّعـى بعض أنه هو الله، وأنـه أخفى وجهه الكريم بسبب سخطه على عباده[١]، وبعد استشهاده ادّعى جماعة أنه لا يزال حيـاً، ولن يموت قبل أن يخضع له العـرب جميعاً[٢] ويفتح العالم بأسره.

وتجـدّدت هـذه الدعـوى بحقّ ولده محمد بـن الحنفية الذي تـوفي عام ١٨ عندما زعم كثير من أتباعه بأنه لم يمت، ولكنّه اختفى عن الأنظار وسيظهر آخر الزمان ليملأ الأرض قسـطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً[٣]. واعتبرت هـذه الفكـرة مـن قبل السـواد الأعظم من المسـلمين غلـوّاً، فقد عبّر السـيّد الحمـيري (ت حـوالي ٣٧١) عن عقيدته، قبل اعتناقـه مذهب أهل البيت عليهم السلام، بقولـه: «كنـت أقول بالغلو وأعتقد غيبة محمـد بن الحنفية» [٤].

وفي القـرن الثانـي أصبح الإدعـاء بألوهيّة أحد الأئمة، دائمـاً، مقدّمة لادعاء ثـانٍ هـو أن هذا المدّعي هو رسـول ذلك الإمام الإله! مثـل حمزة بن عمارة البربـري[٥]، الذي انفصل عن الكيسـانية، وادّعى أن محمـد بن الحنفية هو اللـه، وأنّه قد أرسـل حمـزة البربري إلى النـاس[٦]. كذلك ادعـى العديد من الأشخاص والجماعات ألوهيّة الإمام الصادق [٧]. أو باقي أئمة أهل البيت[٨].

وكان لجميـع هـؤلاء الأشـخاص والفـرق تفسـير باطني خـاص للشريعة والشـعائر الدينية ينتهي إلى القول بنسـخها وتحليل المحرّمات، ولذلك كان

١- المقالات والفرق ص٢١.

٢- البيـان والتبيـين، الجاحظ، ج٣ ص٨١. مقتل أمير المؤمنين، ابـن أبي الدنيا ص١١٦ و١١٧. فرق الشـيعة، النوبختي ص٤٤،٤٠. المقالات والفرق ص١٩، ٢٠.

٣- الكيسانيّة في التاريخ والأدب، وداد القاضي ص١٦٨.

٤- كمال الدين وتمام النعمة ص٣٣. فرق الشيعة ص٥٢.

٥- الكيسانيّة في التاريخ والأدب ص٢٠٦، ٢٠٨.

٦- فرق الشيعة ص٤٥. المقالات والفرق ص٣٢.

٧- فرق الشيعة ص٥٧، ٥٩. المقالات والفرق ص٥٥،٥١. دعائم الإسلام، ج١ ص٦٢.

٨- رجال الكشي ص٤٨٠، ٥١٨، ٥٢١ و٥٥٥.

أئمــة أهــل البيت عليهم السلام وأصحابهــم يلعنون هــؤلاء لعناً شــديداً، ويُكفرونهم، ويتبرأون منهم في كلِّ مناسبة، ويشجبون أفكارهم، حفاظاً على وجه التشيّع الناصع من تشويهه بهذه الأفكار الكافرة الصادرة من أُناس كانوا يوماً ما عــلى علاقة بالمجتمع الشــيعي ولا زالوا يدّعون الإرتبــاط بالأئمة، فقد حذَّر الإمــام الصادق عليه السلام شــيعته مــن أن يُضل الغلاة شــبابهم عــن طريق الحقّ: «إحذروا على شــبابكم الغلاة لا يفســدوهم، فإن الغلاة شرّ خلق الله... والله إن الغــلاة شرّ من اليهــود والنصارى والمجوس والذين أشركوا...»[١]. ونقل الكثــير من نظائر هذا الكلام الشــديد على المغالــين عن أئمة الهدى[٢]

١- الأمالي، الشيخ الطوسي، ج٢ ص٢٦٤.

٢- قرب الاسناد ص٣١،٦١. رجال الكشي ص٢٩٧، ٣٠٢ و٣٠٦،٣٠٨. الاعتقادات في دين الإمامية، ص١٠٠، ١٠١. الخصال، ج١ ص٦٣. عيون أخبار الرضا، ج١ ص١٤٣ و ج٢ ص٢٠٢، ٢٠٣. بحار الأنوار، ج٢٥ ص٢٦١، ٣٥٠.

الفصل الثالث

نخر بدن الدولة الجائرة.

هـذا هو الجنـاح الثالث للخط الإسـتراتيجي العام لإسـترداد الدولة وقيادة الأمـة بعـد كربلاء، ويقوم على التسـبب في تـآكل النظام الإرهابـي الجائر، الكـسروي أو القيـصري، في كل زمـان ومكان، وتفتيته على كل المسـتويات العقائديـة والفكرية والسياسـية، من الداخل، بجعله قلقـاً مضطرباً لا يهدأ له بال، ويسـتدرج إلى الغضب وبالتالي إلى ارتكاب الأخطاء، فيسـاهم هو في صناعـة أعدائـه وازدياد أعدادهم. ومن الخـارج، بتوجيه الضربات المختلفة لـه، وتفريغه من محتواه الديني، وعدم الإعـتراف به وبشرعيته، مهما كان ثمـن ذلـك غالياً، ومهما بذل الشـيعة من تضحيـات، في أرواحهم وأرزاقهم واسـتقرارهم وأمنهـم! كل ذلك من أجـل تجهيز مقدمات سـقوطه، بحيث يصبح جاهزاً في يوم ما للإنهيار بمجرد توجيه ضربة قوية له، وذلك بطرق مختلفة وأساليب تغايرت وتعددت تبعاً لتغاير وتعدد الزمان والمكان وظرف كل إمـام، ونصت توجيهـات أهل البيت على اتباع هذا الخط إلى أن يرث الله الأرض ومـا عليهـا وتقـوم دولة العـدل الإلهية التي لا يعبـد فيها غير الله.

في مواجهة الدولة الأموية

لـم يظهـر في حياة الإمام زيـن العابدين عليه السلام، بعد فـترة الاسر الاولى، ما يدل على مواجهة صريحة مع الجهاز الحاكم، فالحكمة كانت تقتضي ذلك، لأنه لو اتخذ مثل تلك المواقف التي سوف نشاهدها في حياة الإمام موسى بن جعفر وبعـده مـن الأئمة تجـاه حكام عصره لما اسـتطاع أن يحقق مـا حققه من دفع عملية التغيير دفعة اسـتطاعت أن توفر للإمام الباقر عليه السلام فرصة نشـاط واسع، بل لصُفِّي هو والكتلة الشيعية الضعيفة الملتفة حوله، خصوصا وأن

النزعة الدموية عند السلطة الاموية اتخذت في السنوات الثلاثة عشر الاولى بعدا هستيريا وصل بهم الى استباحة المدينة واتخاذ المسجد النبوي اصطبلا لخيولهم، بل وضربوا الكعبة بالمنجنيق، وبالسلال المليئة بالغائط، إمعاناً في إهانتها والإساءة إليها..

وبعد هذه الفترة، أي بعد سنة ٣٧ هجرية، أحسّ الأمويون من بني مروان بنوع من الطمأنينة، وشعروا بالإستقرار بعد أن استطاع عبد الملك بن مروان القضاء على دولة عبد الله بن الزبير، فاستقر الحجاز! ثم استطاع خلال الفترة المتبقية من حكمه الذي استمر عشرين عاماً أن يقمع كل المعارضين في العراق، فحكم العالم الإسلامي بالحديد والنار ومنطق الإرهاب! فقد قال له رجل: أُناظرك وأنا آمن ؟

قال : نعم!

فقال : أخبرني عن هذا الأمر الذي صار إليك أبنص من الله ورسوله ؟

قال : لا !

قال : اجتمعت الأمة فترضّوا بك ؟

قال : لا !

فقال : فكانت لك بيعة في أعناقهم فرضوا بها ؟

قال : لا !

قال : فاختارك أهل الشورى ؟

قال : لا !

قال : أفليس قد قهرتهم على أمرهم، واستأثرت بغيثهم، دونهم ؟

قال : بلى!

قال : فبأي شيء سُميت أمير المؤمنين ؟ ولم يؤمرك الله ورسوله ولا المسلمون؟

قال له: أخرج عن بلادي وإلاّ قتلتك؟

قال : ليس هذا جواب أهل العدل والإنصاف، ثم خرج عنه[١].

وكان عبد الملك بن مروان يخطب الناس بمكة، فلما صار إلى موضع العظة من خطبته، قام إليه رجل فقال له : مهلاً مهلاً، إنكم تأمرون ولا تأتمرون، وتنهون ولاتنتهون، وتعظون ولا تتعظون، أفاقتداء بسيرتكم أم طاعة لأمركم ؟ فإن قلتم اقتداءً بسيرتنا فكيف يقتدى بسيرة الظالمين، وما الحجة في اتباع المجرمين الذين اتخذوا مال الله دولاً، وجعلوا عباد الله خولاً، وإن قلتم أطيعوا أمرنا، واقبلوا نصحنا، فكيف ينصح غيره من لم ينصح نفسه ؟ أم كيف تجب طاعة من لم تثبت له عدالة ؟ وإن قلتم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها، واقبلوا العظة ممن سمعتموها، فلعل فينا من هو أفصح بصنوف العظات وأعرف بوجوه اللغات منكم، فتزحزحوا عنها وأطلقوا أقفالها وخلّوا سبيلها، ينتدب لها الذين شردتموهم في البلاد، ونقلتموهم عن مستقرهم إلى كل واد، فوالله ما قلدناكم أزمة أمورنا، وحكمناكم في أموالنا وابداننا وأدياننا، لتسيروا فينا بسيرة الجبارين، غير أنا بصراء بأنفسنا لاستيفاء المدة وبلوغ الغاية وتمام المحنة، ولكل قائم منكم يوم لا يعدوه، وكتاب لابدّ أن يتلوه، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون!

فقام إليه بعض أصحابه المسالح، فقبض عليه، وكان آخر عهدنا به، ولا ندري ما كانت حاله[٢].

ووصلت الفتوحات إلى ذروتها في عهد الوليد بن عبد الملك، بدون أن يشارك أهل الشام والأردن في المراحل الأولى للفتوحات التي قام بها بصورة

١- بحار الأنوار، ج ٤٦ ص ٣٣٥. عن كتاب أعلام الدين، الديلمي.

٢- بحار الأنوار، ج ص٤٦ ص ٣٣٧

رئيسة أهل المناطق (عراقيون، وخراسانيون، وبربر، وأفارقة الشمال)[١]، فقد كانت سياسة الأمويين تتعمد إرسال المجموعات المشاكسة إلى البلاد الجديدة المفتوحة[٢].

ومع سيطرة الإرهاب الأموي واستقرار البلاد أمنياً وسياسياً، وانتقال الدولة الأموية إلى الهجوم على خطوط الثغور، حيث انجزوا إكمال السيطرة على الشواطيء الجنوبية للبحر المتوسط، والتي هي شواطيء أفريقيا الشمالية ثم عبروا إلى اسبانيا وفتحوا بلاد الأندلس، ووصلت الدولة الأموية في الشرق إلى آسيا الوسطى والهند. فتدفقت الأموال والغنائم والأسرى والسبايا، ما أدى إلى انشغال الأمويين باللهو والملذات التي تصاحب الشعور بالإقتدار والجاه، قلّت حساسيتهم تجاه أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذا العصر، وأصبح الإمام عليه السلام وأتباعه في مأمن تقريباً من مطاردة الجهاز الحاكم، فكان من الطبيعي أن يقطع الإمام زين العابدين عليه السلام خطوة رحبة في ظل هذه الظروف على طريق تحقيق أهدافه، ويدفع بالتشيع نحو مرحلة جديدة.

وكانت باكورة أعماله في المدينة عندما ألقى خطاباً في أهلها لدى عودته من الشام والعراق وأنهاه بوصفٍ في منتهى الدقّة عن الجرائم التي ارتكبها جيش السلطة الأموية في حق أهل البيت عليهم السلام ؛ فإن الرسول صلى الله عليه وآله لو كان يأمر هؤلاء بالتمثيل بأهل البيت عليهم السلام وتعذيبهم لما كانوا يزيدون على ما فعلوا، فكيف بهم وقد نهاهم عن التمثيل بالكلب العقور، وكيف يمكن توجيه كلّ ما فعلوه وقد أوصاهم النبيّ بحفظه في عترته، ولم يطالبهم بأجرٍ للرسالة سوى المودّة في قرباه؟!.

١- تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ٣٧.

٢- تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ٦٤٤.

على سبيل المثال، عرض الحجّاج العفو بعد معركة دير الجماجم على مؤيدي ابن الأشعث الذين وافقوا على الانضمام إلى فتوحات قتيبة بن مسلم.

ثم أسس الإمام عليه السلام المدرسة الكبرى للمقاومة السياسية والتي سوف تتناقلها الأجيال بعده عبر التاريخ إلى يومنا هذا، فتسقط بها التيجان وتتزلزل العروش، ألا وهي إحياء ذكرى عاشوراء، فراح يؤجج نيران الغضب والنقمة في الصدور، وورث أهل البيت عليهم السلام بعده إدارة هذه المدرسة وتزويدها بالطاقة المادية والمعنوية حتى تستمر، وقد كان لها أبلغ الأثر في دك ملك بني أمية وفي نشر روح الإسلام الثوري والمناهض للظلم، والبكاء بذاته مشروع مطلقاً، فمرت هذه المدرسة من بين سيوف الإرهاب والقمع وثبتت نفسها ثم أخذت تنظم الجماهير في صفوفها وتنخر بدن الظالمين. لكن الإمام عليه السلام كان يتابع الشأن السياسي للدولة الأموية وما يحدث فيها من تقلبات وكان يعبر عن رأيه أمام رجالات ليسوا من شيعته، ويدخل معهم في محاورات حادة، ويتابع مجريات الأحداث، ويدلي بتصريحات بشأن الأوضاع الفاسدة التي تعيشها الأمة، وفساد الدولة، وقد اعتاد على أن يجلس كل ليلة في مؤخر مسجد النبي صلى الله عليه وآله، بعد العشاء الآخرة، فيجلس معه من يشاء من الناس فيتحدث إليهم في مختلف المواضيع، وكان ممن يجالسه عروة بن الزبير، فيتحدث معه بصراحة عن مظالم الأمويين، وهو يعلم قطعاً أن عروة، وهو من أعداء أهل البيت[1] عليهم السلام، كان مؤيداً للأمويين في حربهم مع أخيه عبد الله بن الزبير، فربما تكون هذه الحادثة بعد القضاء على عبد الله بن الزبير، وكان آخرون من الذين يجالسونهم ينصتون لهذه الأحاديث، مثل عبد الله بن حسن، وفي ليلة تحدثا، فذكرا جور من جار من بني أمية، والمقام معهم، وهما لا يستطيعان تغيير ذلك ! ثم ذكرا ما يخافان من عقوبة الله لهم ! فقال عروة للإمام عليه السلام: يا علي، إن من اعتزل أهل الجور، والله يعلم منه سخطه لأعمالهم، فكان منهم على ميل ثم أصابتهم عقوبة الله رجي له أن يسلم مما أصابهم.

١- تنقيح المقال، ج٢ ص٢٥١.

فخـرج عروة، فسـكن العقيق، وخرج عبد الله بن حسـن فنزل سـويقة[١]. ولكـن الإمـام زين العابديـن عليه السلام لم يخرج، بـل آثر البقـاء في المدينة طوال حياتـه[٢] لأن المدينة وأهلها كانت مركز معركته ضد الحكم الأموي، وهناك يتصـل بشـيعته القادمين إليها مـن مختلف الأصقاع! فخروجـه من المدينة بمثابـة الفرار من الزحف، وإخلاء السـاحة للظالمين.

والمعركـة في النهايـة هي معركة صبر وتحمل، ولا بد مع الجهاد والصبر أن تزول دولة الباطل، كما يعبر الإمام عليه السلام: إن للحمق دولة على العقل، وللمنكر دولة على المعروف، وللشر دولة على الخير، وللجهل دولة على الحلم، وللجزع دولـة عـلى الصـبر، وللخرق دولة عـلى الرفق، وللبؤس دولـة على الخصب، وللشـدة دولة على الرخاء، وللرغبة دولة على الزهد، وللبيوت الخبيثة دولة على بيوتات الشرف، وللأرض السبخة دولة على الأرض العذبة. فنعوذ بالله من تلك الدول، ومن الحياة في النقمات[٣].

والدولة هي الغلبة والاستيلاء، ونشوء السلطة الحاكمة، ومقصود الإمام عليه السلام بالبيوتـات الخبيثـة التي لها السـلطان في عصر الإمام هي دولـة بني أمية، والبيوتـات الشريفـة المغلوبة في عصره هي أهل البيت عليهم السلام! والتعوذ بالله من دولة السـلطان، يعني رفض وجوده، واستنكار سلطته!

لقـد كان موقف أئمة أهل البيت عليهم السلام من الحكام بحيث اسـتدرج من الحكام موقفاً من الأئمة عليهم السلام وشـيعتهم، أمكن لهم به الحفاظ على التشـيع، الذي ما يـزال إلى اليـوم يواجه الحكام على مـدى التاريخ، فقد كانـت التعاليم التي يؤمـن بهـا الشـيعة عـلى النقيض تمامـاً مما يسـعى الحكام لـه، ويعملون من أجله، وكان الشـيعة يجعلون أنفسـهم قرابين لخـط أهل البيت عليهم السلام وهم

١- مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور، ج١٧ ص٢١.

٢- جهاد الشيعة، الليثي ص٢٩.

٣- تاريخ مدينة دمشق، ح١٤٢. مختصر تاريخ دمشق، ج١٧ ص٢٥٥.

يعلمون أن دول الفراعنة والطواغيت ما حاربت مذهباً إلا وخنقته في مهده، وقطعت أوصاله، إلا أن يسير في ركابها، ويدور في فلكها، ويجند نفسه ويحرف تعاليمه لتصبح في خدمتها، فإذا فعل ذلك سقط بسقوطها، وقد كان المعتزلة فرقة قوية في منطقها وكانت تملك هي مقاليد السلطة على مستوى الخلافة الإسلامية كلها، ولكن حين رأت السلطة أنها في غنى عنها، وناصرت خصومها ضدها، سرعان ما أصبحت في خبر كان، وأصبح اصحاب نحلة أهل الحديث، هم المسيطرون، وهم الحاكمون، وبقيت نحلتهم ودامت، وقعدت وقامت، وإن كان الأشعري قد حاول طلاء وجهها ببعض الأصباغ التي لم تستطع التخفيف من بشاعة ملامحها.

وقد لخّص الإمام زين العابدين عليه السلام موقفه من الحكّام الأمويين في الفقرة التالية من دعائه في يوم الجمعة:

«أللهم إن هذا المقام لخلفائك وأصفيائك ومواضع أمنائك في الدرجة الرفيعة التي اختصصتهم بها، قد ابتزّوها حتى عاد صفوتك وخلفاؤك مغلوبين مقهورين مبتزّين يرون حكمك مبدّلاً وكتابك منبوذاً وفرائضك محرّفة عن جهات أشراعك وسنن نبيّك متروكة، اللهم العن أعداءهم من الأولين والآخرين ومن رضي بفعالهم وأشياعهم وأتباعهم..»[1].

وكان موقف الإمام عليه السلام من يزيد، أعتى طغاة بني أمية، هو باكورة عمله السياسي بعد كربلاء، وقد اتصف بالحكمة والدقة، إذ صعّد الموقف في مواجهة يزيد بنحو لا يصل إلى حد الخطر، محاولاً عدم تقديم ذريعة ليزيد للقضاء عليه، وهو الأسير في قصره! فواجهه بالحقيقة، حتى أحرجه أمام الناس، فإطلق يزيد سراحه وسراح الأسرى من آل رسول الله صلى الله عليه وآله بأقل قدر من الخسائر في الهيبة المعنوية للإمام عليه السلام والكرامة لبقية الأسرى، ثم

١- الصحيفة السجادية، دعاؤه في دفع كيد الأعداء يوم الجمعة وعيد الأضحى.

نفّـذ الإمام عليه السلام خطته في العزلة أولاً، ثم البروز فاتحاً بيته لبني أمية، فكانت الأحـداث تمـر به وهو يسـتفيد منهـا في تعزيز مكانته السياسـية في المدينة ثم في المجتمع الإسـلامي العام وسـوف تظهر هيبته ومكانته وارتفاع نجم الإمامـة بعـد كربلاء على يد الإمام زين العابدين عليه السلام في مجموعة من المواقف والأحداث، فأعاد إلى أهل البيت عليهم السلام تلك الهالة من القداسة التي حاول الطغاة الإنقـاص منها في المرحلة الثانية مـن جهاد أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وذاع صيت الإمام عليه السلام في الآفاق، عند شـيعته وعند سـائر الناس، بالكرامة، والإمامـة، والسـيادة والـشرف، والتقى والعلـم والحلم والعبـادة والزهد، ودخل القلوب، وأصبح له من الاحترام والتقدير ما صعّب جداً على بني أمية الإقدام على قتله علناً. حتى أن الأمويين رأوه خيرا لا شر فيه، خصوصاً بعد موقفه الإيجابي من عائلات الأمويين خلال ثورة المدينة، فكتب عبد الملك بن مروان، لما ولي الخلافة، إلى واليه على المدينة الحجاج الثقفي يقول: أما بعد: فانظر دماء بني عبد المطلب فاحتقنها واجتنبها، فإني رأيت آل أبي سـفيان بـن حرب (لما قتلوا الحسـين) لما ولغوا فيها (نزع اللـه ملكهم) لم يلبثوا إلا قليلا. والسلام[1].

لكن الإمام عليه السلام لم يمر بهذه الرسالة بشكل طبيعي، بل بادر إلى إرسال كتاب إلى عبد الملك، يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم... أما بعد: فإنك كتبت يوم كذا وكذا، من ساعة كذا وكذا، من شهر كذا وكذا، بكذا وكذا. وإن رسول الله صلى الله عليه وآله أنبأني وأخبرني، وأن الله قد شكر لك ذلك وثبت ملكك، وزاد فيه برهة. وطوى الكتاب، وختمه، وأرسل به مع غلام له على بعيره، وأمره أن يوصله إلى عبد الملك ساعة يقدم عليه![2]. فالإمام عليه السلام مطلع بالكامل على تاريخ كتابته للرسالة،

١- المحاسـن والمسـاوئ، البيهقي ص٧٨. كشـف الغمة، ج٢ ص١١٢. مـروج الذهب، ج٣ ص١٧٩. الاختصـاص ص٣١٤. بحار الأنـوار، ٤٦ ص٢٨، ١١٩.

٢- كشف الغمة، ج٢ ص١١٢. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٢٩. عوالم العلوم ص٤٢.

باليوم والساعة. ويعلم بما يجري داخل القصر الملكي، وهو متصل مباشرة بالرسول صلى الله عليه وآله، ويأخذ علمه ومعارفه منه مباشرة، فهو الذي أخبره بالرسالة! إذن وصل الإمام زين العابدين إلى الذروة في المقام الروحي والديني والسياسي، فهو يقول لأعلى طاغية أموي في زمانه «أنا متصل بالغيب وأعلم ما يجري داخل قصرك»، لقد استرد الإمام هيبة الإمامة التي حاولوا كسرها في كربلاء واستشهد الإمام الحسين عليه السلام وهو عطشان لا يطلب الماء ويردد هيهات منا الذلة! وهذا المستوى لا يتحمله الملك الأموي الذي ظن أن وقعة الطف قد أنهت هذا المستوى من الإدعاء عند أهل البيت عليهم السلام، فهو استمرار لدعوى النبي محمد صلى الله عليه وآله بالنبوة التي رفضتها قريش، واضطرت للقبول بها طمعاً بالسيطرة على الملك في دولة الإسلام، وهذا أيضاً استمرار لدعوى علي بن أبي طالب عليه السلام بالإمامة، التي رفضتها دولة معاوية وتوجت الرفض بقتل الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء! والذي بلغ به الكتاب الذروة في التحدي هو إخبار الإمام عليه السلام لعبد الملك بأنه متصل بالملأ الأعلى ويتنبأ بالغيب! عندما أخبره أن فعله وتوصيته بآل عبد المطلب مشكور عند الله وأن الله تعالى ثبت بذلك ملكه، وليس خلافته، وزيد فيه برهة! وأقل ما في هذا الكلام عدم الإعتراف بأن عبد الملك خليفة رسول الله، عداك عن التعالي المقصود من الإمام عليه السلام، فحتى لو لم يصبر عليه طاغية جبار كعبد الملك، ولكن الإمام عليه السلام كان يحتاج إليه، إنها الهيبة المجروحة بعد كربلاء. فقد ذبح الإمام الحسين عليه السلام وهو شامخ الرأس ولكن ذل الأسر ومنّ يزيد كان ثقيلاً جداً ليس على الإمام زين العابدين عليه السلام شخصياً وحسب، بل على منصب الإمامة.

ولا ريب أن الإمام عليه السلام كان قادراً على الإكتفاء بموقف صامت من القضية كلها، فقد نهى عبد الملك سفّاحه الثقفي من التعرض لأهل البيت عليهم السلام، وانتهى الأمر، في رسالة كتبها عبد الملك أصلاً للحجاج وليس للإمام عليه السلام، فكان

الإمام عليه السلام يستطيع أن لا يتحرش بالطاغية الأموي، ما يدل على أنه بكتابه هذا يتعمد التعرض لعبد الملك، وخاصة بهذا الأسلوب المثير، فتظاهر عبد الملك بالفرح بكتاب الإمام هو من قبيل رقص المتألم من شدة الوجع! فحتى ولو بعث إلى الإمام عليه السلام وقر راحلته دراهم وثيابا، لما سره من الكتاب[1]، لكن أمراً خطيراً سجل في الديوان الملكي الأموي هو أن كل ما فعله معاوية ويزيد في أهل البيت عليهم السلام أصبح هباء منثورا، فقد عادوا لإحتلال موقعهم المميز كما كانوا. وها هو عبد الملك بن مروان يطوف بالبيت، بخدمه وحشمه وحراسه، ترافقه هيبة الملك وعظمة السلطان! وأنظار الناس متجهة إليه، وهو، لاشك، يتمتع بذلك، ويستشعر الطاووسية في نفسه، لأنه انزعج من رجل يطوف أمامه حول البيت ولا يلتفت إليه, فلا يكترث بوجوده، ولا يأبه به، وفي مرأى ومسمع من الحجيج الطائفين، ما أثار الخليفة، فمن هذا الذي يجرؤ على تحدي احترام الخليفة هكذا! ولم يستطع هذا الجبار أن يتحمل ذلك، فقال لمرافقيه: من الذي يطوف بين أيدينا! ولا يلتفت إلينا؟ فقيل له: هذا علي بن الحسين ! فقطع طوافه، لعظم وقع النبأ عليه، وجلس مكانه، محبطاً، وكأنك أفرغت على رأسه دلواً من الماء البارد! وقطع الطواف على الإمام، وقال: ردوه إلي! فردوه، فقال له، عاتباً عليه مقاطعته له والإعراض عنه، في اعتراف واضح بوزن ومكانة الإمام: يا علي بن الحسين إني لست قاتل أبيك، فما يمنعك من المسير إلي؟

لقد تبرأ عبد الملك من فعلة يزيد، في هزيمة معنوية للبيت الأموي، فهو يتنكر لبعضه، ومن جهة أخرى يمارس عبد الملك اسلوب التقرب والإستدراج، وتدوير الزوايا بينه وبين خصومه، وقد عرف بدبلوماسيته، وبعد نظره، رغماً عن أنه كان أحول العينين!

١- كشف الغمة، ج٢ ص١١٢.

ولكـن الإمـام عليه السلام اعتـبر أن عبد الملك يهدف إلى تسـجيل نقطتـين تنتقصان من هيبة الإمام عليه السلام، ردّه من الطواف لمقابلته وهذا اسـتعمال لقوة السلطان وتعبير عن الغلبة، وسـؤاله عن سـبب عدم مسيره إليه في دمشق وهذا يعني أن الإمـام عليه السلام في الدرجـة الثانيـة بعد عبد الملك، والإمـام عليه السلام هو الذي يجب أن يسـير إلى عبد الملك، وفي هذا تعبير آخر عن الغلبة، فأراد الإمام عليه السلام محو هاتـين النقطتين وإعادة الأمور إلى نصابها الحقيقي عند الطرفين، فقال: إن قاتل أبي أفسـد، بما فعله، دنياه عليه، وأفسـد أبي عليه آخرته، فإن أحببت أن تكون هو، فكن[١].

وبكل حسـم وقوة وشـجاعة، حدد الإمام عليه السلام الحقيقة التاريخية، من انتصر في كربـلاء ومـن هزم، وما هـو مقياس النـصر والهزيمة! لقـد انتصر أهل البيـت عليهم السلام لأنهم ربحوا الآخرة، وخسر قتلتهم الأمويون! ثم أنذر عبد الملك، في تحد سـافر لسـلطان لا يمنعه شـئ من الإقدام على الفتك والقتل والظلم والإبـادة، بأن تكرار ما حصل في كربلاء سـوف يـؤدي إلى نفس النتائج.

وهكذا كان من الطبيعي أن تنعكس التطورات التي حصلت نتيجة السياسة الحكيمـة التي مارسـها الإمام عليه السلام، والجهود المضنيـة التي بذلها بعد عودته مـن كربلاء، اسـتعادة التفاف المؤمنين حوله، والقـوة والقدرة على الوقوف في وجـه الخليفـة، في مواقـف ركزت موقعيته كإمـام، وأبرزته في مقام أبيه وجده، وقائداً وزعيماً للكتلة الشـيعية، فلما بلغ عبد الملك أن سـيف رسـول اللـه صلى الله عليه وآله موجـود عند الإمام زيـن العابدين عليه السلام بعث إليه يسـتوهبه منه[٢]. فأبـى الإمـام عليه السلام! فكتب إليه عبد الملك، يهـدده أن يقطع رزقه من بيت المال إن لم يسلمه سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله، فلم يستجب الإمام عليه السلام لتهديده، وأجابه:

١- بحار الأنوار، ج٤٦ ص١٢٠. إثبات الهداة، ج٣ ص١٥.

٢- إقرأ عن سـلاح رسـول الله صلى الله عليه وآله الموجود عند الإمام عليه السلام حديث أبي خالد الكابلي في مناقب آل أبي طالب، ابن شهرآشوب، ج٤ ص١٤٨.

أما بعد! فإن الله ضمن للمتقين المخرج من حيث يكرهون، والرزق من حيث لا يحتسبون، وقال جل ذكره: (إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)[١] فانظر أينا أولى بهذه الآية[٢].

بعد هذا الجواب الحازم من الإمام عليه السلام، لم يبق أمام عبد الملك، الذي يعلم أن هذا الرابض في المدينة هو وصي الله في أرضه، وهو صاحب هذا الكرسي الذي يجلس عليه عبد الملك، إلا الجد في إزعاج الإمام عليه السلام ومحاولة سلب راحته، والضغط عليه، عبر الإرهاب المباشر واستعمال قوة الطاغوت، فأرسل إلى عامله بالمدينة يأمره باعتقاله وإلقاء القبض عليه، واقتياده إلى دمشق[٣] مثقلاً بالحديد.

وفي اليوم الذي اعتقل فيه الإمام عليه السلام، وارادوا حمله من المدينة إلى الشام، وضعوه في قبة، وأثقل بالحديد، الأقياد في رجليه، والغل في يديه، وقد أحاطت به قوة من الجند، جاء محمد بن شهاب الزهري، واعظ البلاط الأموي، فاستأذن الحراس في التسليم على الإمام عليه السلام، وتوديعه، فأذنوا له، فدخل عليه، فبكى، وقال: وددت أني مكانك، وأنت سالم.

فقال له الإمام: « يا زهري، أو تظن هذا، مما ترى عليّ وفي عنقي، يكربني؟! أما لوشئت ما كان، فإنه وإن بلغ بك وبأمثالك التلهف عليَّ، إنه ليذكرني عذاب الله».

ثم أخرج يديه من الغل ورجليه من القيد، وقال: يا زهري! لا جزتُ معهم على هذا منزلتين من المدينة.

ومشى موكب الجنود الأمويين بأسيرهم المقدس إلى دمشق، ولم تمض إلا أربع ليال، حتى قدم الجنود الأمويون الموكلون به الى المدينة يسألون عنه، وهم يظنون أنه بالمدينة، فما وجدوه.

١- القرآن الكريم، سورة الحج، الآية ٣٨.

٢- عوالم العلوم ص١١٧، مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص٣٠٢. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٩٥.

٣- بحار الانوار، ج٤٦ ص١٤٦، ١٣٠. كشف الغمة، ج٢ ص٧٦، ٧٩.

إجتمع حولهم الناس يسألونهم عن الإمام عليه السلام وكان معهم الزهري! فقال له بعض الجنود: إنا نراه متبوعا، إنه لنازل، ونحن حوله لا ننام، نرصده، إذ أصبحنا فما وجدنا بين محمله إلا حديده. ثم قدم الزهري، بعد هذه الحادثة، على عبد الملك بن مروان، في دمشق، فسأله عن الإمام عليه السلام، فأخبره الزهري بما جرى، فقال له عبد الملك: إنه قد جاءني في يوم فقدوه الأعوان، فدخل علي فقال: ما أنا وأنت ؟

فقلت: أقم عندي.

فقال: لا أحب.

ثم خرج، فوالله، لقد امتلأ ثوبي منه خيفة.

فقال الزهري: يا أمير المؤمنين ! ليس علي بن الحسين حيث تظن، إنه مشغول بنفسه.

فقال: حبذا شغل مثله، فنعم ما شغل به[1].

إن وضع الإمام عليه السلام السياسي قد أصبح بمستوى بالغ الخطورة بحيث يلجئ الدولة إلى اعتقاله وتقييده وتكبيله بالغل، وتطويقه بالحرس، وجلبه إلى عاصمة الدولة، بعد كل ما جرى يبدو أن عبد الملك مال إلى اقتراح الحجاج! ولكن الله عز وجل أذن للإمام أن يبقى على مواقفه التي وقفها، وأن يكون ما أراده الإمام لا ما أراده عبد الملك. فالتجأ الإمام عليه السلام إلى إعمال قدراته الملهمة من الله كإمام للأمة، وولي من أولياء الله المخلصين، فأظهر للملك وللزهري إعجازه الخارق، إن الله تعالى يريد أن يثبت إمامته الإلهية، ويثبت للملك وأعوانه أن علي بن الحسين عليه السلام هو الإمام الحق، والأولى بمقام الحكم الذي يدعيه عبد الملك.

وحينما كتب ملك الروم إلى عبد الملك: أكلت لحم الجمل الذي هرب عليه أبوك من المدينة، لأغزونَّك بجنود مائة الف ومائة الف ومائة الف. كتب عبد

١- حلية الأولياء، ج٣ ص١٣٥. مختصر ابن منظور، ج١٧ ص٢٣٤. مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص١٤٥.

الملك إلى الحجاج أن يبعث إلى زين العابدين ويتوعده ويكتب إليه ما يقول، ففعل، فقال علي بن الحسين عليه السلام: «إنَّ لله لوحاً محفوظاً يلحظه في كل يوم ثلاثمائة لحظة، ليس منها لحظة إلا يحيي فيها ويميت، ويُعِزُّ ويُذل، ويفعل ما يشاء، وإني لأرجو أن يكفيك منها لحظة واحدة. فكتبها الحجاج إلى عبد الملك، فكتب عبد الملك بذلك إلى ملك الروم، فلما قرأه قال: ما خرج هذا إلا من كلام النبوة»[١].

وكان المسجد الحرام يعج بالحجيج، وكان حضور ولي العهد هشام بن عبد الملك، الذي حج في خلافة أبيه، مع الأبهة الملكية والحشد الأموي، وهزيمة عبد الله بن الزبير، آخر من حاول أن يزعزع ملك بني أمية، بعد الإمام الحسين عليه السلام، والمختار، والتوابين، وابن الأشعث، وثورة المدينة، كان كل ذلك يضفي على حضور هشام في موسم الحج طابع حضور الدولة الأموية وهيبتها، فطاف هشام بالبيت، وأراد أن يستلم الحجر الأسود، فلم يقدر عليه من الزحام، فنصب له منبر فجلس عليه، يراقب الحجيج وازدحامهم عند الحجر الأسود! والأمر إلى هنا هيّن وقد يضطر هشام للخضوع لمقتضاه! ولكن الذي فاجأه، وهو يراقب الطواف، إقبال الإمام زين العابدين عليه السلام، عليه إزار ورداء، قد بدا أحسن الناس وجها، وأطيبهم رائحة، وبين عينيه سجادة، كأنها ركبة بعير، فجعل يطوف بالبيت، فإذا هو بلغ إلى موضع الحجر تنحى الناس له عنه، حتى يستلمه، هيبة له وإجلالا. لقد حضر الإمام عليه السلام موسم الحج وهو يعلم بحضور شخصية اموية، وعندما دخل إلى المسجد الحرام للطواف علم أن هذه الشخصية الأموية هي هشام وأنه هناك على منبر وحوله الجلاوزة من أهل الشام، ظاهر للعيان لكل من يدخل إلى المسجد الحرام! فهذا لا يخفى على رجل عادي فكيف برجل بالغ الذكاء

١- مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٢٩٩.

والفطنة وسعة العلم، سريع الملاحظة ودقيقها، مثل الإمام عليه السلام، الذي تجاهل وجود هشام عمداً، وهو يعلم أن ما يقوم به له عواقبه وآثاره، ولكنه كان يقصد عواقب إقدامه الجرئ ذلك. وذاب الإمام عليه السلام في الطواف وفي عبادة الله، وفيما هو يسير في إكمال أشواط الطواف، وبدون أن يقصد ذلك، كانت آثار السنوات الطويلة التي كابد فيها الصعاب، منذ اليوم الذي وصل فيه من كربلاء، والناس يضحكون عليه إذا حدثهم! تغيب ويشرق مكانها انفتاح طريق معرفة الإمام والوصول إلى الإمامة، أمام الناس. بينما كانت الدولة الأموية تنام على أمجاد انتصاراتها، وهي سكرى بخمر عتوها وظلمها ولهوها وبذخها وترفها وطغيانها، فاخترق الإمام جدار كتلة العامة السميك الذي طوّق به الأمويون أهل البيت عليهم السلام، فإذا بالعامة يتجاهلون ولي العهد، ولم يأبهوا به، ولم يفتحوا له طريقا إلى لمس الحجر الأسود، بل تجذبهم هيبة الإمام عليه السلام، فيفرجون له عن الحجر، ليستلمه !

فقال رجل من أهل الشام لهشام، وكان يراقب الطواف أيضاً: من هذا الذي قد هابه الناس هذه الهيبة، فأفرجوا له عن الحجر ؟

فقال هشام: لا أعرفه !

إستفز الجواب الشاعر الفرزدق، الذي قال له عبد الملك يوماً: أورافضي أنت يا فرزدق؟ فقال: إن كان حب أهل البيت رفضا، فنعم[1]. وكان حاضرا في حاشية هشام في الحج، وكان في رقبته دين للحق الذي يمثله أهل البيت عليهم السلام، فأراد أن يؤدي جزءا منه، عله يخفف عن ظهره بعض الأثقال التي يحملها على عاتقه، فقد كان قد مدح معاوية، وعبد الملك بن مروان، وابنه الوليد، ويزيد بن عبد الملك، والحجاج بن يوسف، ومدح هشام وابنه، في أكثر من عشر قصائد، وها هو هشام يتجاهل الإمام عليه السلام غيظاً، ويحاول تعمية أهل

١- المحاسن والمساوئ ص٢١٢، ٢١٣.

الشام عنه، فقد سجل الإمام عليه السلام نقطة أعلى من السلطان الأموي وهي الهيبة في صدور الناس! ما خدش عنجهية هشام، وأغضب حواشيه، فتجاهل الإمام عليه السلام. فاستصعب الفرزدق ذلك التجاهل، وقال: أنا أعرفه!

وانبرى بإنشاد الميمية العصماء، التي طار صيتها في الآفاق، مع الحجيج عندما عادوا إلى مختلف البقاع، حتى أنها وحدها تجري على الألسن، وإلى اليوم، لم يحفظ الناس من ديوان الفرزدق سواها، رفعت ذكره في الدنيا، ويرتجى له بها الرحمة في دار الآخرة[١]:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم   هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله   بجده أنبياء الله قد ختموا
يكاد يمسكه عرفان راحته   ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
من معشر حبهم دين وبغضهم   كفر وقربهم منجى ومعتصم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم   أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت   والأسد أسد الشرى والبأس محتدم[٢]

إن أي حكم سياسي لا يتحمل مثل هذه المواقف التي تحط من كرامة رجال الدولة، وخاصة رجال البلاط، وبهذه الصورة. ولذلك، فإن الأمويين سجنوا الفرزدق على هذا الشعر الذي اعتبروه إهانة للنظام. ومما يؤكد على استهداف الإمام عليه السلام للنظام في هذا التصرف هو أن الإمام زين العابدين عليه السلام سارع إلى الاتصال بالفرزدق في السجن، ووصله بشئ رمزي من المال، مكافأة لموقفه

١- مرآة الجنان، اليافعي،ج١ ص٢٣٩، طبع الأعلمي بيروت عن طبعة حيدرآباد الهند ١٣٣٧.

٢- مختصر تاريخ مدينة دمشق، ج١٧ ص٦،٢٤٧. ديوان الفرزدق، ج٢ ص١٧٨. الأغاني، ج١٥ ص٣٢٧، ج١٥ ص٢٦١. صفوة الصفوة، ج٢ ص٨، ٩٩. الأمالي، الشريف المرتضى، ج١ ص٦٢.

السياسي ذلك. ولا ريب أن في هذا أيضا إعلانا لدعم المعارضة المعلنة من قبل الفرزدق، لا يمكن إغفاله عن سجل الأعمال السياسية التي قام بها الإمام عليه السلام. في نفس هذه الفترة وبينما كان الإمام زين العابدين عليه السلام يهيء بجهاده وصبره الأرضية الصالحة لنشوء وتنظيم الكتلة الشيعية من جديد تحت نظر ومراقبة الحكم الأموي المرواني، نشأ وكبر عمر بن عبد العزيز بن مروان، قبل توليه الخلافة، يسكن المدينة، وكان في شبابه ماجناً مترفاً[١]، من ترفه انه يلبس الثوب بأربعمائة دينار، ويقول: (ما أخشنه)[٢]، وعليه نعلان شراكهما فضة، حتى أن الناس كانوا يعطون الغسال الدراهم الكثيرة حتى يغسل ثيابهم في إثر ثياب عمر بن عبد العزيز، من كثرة الطيب الذي فيها[٣]، وكان، بطبيعة الحال، يراقب أعمال مواطنه في المدينة الإمام زين العابدين عليه السلام، وكان للإمام عليه السلام أيضاً راي فيه، فقد مر به ذات يوم، فقال الإمام عليه السلام لأحد أصحابه: أترى هذا المترف، مشيرا إلى عمر، إنه لن يموت حتى يلي الناس، فلا يلبث إلا يسيرا حتى يموت، فإذا مات لعنه أهل السماء، واستغفر له أهل الأرض[٤]. لقد كان عمر بعيداً عن الخلافة بعد أن أخذ يتوارثها عبد الملك وأبناؤه! ولكن الإمام عليه السلام نقل صورة من الغيب، بأنه سوف يلي وأنه سوف يكون متلوناً في ولايته، بما ينطلي على الناس ويوهمهم أنه صالح وعادل في الحكم، بينما هو سوف يضرب الحق ويثبت الباطل مدة أطول، فقد أوقف سب الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر[٥]، وقد كان عمر نفسه ممن يسب علياً قبل توليه السلطة، حينما كان يتعلم في المدينة[٦].

١- مناقب آل أبي طالب، ج٤ ص١٥٥، ط الأضواء.

٢- الطبقات الكبرى، ج٥ ص٢٤٦.

٣- الأغاني، ج٩ ص٢٦٢.

٤- بصائر الدرجات ص٤٥. دلائل الإمامة ص٨٨. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٢٣، ٣٢٧. إثبات الهداة، ج٣ ص١٢.

٥- الكشكول في ما جرى على آل الرسول، السيد حيدر المعروف بالصوفي، ص وص١٥٦.

٦- الكامل في التاريخ، ج٥ ص٤٢.

وكان سب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أخطر ما تأسست عليه كتلة العامة التي تبعت بني أمية، فشب عليها الصغير وشاب عليها الكبير، ولم ينج من هذه الموبقة إلا النادر من العقلاء، فقد روي عن عامر بن عبد الله بن الزبير أنه سمع ابناً له ينتقص علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال له: لا تنتقص عليا، فإن الدين لم يبن شيئا فاستطاعت الدنيا أن تهدمه، وإن الدنيا لم تبن شيئا إلا هدمه الدين ! يا بني، إن بني أمية لهجوا بسب علي بن أبي طالب عليه السلام في مجالسهم ولعنوه على منابرهم، فإنما يأخذون، والله، بضبعيه إلى السماء مدا، وإنهم لهجوا بتقريظ ذويهم وأوائلهم من قومهم فكأنما يكشفون منهم عن أنتن من بطون الجيف، فأنهاك عن سبه[١].

ثم رفع عمر بن عبد العزيز المنع عن نشر الحديث والسنة، فعمم أمرا بكتابة الحديث وتدوين العلم، وسجل باسمه هذه المأثرة التي لا يزال كثير من المصنفين يمدحونه بها ! إن عمر بادر إلى هذه الأعمال وأمثالها، لتلافي أمر انهدام الدولة الأموية، وقبل أن ينسحب البساط من تحته وتحت قبيلته.

لقد تعرض الإمام زين العابدين عليه السلام لعمر بن عبد العزيز، في وقت مبكر جداً، وهو بعيد عن الخلافة، حتى أنه قد لا يرتجيها لنفسه بعد أن استولى عليها عبد الملك وبنوه، ووصفه بالمترف وبأن حكمه سيكون من باب خداع العامة وأقل ما يدل عليه كلام الإمام عليه السلام هو ذلك الوعي والإدراك العميق للحاكم المتزيي بزي التقى والورع وهو أبعد ما يكون عن ذلك. والإمام عليه السلام بذلك يمارس نهجاً دينياً سياسياً يستند إلى وضوح في الرؤية وأين يقف وكيف ينبغي أن تكون خطته السياسية، فلا شك إذن وهو يؤسس الكتلة الشيعية العتيدة يعلم الصورة السياسية للأوضاع القادمة، وهذا ركن من أركان تأسيس الثقة عند محبيه وشيعته وأنصاره. فقد فسّر الإمام جعفر

١- الأمالي، الشيخ الطوسي ص ٥٨٨، رقم١٢١٧، المجلس٢٥.

الصادق عليه السلام قوله تعالى: (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا)[١] فقال: هم بنو أمية، ويوشك أن لا يحس منهم أحد ولا يخشى... ما أسرعه ! سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول: إنه قد رأى أسبابه[٢].

وفي هذا المستوى من التوازن بين الإمام والدولة الأموية، أدرك الإمام عليه السلام أنه دخل دائرة الخطر الأمني على حياته، فتراخي الأمويين في قتله في السنوات العشرين التي أعقبت كربلاء، سوف ينقلب حتماً إلى توجس وقلق عندهم من تنامي قوة الإمام عليه السلام وقوة الحزب الشيعي، إذن فقرار قتله أصبح على نار حامية عند عائلة دموية قامت على سفك الدماء، عاجلا أو آجلا، خفية أو علنا، وهنا بدأ الإمام عليه السلام في الإنتقال إلى الهجوم. ولاح في الأفق تكرار لمشهد كربلاء، وأخذ الإمام عليه السلام يرمي على الطاغوت الأموي سهامه، والذي بدأ التنازل من كثير من المواقع الاستراتيجية التي كان يحتلها، فقام الإمام عليه السلام بالإشهار بهم، من خلال أعمال أصدق ما يقال فيها إنها الاستفزاز والتحرش السياسي.

إسقاط القناع الديني للنظام الجائر

فمنذ بداية النصف الثاني من القرن الأول الهجري وعندما تحولت الخلافة الإسلامية بشكل فاضح في جميع الجوانب إلى حكومة متسلطة ملكية، كانت المواجهة السياسية القاسية والعنيفة أهم شيء في حياة ائمة أهل البيت عليهم السلام، وكانت تشتد وتتطور دائما بأسلوب يتناسب مع الأوضاع والظروف المستجدة، وكان عماد هذا الاسلوب إظهار العداوة للحاكم الأموي بدون عنف مسلح، ولكن بأشكال من التحدي الشديد له، مع الإستعداد لتحمل أشد ألوان الإبتلاء حتى ولو وصلت إلى القتل.. كالتشهير المتواصل به وبرموزه وسياساته وفضح مواقفه وتصرفاته، وتأييد الحركات الثورية المعارضة

١- القرآن الكريم، سورة مريم، ألآية ٩٨.

٢- مناقب آل أبي طالب، ج٣ ص٢٧٦.

لـه ودعمها. فقد قام أصحاب الأئمة ضـد النظام الحاكم بحركات معارضة كثيرة اختلفت في أشـكالها وأسـاليبها وشـعاراتها، وقد شـكلت بمجموعها عنـصرا تاريخيـا سـاهم في نخر جسـد النظـام الجائر، ونسـتطيع أن نرى نماذجاً منها في كل المراحل التي عاشها الأئمة، كثورة التوابين وثورة المدينة وثـورة المختار بـن عبيدة الثقفي وثورة زيد بن علي في أيام هشـام بن عبد الملك وكذلك الثورات العلوية التي وقعت ضد العباسـيين.

هذا إضافة الى عدد لا يحصى من الانشـطة والمواقف والتحركات الشـخصية المختلفـة الاخـرى، ففـي زمان الإمام زيـن العابديـن أي في ذروة الضغوط والقمع، نرى يحيى بن أم الطويل وهو أحد حواريي الإمام يأتي إلى المسجد مخاطبـاً الناس الذين رضخوا لرجال السـلطة، قارئـاً الآية التي خاطب بها النبي إبراهيم الكفار(كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء) وكذلك كان يخطـب في الناس في كناسـة الكوفـة معترضاً على الأوضاع السياسـية الحاكمة منادياً الناس بصوت عال، وكذلك فعل معلّى بن خنيس حينما خرج لأداء صـلاة العيد بمظهر حزين وكئيب وعليه آثار التفجُع. فصعد الى المنبر مثـل الخطيـب وقـال رافعاً يديه: « اللهـم إن هذا مقام خلفائـك وأصفيائك وموضـع أمنائك.. ابتزوه « (يعني غصب الخلافة).

طرح العقيدة الإسلامية الصحيحة:

والفهـم الصحيـح للقـرآن وبيـان احكامـه وتفسـيره وتأويلـه، ومواجهة التيارات الفكرية والفلسـفية والفقهية المنحرفـة، وتزييف العقائد الباطلة، كعقيدة التشبيه والتجسيم والإرجاء والجبر، وإنكار الحسن والقبح العقليين. بعـد الفتوحات، وإخراج أمة العرب مـن ديارها، واختلاطها بالأمم الأخرى والجاهليات المتعددة، قبل أن تعرف قرآنها وسـنة نبيها، وتتزود بما يقيها عـلى الأقـل أفكار وقيم هذه الأمم، كان من آثـار ذلك أن شرع على مصراعيه

باب المساس بأساس العقيدة الإسلامية، وهو التوحيد والعدل الإلهيين، بدخول شُبَه التجسيم والتشبيه والإرجاء والجبر، التي اعتبرها الإسلام منذ البداية منافية للتوحيد والتنزيه والعدل، على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة أهل البيت عليهم السلام. ولكن فلتان تفسير القرآن من قواعده التي ضبطها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعدم قدرة الناس، بسبب جهلهم، وبعدهم عن أخذ المعارف عن مصادرها التي حددها الله والرسول صلى الله عليه وآله وسلم لها، وخصوصاً حينما بدأ غير العرب بتفسير القرآن، ففهموا ألفاظاً في اللغة العربية، تدل على الأعضاء، كاليد والعين، مضافة إلى إسم الجلالة، على حقيقتها، وفسروها بمعانيها المعروفة عند البشر، بينما هي مجازات مألوفة عند فصحاء العرب في شعرهم ونثرهم، يعبرون باليد عن القوة والقدرة، وبالعين عن البصيرة والتدبير.

وكان الحكّام الأمويون، من أجل السيطرة التامة على الحكم، يدعمون هذه العقائد الباطلة ويساعدونها ويتبنونها ويتسلحون بها، وكان يروّجها لهم علماء البلاط إسناداً لهم ودفاعاً عن حكمهم. فإن لمنصب الخلافة في الإسلام خصائص تجعل الحاكم متميّزاً عن الحكام في أنظمة الحكم الأخرى، فالخلافة ليست جهازاً سياسياً فحسب، وإنما هي جهاز سياسي ديني. وإطلاق لقب الخليفة على الحاكم الإسلامي يؤيد هذه الحقيقة، فهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كل ما كان يمارسه الرسول من مهام قيادية دينية وسياسية في المجتمع، ولذلك فإن الخليفة في الإسلام يتحمل المسؤوليات السياسية والدينية معاً. وقد دفعت هذه الحقيقة الثابتة الخلفاء الذين كانوا ذوي حظ قليل في علوم الدين، أو لم يكن لهم حظ أصلاً، إلى سّد هذا النقص عن طريق رجال دين مسخّرين لهم، ليكون جهازهم الحاكم جامعاً أيضاً للجانبين الديني والسياسي، قادراً على التأثير في أذهان العامة، من أجل إبعادهم عن الحق، واستدراجهم إلى العودة والبقاء على القيم الجاهلية، حتى تجرأوا على إعلان هذه العقائد، في المجالس العامة، بل

حتى في مسـجد رسـول الله ﷺ، وكان المس بعقائد التوحيد مقدمة لكي يكونوا قادريـن متـى مـا أرادوا على أن يغـيّروا ويبدّلوا أحكام الدين وفقـاً لمصالحهم، فاسـتخدموا فقهاء ومفسّرين ومحدّثـين في بلاطهم، وكان هؤلاء يقومون بهذه العملية إرضاءً لأولياء نعمتهم تحت غطاء من الإسـتنباط والإجتهاد ينطلي على عامـة النـاس، وقد ذكر لنا الكتّاب والمؤرخون نمـاذج من إختلاق الحديث ومن التفسـير بالرأي كانت يد القوة السياسية فيها واضحة.

اتخـذ هذا العمل غالباً في البداية، وحتى أواخر القرن الهجري الأول، شـكل وضـع روايـة أو حديث، ثـم راح تدريجياً يأخذ طابـع الفتوى، ولذلك نرى في أواخـر عـصر بني أمية وأوائـل عصر بني العباس ظهـور فقهاء كثيرين استفادوا من أساليب رجراجة في أصول الإستنباط، ليصدروا الأحكام وفق أذواقهـم التي كانت في الواقـع أذواق الجهاز الحاكم.

وقد أُنجزت أيضاً هذه العملية نفسها في حقل تفسير القرآن، فاتجه التفسير بالرأي غالباً إلى إعطاء مفاهيم عن الإسـلام لا تقوم على أسـاس سوى ذوق المفّسر ورأيه المسـتمدّ مـن ذوق الجهاز الحاكم وإرادته، فانقسـمت القوى المؤثرة في العلوم الإسـلامية كالعقائد والفقه والحديث والتفسـير منذ أقدم العصور الإسـلامية إلى تيارين عامين: تيار مرتبط بالعائلة الحاكمة، وتميز بتحريف الأحكام وبتقديم الحقيقة بما يتناسب مع مصالح الجهاز الحاكم. وتيار أصيل أمين، مثّله أهل البيت عليهم السلام، لم يكن يرى مصلحة أرفع وأسمى من تبيين الأحكام الإلهية الصحيحة، ومواجهة الانحرافات، الفكرية، والعقائدية، والفقهيـة، والأخلاقية، والوقوف منها ومن القضايا الحساسـة والمصيرية، موقفـاً صارمـاً. فكان لهم موقف مـن أهل الحديث، ومن المعتزلة، وسـائر الحركات الدينية والفكرية، وكان لهم أيضاً مواقف من فقهاء المذاهب المختلفة، وعلماء السوء، ووعاظ السلاطين. كما كان لهم موقف من الثقافات الوافدة

عن طريق أهل الكتاب، وعن طريق الترجمات لكتب سائر الامم، أو عن طريق اختلاط المسلمين بعد الفتوحات بالأمم الأخرى، وتأثرهم بما عندها من أفكار ومذاهب، وهذا الموقف هو: أن كل ما لا يخرج من هذا البيت فهو زخرف. وكان لأهل البيت عليهم السلام أيضاً مواقف من التحريفات، التي كان يتعرض لها الإسلام من قبل اليهود والنصارى الذين أظهروا الإسلام. ومن قبل القصاصين، وأهل الحديث من طالبي الشهرة والمال. ومواقف من تحريف الحكام والسلاطين للإسلام، ليوافق مذاهبهم ومشاربهم السياسية، ويخدم طموحاتهم، وتوجهاتهم السياسية، ومصالحهم الشخصية، أو القبلية. ولذلك كان هذا التيار الأصيل يصطدم، شاء أم أبى، في كل خطوة من خطواته بالجهاز الحاكم ووعاظ السلاطين، فقد كانت الثقافة الإسلامية تزخر بمظاهر الفساد والبعد الفكري والعقائدي عن الإسلام نتيجة تزوير صورة الفقه والدين عن طريق الوضع في الحديث، والفتيا بالرأي، وتمييع التشريع الإسلامي، بإدخال عناصر غريبة في مصادره كالقياس والإستحسان مما أفقده خاصيته وأصالته الإسلامية، ومحاولات الحكام تشجيع الغلاة والمتصوفة، مما أدى إلى ظهور حركات غريبة، ومبادئ فاسدة، هيأت لها الظروف والأوضاع العامة، كان من آثارها السلبية الخلاف والفرقة بين المسلمين وانقسامهم إلى مذاهب وفرق فقهية وكلامية مزّقت المجتمع الإسلامي وشتتت شمل المسلمين، كما ساعدت على نمو الشك والإلحاد والزندقة والدس والتشويه في عقيدة المسلمين وتشريعهم.

ومن المواجهات التي خاضها أهل البيت عليهم السلام دفاعاً عن ثغور الإسلام، دحض ما قام به أعوان البلاط، في مجال العقائد، من ابتداع قاعدة خاصة بضم أصل (الجبر) الى (إنكار الحسن والقبح العقليين)، بحيث لم تكن نتيجتها العلمية والمنطقية إلا إثبات عدالة الحكام الظلمة، فإذا قيل لهم: هل يمكن عقلاً أن تكون أفظع الجرائم عين العدل؟! أجابوا: لقد أثبتنا في أصل «الجبر» أن الظالمين في

أنفسـهم ليس لهم إرادة، وكل ما يفعلونه فهو بإرادة الله، وأما هذه الأمور التي هي بنظر العقل ظلم فإن الله عز وجل هو الذي يقوم بها في الحقيقة، وبما أن كل ما يفعله الله هو عين العدالة، فعليه يكون كل ما يفعله الظالمون هو عين العدالة أيضاً. فحينما عرض علي بن الحسين عليهما السلام على عبيد الله بن زياد، وهو أسير بعد معركة كربلاء، قال له عبيد الله بن زياد: من أنت؟

فقال: « أنا علي بن الحسين ».

فقال: أليس قد قتل الله علي بن الحسين ؟

فقال له علي عليه السلام: « قد كان لي أخ يسمى علياً، أكبر مني، قتله الناس ».

فقال له ابن زياد: بل الله قتله.

فسكت الإمام عليه السلام، فقال عبيد الله: مالك لا تتكلم ؟

فقال علي بن الحسين عليه السلام: (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)[1] (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَ بِإِذْنِ اللهِ)[2] ».

فغضب ابن زياد وقال: وبك جرأة لجوابي وفيك بقية للرد علي ؟ اذهبوا به فاضربوا عنقه.

فتعلقت به زينب عمته وقالت: يا ابن زياد، حسبك من دمائنا، أما رويت من دمائنا ؟ وهل أبقيت منا أحدا ؟ واعتنقته وقالت: والله لا أفارقه فإن قتلته فاقتلني معه!

فنظر ابن زياد إليها وإليه ساعة ثم قال: عجبا للرحم ! والله إني لأظنها ودت أني قتلتها معه، دعوه فإني أراه لما به، فتركه[3].

١- القرآن الكريم، سورة الزمر، ألآية ٤٢.

٢- القرآن الكريم، سورة آل عمران، ألآية ١٤٥.

٣- شرح الأخبار، القاضي أبي حنيفة النعمان، ج٣ ص١٥٧. الإرشاد، الشيخ المفيد، ج٢ ص١١٦، ١١٧. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر، ج٩ ص١٥٧. الطبقات الكبرى، ج٥ ص٢١٢. تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ٤١ ص٣٦٧. أنساب الأشراف، ج٣ ص٢٠٧. البداية والنهاية، ج٨ ص٢١١.

إذن فيزيد بن معاوية وعبيد الله بن زياد ليس لهم إرادة، وكل ما فعلوه في كربلاء فهو بإرادة الله، وقتل الحسين عليه السلام وسبي أهل بيته وهو ما يراه العقل ظلماً وعدواناً إنما قام به الله عز وجل هو في الحقيقة، وكل ما يفعله الله هو عين العدالة، فيكون كل ما فعله يزيد بن معاوية وعبيد الله بن زياد هو عين العدالة أيضاً!!

فإذا قيل لهم: كيف يمكن أن يكون الظلم عين العدل ؟ يجيبون بأنهم قد أثبتوا بأصل « إنكار الحسن والقبح العقليين « أنه لا يحق للعقل أن يتدخل بأفعال الله وهو بالأصل لا يستطيع أن يفهم ما هو الحسن والقبح والظلم والعدل ؟ بهذه الطريقة من طمس الأعين حرفت عدالة الله التي هي أساس العدالة الإجتماعية وفقدت مفهومها الواقعي، وفسّر الإسلام الذي هو أكبر المدافعين عن الحق والعدالة والمحرومين والمستضعفين في المجتمعات البشرية بشكل ينفع قصور ألف ليلة وليلة، ورفاق السَمَر للسلاطين الظلمة، في حال أن المسلمين الصادقين وحماة الحق والعدالة كانوا يقتلون في أفظع الظروف وتحت أشد أنواع التعذيب المميت، وهذا معاوية، المؤسس لهذا المذهب الذي كانت كل مبتنياته تخرج من حناجر رواة البلاط أصولاً لعلم الكلام، يقول أمام قريش ورؤساء العرب « الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وأنا خليفة الله»، ويقول: « إن الله تعالى أكرم خلفاءه فأوجب لهم الجنة وأنقذهم من النار ثم جعلني منهم وجعل أنصاري أهل الشام الذابين عن حرم الله المؤيدين بظفر الله، المنصورين على أعداء الله «[1]، يعني أن ما أفعله يفعله الله تعالى، وأفعالي أفعال الله والإعتراض علي إعتراض على الله !

وقد كانت مسألة القضاء والقدر مستمسكاً صلباً وقوياً لحكام بني أمية الذين كانوا من المؤيدين الأشداء لمسلك الجبر، وكانوا يقتلون المؤيدين

١- الأمالي، الشيخ الطوسي ص٥.

للإختيـار والحريـة بتهمة أنهم من المعارضين للمعتقـدات الدينية، أو كانوا يرمونهم في السجون حتى عرف في ذلك الوقت أن: « الجبر والتشبيه أمويان والعدل والتوحيد علويان «

وفي مواجهة فكرة التشـبيه والتجسـيم وقف الإمام زيـن العابدين عليه السلام أمام هذا التيار، سـدا منيعـا! يعرض نصوص التوحيـد والتنزيه، مدعومة بقوة الاسـتدلال العقلي، شـاهراً سـيف العلم والعقل، فقد كان في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله ذات يوم، إذ سـمع قوما يشـبهون الله بخلقه، ففزع من ذلك التشـبيه، وارتـاع لذلـك الكفر، ونهض حتى أتى قبر رسـول اللـه صلى الله عليه وآله، فوقف عنده، ورفع صوته يدعو ربه، ما جلب انتباه الراوي، معلناً اسـتنكار ذلك القول، بحضـور أولئك الذين تعمدوا الحضور في المسـجد وتجرأوا على إعلان ذلك، وفي تحـد للدولـة الأمويـة، التي أقل ما سـوف ينسـب إليها أنهـا غائبة عن حمايـة ثغـور عقيدة الإسـلام، إن لـم نقل إنه لا يجرؤ أحـد على إعلان هذه الفكرة المنافية للتوحيد في محضر دولة قوية كدولة بني أمية لولا سـكوتها ورضاها! فقال في دعائه: (إلهي بدت قدرتك، ولم تبد هيبة جلالك، فجهلوك، وقدروك بالتقدير على غير ما أنت به مشبهوك. وأنا برئ، يا إلهي، من الذين بالتشبيه طلبوك، ليس كمثلك شي، يا إلهي، ولن يدركوك. فظاهر ما بهم من نعمة دليلهم عليك، لو عرفوك. وفي خلقك، يا إلهي، مندوحة عن أن يتأولوك. بـل سـاووك بخلقك، فمن ثم لم يعرفوك. واتخـذوا بعض آياتك ربا، فبذلك وصفوك. فتعاليت، يا إلهي، عما به المشـبهون نعتوك)[1].

كمـا ظهرت في القـرن الأول، في بداية العصر الامـوي, عقيدة الإرجاء، التي لعبـت دورا خطـيرا عـلى صعيد مسرح الاحداث السياسـية اثـر الاختلافات حول مقتل عثمان وانقسـام الامة الى فريقين، وظهور فرقة الخوارج الذين

١- كشـف الغمـة، ج٢ ص٨٩. بلاغـة الإمـام علي بـن الحسـين عليه السلام ص١٧.الأمالي، الشـيخ الصدوق، ص٤٨٧، المجلـس ٨٩ موقوفا عـلى الرضا عليه السلام.

يكفـرون عليـا عليه السلام وعثمان والقائلـين بالتحكيم, والامويـين الذين يخالفون الشـيعة ويقاتلونهم ويرون انهم مبطلـون، وكل طائفة تدعي انها على حق وحدها وما عداها كافر. فسـاعدت سلوكية القاعدين ومواقفهم السلبية من الاحداث التي مرت بها الامة الاسلامية, وعدم استعدادهم في نصرة اي فريق مـن الفرق المختلفة، في ظهور ميول سياسـية جديـدة او اراء مذهبية. فكان الارجاء من مخلفاتها، وكان المرجئة هم الورثة لهذا التيار القاعد والمتخاذل المتجسـد بشـخصية سـعد بن ابي وقاص, ومحمد بن مسـلمة الانصاري, واسـامة بن زيد. فظهرت المرجئة لترفع شـعارها تسـالم الجميع ولا تكفر أي طائفـة وتـترك أمرهـم الى الله، وسـموا بالمرجئة لأنهم تولـوا المختلفين جميعـا ورجوا لهم المغفرة ولا يقضـون بحكم على الذين اختلفوا وتنازعوا في الخلافـة, ومـن هذه المواقف وغيرها اسـتطاع البعـض ان يكوّن نظرية كلاميـة أخـذت بالتوسـع في مـا بعد، ترتكز عـلى عدم القضـاء على مرتكب الكبـيرة، وتأخـير الحكـم عليه الى يـوم القيامة، فهو موكـول إلى الله تعالى، ومرجـأ إلى يـوم القيامة. وادّعوا ان الانسـان قاصر عن تشـخيص المصيب والمخطـىء بل يـترك أمر المخطئين الى الله سـبحانه. وان الشـهادة اللفظية بالتوحيـد أو المعرفـة القلبيـة تكفي في الدخـول في عداد المسـلمين, فكل ما يفعله صحيح! فسـاعد هذا الاعتقاد على خدمة السياسـة الاموية والعباسية وأقـر مشروعيتهما فترك الحكام فيما اقترفوه من الاحداث الجسـام الى الله دون القيـام بأي ثورة عليهم أو معارضتهم. وكان معنى ذلك نشـوء فكرة التغاضي وتأجيل محاسبة الحكام والسلاطين عما ارتكبوه من أفعال مخالفة للإسـلام[1]، فكانت هذه المبـادئ تخدم الحكام الجائريـن، ولو بطريق غير مباشر، وتبرر مهادنتهم، وخصوصاً خلفاء بني أمية، فهم مؤمنون، لا يصح

١- الفصل في الملل والنحل، ابن حزم، ج٤ ص٢٠٤.

الخـروج عليهـم، مهما كانـت أعمالهم وتصرفاتهم، بل هـي صحيحة وغير منافيـة للشرع وللتدين بالإسـلام. وكان ديدن المسـلمين محاسـبة الحكام، ومقاومتهم، حتى قتلوا عثمان من أجل بعض مخالفاته الواضحة. لكن بني أميـة بعد أن سـيطروا على الحكم، حرفوا عقيدة الناس، واسـتدرجوهم إلى مهادنتهم، مستمدين بوعاظ السلاطين من أمثال الزهري: فقد ورد في الأثر أن هشـام بن عبد الملك سـأل الزهري قال: حدثنا بحديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: من مات لا يشرك بالله شـيئا دخل الجنة، وإن زنا وإن سرق! فهشـام، إذن، حافـظ للحديـث، لكنه يريد من الزهـري تقريرا عليه وتصديقـا به، وكأنه يقول له: إن مثل هذا الحديث يعجبنا ويفيدنا فاروه لنا. ولم يكذب الزهري هـذا الحديث المجعول من قبل المرجئة، وإنما قال لهشـام: أين يذهب بك، يا أمير المؤمنين ! كان هذا قبل الأمر والنهي[1]. لكن إذا كان قبل الأمر والنهي فلماذا يذكر الزنا والسرقة؟

وقال مبارك بن حسان لعطاء بن أبي رباح: «إن في المسجد عمر بن ذر ومسلم التحات وسالم الأفطس، يقولون من زنا وسرق وشرب الخمر وقذف المحصنات وأكل الربا وعمل بكل معصية إنه مؤمن كإيمان البر التقي الذي لم يعص الله»! محتجين بحديث نقله أبي الدرداء عن رسـول الله «وإن زنى وإن سرق»[2]. حظيـت افكار المرجئة بالدعم الاعلامي والسـياسي من قبل الحكام الامويين ونشـطوا في نـشر افـكار هـذه الفرقـة واذاعتهـا بـين الناس لأنهـا حكمت بمشروعيـة خلافتهـم, وتركـت الحكم فيمـا اقترفوه من الاحداث الجسـام الى اللـه سـبحانه وتعالى, فهـو الذي يحكم بـين عباده بالحق يـوم القيامة وليس لأحد أن يخوض في أعمالهم. وقد نشأت المرجئة نشأة سياسية وكان أعلامها أداة طيعة بأيدي الحكام سـواء كانوا من بني العباس أو بني أمية,

١- ألإستذكار، إبن عبد البر، ج٨ ص ٢٨٤.

٢- التمهيد، ابن عبد البر، ج ٩ ص ٢٥٤ – ٢٥٥

فلـم يتعرض الأمويون للمرجئة بسـوء، كما تعرضـوا للمعتزلة والخوارج والشيعة، فلم ير الامويون اضطهدوا مرجئا لارجائه كما كانوا يضطهدون المعتزلـة لاعتزالهم, والخوارج لخارجيتهم, والشـيعة لتشـيعهم, بل نراهم يستعملون من عرف بالارجاء في أعمالهم كما فعل يزيد بن المهلب بثابت بن قطنة, وهو شـاعر المرجئة. فقد ولاه اعمـالاً من اعمال الثغور[١]. بل أصبح الإرجـاء، كما نقـل الجاحظ عن المأمون العباسي، ديـن الملوك، فقد روي أن المأمـون قـال للنضر بن شـميل : ما الإرجـاء ؟. قال : « ديـن يوافق الملوك، يصيبـون به مـن دنياهم، وينقصون به من دينهـم « قال : صدقت[٢].

وهـذا السـلوك في الظاهـر يـدل عـلى موقف سـياسي محايـد مـن كل الطوائف المخالفـة لهم من الخوارج والشـيعة والمعتزلة حيـث عدوا كل من تأول واجتهد مؤمنـا وان أخطـأ. ولكـن موقف المرجئة هذا لم يكن الا شـعاراً فقط! ولم يكن موقفـاً سياسـياً محايـداً في الحقيقـة! فالمرجئة، الذيـن قالوا بارجاء السـلطان (معاويـة ويزيد) أنذاك الى الله, كانوا يشـكلون أهل العامة وجمهور المسـلمين الذيـن كانـوا في صفـوف جيش معاويـة ويزيد والملـوك الامويين الذيـن قاتلوا الشـيعة, فهذه الفكرة وان كانت تدل في اول ظهورها على التسـالم بين الجميع وارجـاء الاعمـال الى اللـه الا ان ملـوك بني أميـة حيث إنهم لم يجـدوا في الأمة منكرا لهم، هون عليهم الإقدام على الإسـتمرار في تجاوزاتهم، فاسـتباحوا مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحرمه، وقتلوا آلاف الناس، وفيهم جمع من أبناء صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهتكـوا الأعـراض وانتهبـوا الأموال[٣]. وعقبوا ذلـك بالهجوم على الكعبة والمسـجد الحرام وحرم الله الآمن، فأحرقوها وهتكوا حرمتها، وسـفكوا الدماء

١- ضحى الإسلام، ج٣ ص٣٢٤.

٢- البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٧٦.

٣- انظـر كتـب التاريـخ في حوادث سـنة (٦٣ هـ) وتاريخ المدينـة المنورة وترجمة مسـلم بن عقبة، وعبد الله بن الغسيل.

فيهـا، ولـم يرقبـوا في شي عملوه كرامة لأحد، ولا حرمة لشـئ، بشـكل لم يبق مبرر لإطلاق اسم الإسلام والإيمان عليهم. ومع ذلك، يقول المرجئة إنهم الحكام الذين تجب طاعتهم، وإنهم مؤمنون لا يجوز الحكم عليهم بالكفر، ولا التعرض لهـم ولا الخروج عليهم! وأصبـح هذا عقيدة عند العامة اتبعوها مذهبا ومنهجا عقائديـاً، ولـم يقفوا موقـف المعارضة امـام الاحداث الهائلة التـي صدرت من الملوك الامويين، فكان هذا الانحراف، الذي عرض لأمة الإسلام، ردة خفية تمرر باسم الإسلام، ولذلك وقف أئمة أهل البيت عليهم السلام في وجه فكرة الارجاء لما تنطوي عليـه من انحـلال أخلاقي، وترك للقيم الإسـلامية بحجة انـه يكفي في اتصاف الانسـان بالايمان وعداده ضمن المؤمنين اقراره باللسـان أو الاذعان بالقلب ولا تحتـاج وراء ذلك الى شيء من الصوم والصلاة، فقام الأئمة الاطهار عليهم السلام بمبادرة من الإمام الحسـين عليه السلام بالثـورة على يزيد واعتبار جيشـه في كربلاء قوم كفروا بعـد إيمانهم، ثم كانت جهود الإمام زيـن العابدين عليه السلام التي أعقبت إحياء الروح الإسـلامية في كربـلاء، وجعلـت أمر كفر الأمويين وبطـلان حكمهم، أوضح من الشـمس، ولعل ثورة زيد بن علي عليه السلام وموقف أبي حنيفة، المتهم بالإرجاء[١]، من آثار هذه الجهود، فقد كان يرى الأمويين مخالفين لتعاليم الدين، وأفتى بوجوب نـصرة زيـد والخروج معه على اللص المتغلب المتسـمي بـ (الإمـام والخليفة)[٢].

مواجهة وعاظ السلطان:

لقد شـدد الإسـلام النكير على إعانة الظالمـين، واعتبرها ظلمـا وتعديا وتجاوزا للحدود، بل من الكبائر التي توعد عليها بالنار. وقد اعتمد الإمام زين العابدين عليه السلام عـلى هـذه القاعـدة الإسـلامية، وجعلها ركيـزة في مقاومة النظام الفاسـد، وحاول تجريده من سـلاح الوعاظ المحيطين به، المتزلفين، الذين تمرر السـلطة بهـم مـا تقوم به من إجراء، يحسـنون بذلك أفعالها أمام العـوام، ويوقع علماء

١- -للمراجعة تاريخ بغداد، ج١٣. الكنى والألقاب، ج١ ص٥٢.

٢- ضحى الإسلام، أحمد أمين، ج٣ ص٢٧٤.

الـزور على آثامهـا. فكان التصدي لعلمـاء البلاط، وفضـح ادعاءاتهم، ودحض نظرياتهم، والكشـف عن سـوء نياتهم، من أعظم الجهاد وأهم مجالات مقاومة الظالمـين. وكان الإمـام زيـن العابدين، لكونه حامـلا أمينا للتعاليم الإسـلامية الأصيلـة، وقائمـا مخلصا بالشـؤون الدينية الحقة، سـدا منيعـا في مواجهة كل انحراف وتزوير كان يبديه علماء السـوء من وعاظ السـلاطين. ولا ريب في أن مواجهته للدولة الأموية في هذه الجبهة، هي قمة أعماله السياسـية، ومن أخطر أوجه النضال السـياسي. ففي الحديث أن الإمام السـجاد عليه السلام كان يقول: العامل بالظلم، والمعين له، والراضي به: شركاء ثلاثة[١]. وكان يحذر الناس من التورط في أعمـال الظلمة، ولو بتكثير سـوادهم والحضور في مجالسـهم، والانخراط في صحبتهـم، لأن الظالم لا يريد الصالح لكي يسـتفيد من صلاحـه، وإنما يريده: إما لتوريطه في مظالمه وآثامه، أو أن يجعله جسرا يعبر عليه للوصول إلى مآربه وأهدافه الفاسـدة. فكان الإمام عليه السلام يقول: لا يقول رجل في رجل من الخير ما لا يعلـم، إلا أوشـك أن يقول فيه من الشر ما لا يعلـم، ولا اصطحب اثنان على غير طاعـة الله، إلا أوشـك أن يتفرقا على غير طاعة اللـه[٢]. فبعض ظاهري الصلاح يتصور أن اصطحاب الظالمين لا يضره شيئا، وإنما يفيد من خلاله خدمة أو على الأقـل يكفيـه شرا ويدفـع عنه ضررا ! ولكنه تصور خاطـئ، مرتكز على الغفلة عـن الـذي قلناه من اسـتغلال الظالم لصحبـة الصالحين لتوريطهـم، أو تمرير أغراضـه عبر سـمعتهم، وهو لا يصحبهم على أسـاس الطاعة قطعـا، فلا بد أن يتفرقـا عـلى غير طاعة الله أيضا، وهذا أقل الأضرار الحاصلة من هذه المصاحبة الخطـرة. كمـا أن الذي يعيش مع الظالم، ولو لفـترة قصيرة، فإن اصطحابه لا يخلـو مـن كلمات التزلف والمجاملة، والملاطفة بما لا واقع لكثير منه، ولو بعمل مثـل الاحـترام والتبجيل، وهذا كله مما يزيد من غـرور الظالم وهو تصديق لما

١- بلاغة علي بن الحسين عليه السلام ص٢٢٤.

٢- تاريخ مدينة دمشق، ح١٢٨. مختصره ابن منظور، ج١٧ ص٢٤.

يقـول، وتوقيـع على ما يفعل. كمـا أن فيه تغريرا للناس البسـطاء الذين يرون الصالحين في صحبة الظالم، فيعتبرون ذلك تصويبا لتصرفاته، وإسباغا للشرعية عليهـا. بـل، إن مجرد سـكوت مـن يصحب الظالـم، على ما يرى مـن فعله، هو جريمة يحاسـب عليها. وقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام يسـعى بكل الوسـائل من النصح والموعظة والإرشـاد، إلى التخويف والتهديد، إلى الفضح والتشـهير، في سبيل إقناع المتصلين بالأمويين من علماء السوء، ليرتدعوا، ويتركوا الارتباط بالبلاط، هادفا من وراء ذلك فضح الحكام، وتجريدهم عن كل أشكال الشرعية. ومـن أعـلام البلاط الذين ركز الإمـام عليه السلام جهوده في سـبيل قطع ارتباطه بالحكام هو: « محمد بن شهاب الزهري «[١]، الذي أكسبه الأمويون شهرة عظيمة، وروجوا له، ونفخوا في جلده، حتى جعلوه من أوثق الرواة في نظر الناس. بينما كان من المنحرفين عن الإمام علي عليه السلام[٢]. بل كان ينال منه، هو وعروة بن الزبير وهما جالسان في مسجد المدينة[٣]. واشتهر أنه كان يعمل لبنـي أميـة[٤] وكان صاحب شرطتهـم[٥] ويأخذ جوائزهـم[٦]. ولم يزل مع

١- محمد بن مسـلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شـهاب الزهري على ما يظهر من كتب التراجم من المنحرفين عن أمير المؤمنين وأبنائه(عليهم السلام)، كان أبوه مسلم مع مصعب بن الزبير وجده عبيد الله مع المشركين يوم بدر، كان من أصحاب الإمام علي بن الحسـين عليه السلام، ثم انحرف بعد أن أغراه عبد الملك بن مروان بالمنصب والرئاسـة والمال، فأصبح من المقربين لبني أمية يأكل على موائدهم ويضع لهـم الحديـث. وهـو لم يزل عاملا لبنـى مروان ويتقلب في دنياهم، جعله هشـام بن عبـد الملك معلم أولاده وأمره أن يملى على أولاده أحاديث فأملى عليهم أربعمائة حديث. وخدم بنى أمية خمسين سنة، أملى لهم فيها من الأحاديث ما يروقهم، ولا يكون فيه شـئ من فضل علي عليه السلام وولده ومن هنا أطراه علماؤهـم ورفعـوه فوق منزلته بحيث تعجب ابن حجر من كثرة ما نشره من العلم.

٢- -للمراجعة شرح نهج البلاغة، ج٤ ص١٠٢.

٣-شرح نهج البلاغة، ج٤ ص١٠٢. الاعتصام بحبل الله المتين، للقاسم بن محمد بن علي الزيدي، ج٢ ص٢٥٨.

٤- تهذيب التهذيب، ج٤ ص٢٢٥.

٥- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج٢ ص٢٠٣.

٦- الاعتصام بحبل الله المتين، ج١ ص٢٨٥.

عبد الملك وأولاده هشـام وسليمان ويزيد، وقد استقضاه الأخير[١]. وجميع أهل البيت عليهم السلام يجرحونه، ووصفه أهل العامة بإنه قد ابتلي بصحبة الأمراء، وبقلة الديانة، وكان أقرانه من العلماء والزهاد يأخذون عليه وينكرون ذلك منـه. وكان يقـول: أنا شريك في خيرهـم دون شرهم ! فيقولون له: ألا ترى ما هم فيه، وتسكت؟ ولذلك، أيضاً، كانوا يعلنون: «من كان يأتي السلطان، فلا يحضر مجلسـنا»[٢]. وقيل ليحيى بن معين: الأعمش خير أم الزهري ؟ فقـال: برئت منـه إن كان مثل الزهري، إنه كان يعمل لبني أمية، والأعمش مجانب للسلطان، ورع[٣].

ووصفـه خارجة بـن مصعب، حينما قـدم عليه وكان صاحـب شرطة بني أميـة، بأنـه كان يركب وفي يده حربة، وبين يديه النـاس! فقال: قبح الله ذا مـن عالم، وقرر عدم السـماع منـه[٤]. ووصفه علماء العامـة وأئمة الزيدية بأنه كان مدلسـاً[٥]، وأنه كان من أعـوان الظلمة بني أمية، الذين أقروه على شرطتهم[٦]. وولي الخراج لبعضهم[٧]. وهو لسان بني أمية، وفي غاية السقوط. وأرسـل سـليمان بـن هشـام بن عبد الملك إلى سـلمة بـن دينـار، فدخل فإذا سـليمان متكئ، وابن شـهاب عند رجليه، فقال سلمة لابن شهاب: إنك نسيت

١- وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج٣ ص٣٧١.

٢- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج١ ص٥٣٠، ضمن كلام الفزاري، ونقل ابن حجر الكلام في ترجمته في تهذيب التهذيب، ج١ ص١٥٢.

٣- الاعتصام بحبل الله المتين، ج٢ ص٢٥٧. معرفة علوم الحديث، الحاكم النيسابوري ص٥٤.

٤- الاعتصـام بحبـل اللـه المتـين، ج٢ ص٢٥٧. ميـزان الاعتـدال، ج١ ص٦٢٥. الكامـل في ضعفـاء الرجـال، ج٣ ص٩٢٢.

٥- تعريـف أهـل التدليـس ص١٠٩ رقم١٠٢. طبقات المدلسـين، ابن حجـر ص١٥. الجامع لأخلاق الـراوي وآداب السـامع، ج١ ص١٩١، ح١٣١.

٦- الاعتصام بحبل الله المتين، ج٢ ص٢٥٧. دفاع عن السـنة ص٣١. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج١ ص٧، ٥٦٨. حلية الأولياء، ج٦ ص٢٤٩.

٧- جامع بيان العلم، القرطبي، ج٢ ص١٦٠.

اللــه، مــا كل من يرســل إليّ آتيه، فلــولا الفَرَقُ من شرِّكم مــا جئتكم[١] ونفى يحيى بن معين[٢] الوثاقة عن الزهري، وكان بنو أمية وأتباعهم يلعنون عليا عليه السلام على المنابر، وابن شــهاب يســمع ويرى، فلم يغضب ويظهر علمه[٣].

وللــدور الخطــير الــذي تصــدى له الزهــري، وللآثار الســيئة على الإســلام والمســلمين التي ســوف تنجم عن خيانته وانضمامه إلى بني أمية، فقد اهتم الإمــام بتوجيــه نظــره ونظر العلمــاء والمحدثين إلى خطــورة وعاظ البلاط وتوظيف العلم في خدمة أمراء الجور ووضع الحديث لهم، وقد تدرّج الإمام زيــن العابديــن عليه السلام في إلقاء الحجة عــلى الزهري، لكونه أكــبر علماء البلاط، وأعرفهم عند العوام، فأســمعه أولاً المناجاة، وهو يحاســب نفســه ويناجي ربــه، ويقــول: حتام إلى الدنيــا غــرورك: وإلى عمارتها ركونك؟

ولما سأله الزهري: أي الأعمال أفضل عند الله تعالى ؟

فقال عليه السلام: ما من عمل بعد معرفة الله تعالى ومعرفة رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من بغض الدنيا، وإن لذلك لشعبا كثيرة، وللمعاصي شعبا: فأول ما عصي الله به: الكبر... ثم الحســد. فتشــعب من ذلك حب النســاء، وحب الدنيا، وحب الرئاسة، وحب الراحة، وحب الكلام، وحب العلو والثروة، فصرن سبع خصال. فاجتمعن كلهن في حب الدنيا، فقال الأنبياء والعلماء: (حب الدنيا رأس كل خطيئة) والدنيا دنياوان، دنيا بلاغ، ودنيا ملعونة[٤]. ثم نبهه تنبيهاً خاصاً، عندما قارف الزهري ذنبا اســتوحش منه، وهام على وجهــه، فقال لــه الإمام زين العابدين عليه السلام: يا زهــري، قنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شي أعظم عليك من ذنبك. فقال الزهري: (الله أعلم

١- الاعتصام بحبل الله المتين، ج٢ ص٢٥٨. الإمامة والسياسة، ج٢ ص١٠٥ ١١٠.

٢- إختيار معرفة الرجال، ج٢ ص٥٠، رقم٨٠.

٣- الاعتصام بحبل الله المتين، ج٢ ص٢٦٠.

٤- الكافي، ج٢ ص١٣٠. المحجة البيضاء، ج٥ ص٣٦٥.

حيث يجعل رسالته) فرجع إلى ماله وأهله[١]. وكان يقول بعد ذلك: علي بن الحسين عليه السلام أعظم الناس علي منة[٢].

ولكن الزهري كان ممعناً في طريق الغي، فلم يكن أمام الإمام عليه السلام إلاّ أن يصغّره ويستهين به، فقد بلغه عليه السلام أن الزهري وعروة بن الزبير ينالان من الإمام علي عليه السلام، فجاء حتى وقف عليهما، وقال: أما أنت يا عروة، فإن أبي حاكم أباك إلى الله فحكم لأبي على أبيك. وأما أنت يا زهري، فلو كنت بمكة لأريتك كير أبيك[٣].

ولم يكن الإمام يتردد في تكذيب الزهري، الذي قال للإمام يوماً: كان معاوية يسكته الحلم، وينطقه العلم ! فقال الإمام عليه السلام: كذبت يا زهري، كان يسكته الحصر، وينطقه البطر[٤].

ويبدو أن الزهري لم يأبه بكل نصائح وتوجيهات الإمام عليه السلام، فتوغل في دوامة الحكم الغاشم، والتحق بالبلاط الشامي، فلم يتركه الإمام عليه السلام، ووجّه إليه رسالة دامغة، هي مدرسة في مقاومة جور السلاطين المغتصبين للسلطة، وفي تحصين ساحة العلماء من الإنجرار إلى خدمتهم، يصرح فيها بكل أغراضه، ويكشف له، ولأمثاله، أخطار الاتصال بالأجهزة الظالمة، ويدين سلوكه الموالي للبلاط في إدانة صريحة للحاكم الأموي الذي وظّف العلماء والمحدّثين لإضفاء الشرعيّة على سلطته([٥])، وقد روى هذه الرسالة العامة والخاصة[٦]. ورواها ابن شعبة[٧]:

١- مختصر تاريخ مدينة دمشق، ج١٧ ص٢٤٥. كشف الغمة، ج٢ ص٣٠٢. بحار الأنوار، ج٤٦،ص٧.

٢- للمراجعة تاريخ مدينة دمشق، ح١٢٥، ومختصره، ابن منظور، ج١٧ ص٢٤٦.

٣- للمراجعة شرح نهج البلاغة، ج٤ ص١٠٢.

٤- الاعتصام بحبل الله المتين، ج٢ ص٢٥٧. نزهة الناظر ص٤٣.

٥- تحف العقول، رسالة الإمام إلى الزهري.

٦- إحياء علوم الدين،الغزالي، ج٢ ص١٤٣. المحجة البيضاء في إحياء الإحياء، ج٣ ص٢٦٠.

٧- تحف العقول ص٢٧٤. المحجة البيضاء، ج٣ ص٢٦٠.

رسالة الامام السجاد عليه السلام للزهري

قال الإمام عليه السلام في رسالته للزهري: كفانا الله، وإياك، من الفتن، ورحمك من النـار، فقد أصبحت بحـال ينبغي لمن عرفك بها أن يرحمك، فقد أثقلتك نعم الله بما أصح من بدنك، وأطال من عمرك، وقامت عليك حجج الله بما حملك من كتابه، وفقهك من دينه، وعرفك من سنة نبيه محمد صلى الله عليه وآله فرضي لك، في كل نعمـة أنعـم بها عليك، وفي كل حجة احتج بهـا عليك، الفرض بما قضى، فما قضى إلا ابتلى شـكرك في ذلك، وأبدى فيه فضله عليك، فقال: (لئن شـكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)[١].

فانظـر أي رجـل تكون غدا إذا وقفت بين يدي الله ! فسـألك عن نعمه عليك! كيف رعيتها ؟ وعن حججه عليك! كيف قضيتها ؟ ولا تحسبن الله قابلا منك بالتعذيـر، ولا راضيا منك بالتقصـير ! هيهات ! هيهات ! ليس كذلك أخذ على العلمـاء في كتابه إذ قـال: «لتبيننه للناس ولا تكتمونـه[٢]»، واعلم أن أدنى ما كتمت، وأخف ما احتملت أن آنسـت وحشـة الظالم، وسـهلت له طريق الغي بدنـوك منه حين دنوت، وإجابتك له حين دعيت ! فما أخوفني أن تبوء بإثمك غـدا، مع الخونة، وأن تسـأل عما أخذت بإعانتـك على ظلم الظلمة، إنك أخذت مـا ليس لـك ممن أعطاك، ودنوت ممن لم يرد على أحـد حقا، ولم ترد باطلا حـين أدنـاك، وأحببت من حاد الله ! أوليس بدعائهم إياك حين دعوك جعلوك قطبـا أداروا بـك رحـى مظالمهم، وجسرا يعـبرون عليك إلى بلاياهم، وسـلما إلى ضلالتهم. داعيا إلى غيهم، سـالكا سـبيلهم، يدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم. فلم يبلغ أخص وزرائهم، ولا أقوى أعوانهم إلا دون ما بلغت من إصلاح فسـادهم، واختلاف الخاصة والعامة إليهم. فما

١- القرآن الكريم، سورة إبراهيم، الآية ٧.

٢- القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية ١٨٧.

أقل ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك، وما أيسر ما عمروا لك في كنف ما خربوا عليك ؟ فانظر لنفسك، فإنه لا ينظر لها غيرك، وحاسبها حساب رجل مسؤول. وانظر كيف شكرك لمن غذاك بنعمه صغيرا وكبيرا ! فما أخوفني أن تكون كما قال الله تعالى في كتابه: (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا[١]). إنك لست في دار مقام، أنت في دار قد آذنت برحيل، فما بقاء المرء بعد قرنائه ؟ طوبى لمن كان في الدنيا على وجل، يا بؤس من يموت وتبقى ذنوبه من بعده. احذر فقد نبئت، وبادر فقد أجلت. إنك تعامل من لا يجهل، وإن الذي يحفظ عليك لا يغفل. تجهز فقد دنا منك سفر بعيد، وداو دينك فقد دخله سقم شديد. ولا تحسب أني أردت توبيخك وتعنيفك وتعييرك، لكني أردت أن ينعش الله ما فات من رأيك، ويرد إليك ما عزب من دينك، وذكرت قول الله تعالى في كتابه: (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)[٢]. أغفلت ذكر من مضى من أسنانك وأقرانك، وبقيت بعدهم كقرن أعضب. انظر! هل ابتلوا بمثل ما ابتليت به ؟ أم هل وقعوا في مثل ما وقعت فيه ؟ أم هل تراهم ذكرت خيرا أهملوه ؟ وعلمت شيئا جهلوه ؟. بل حظيت بما حل من حالك في صدور العامة، وكلفهم بك، إذ صاروا يقتدون برأيك، ويعملون بأمرك، إن أحللت أحلوا، وإن حرمت حرموا، وليس ذلك عندك، ولكن أظهرهم عليك ورغبتهم في ما لديك ذهاب علمائهم، وغلبة الجهل عليك وعليهم، وحب الرئاسة، وطلب الدنيا منك ومنهم. أما ترى ما أنت فيه من الجهل والغرة ؟ وما الناس فيه من البلاء والفتنة ؟ قد ابتليتهم، وفتنتهم بالشغل عن مكاسبهم مما رأوا، فتاقت نفوسهم إلى أن يبلغوا من العلم ما بلغت، أو يدركوا به مثل الذي أدركت، فوقعوا منك في بحر لا يدرك عمقه، وفي بلاء لا يقدر قدره. فالله لنا ولك، وهو المستعان.

١- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية ١٦٨.

٢- القرآن الكريم، سورة الذاريات، الآية ٥٥.

أمـا بعـد! فأعرض عن كل ما أنـت فيه حتى تلحق بالصالحـين الذين دفنوا في أسـمالهم، لاصقـة بطونهم بظهورهم، ليـس بينهم وبين الله حجاب، ولا تفتنهـم الدنيـا، ولا يفتنـون بها. رغبـوا، فطلبوا، فما لبثـوا أن لحقوا. فإن كانت الدنيا تبلغ من مثلك هذا المبلغ، مع كبر سنك، ورسوخ علمك، وحضور أجلـك، فكيف يسـلم الحدث في سـنه ؟ الجاهل في علمـه ؟ المأفون في رأيه ؟ المدخـول في عقلـه ؟ إنـا لله وإنا إليـه راجعون. على من المعـول ؟ وعند من المسـتعتب ؟ نشـكو إلى الله بثنا، وما نرى فيك، ونحتسب عند الله مصيبتنا بك ! فانظر: كيف شـكرك لمن غذاك بنعمه صغيرا وكبيرا ؟ وكيف إعظامك لمن جعلك بدينه في الناس جميلا ؟ وكيف صيانتك لكسوة من جعلك بكسوته في الناس ستيرا ؟ وكيف قربك أو بعدك ممن أمرك أن تكون منه قريبا ذليلا ؟ مالك لا تنتبه من نعسـتك ؟ وتسـتقيل من عثرتك ؟ فتقول: والله ما قمت للـه مقامـا واحـدا أحييت به له دينا ! أو أمت له فيه باطلا ؟ ! فهذا شـكرك من اسـتحملك ؟ ما أخوفني أن تكون كما قال الله تعالى في كتابه: (أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا)[١]. استحملك كتابه، واستودعك علمـه، فأضعتهمـا ! فنحمـد الله الـذي عافانا ممـا ابتلاك به! والسـلام[٢].

هذه الرسالة تدل على سياسة الإمام عليه السلام من جهتين: فأولا: محتواها يدل على أن الإمام كان يراقب الأوضاع بدقة فائقة، فهو يضع النقاط على مواضعها مـن الحروف، ولا تشـذ عنه صغـار الأمور فضـلا عن كبارهـا. وثانيا: إن إرسـال مثـل هذه الرسـالة إلى الزهري، وهو من أعيان علمـاء البلاط، لا بد أن لا تخفـى عـن أعـين الحكام، أو على الأقل يحتمـل أن يرفعها الزهري إلى أسياده من الحكام ! وفي هذا من الخطورة على الإمام الذي أرسل الرسالة ما هو واضح وبين، وقد وصفهم فيها بالظلم والفساد، ونهى، وحذر، وحاول

١- القرآن الكريم، سورة مريم، الآية ٥٩.

٢- روى الرسالة في تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله، ابن شعبة الحراني ص ٢٧٤، ٢٧٧.

صرف الزهري عن اصطحابهم. فالسياسة تطفح من جمل هذه الرسالة. لكن الإمام عليه السلام في هذه المرحلة لا يأبه بكل الاحتمالات، والأخطار المتوقعة، بل يصارح أعوان الظلمة بكل ما يجب إعلانه من الحق، كما صارح الظالمين أنفسهم بالمواجهة، والاستفزاز. وقد وقفنا على شئ من مواجهة الإمام عليه السلام للمتظاهرين بالزهد والصلاح ممن كان يميل باطنا إلى الدنيا، ويحب الرئاسة والوجاهة، وأوضح مصاديق ذلك: هم علماء البلاط ووعاظ السلاطين الذين ارتبطوا بالولاة والحكام، ليستمتعوا باللذات من خلال الحضور معهم، والتطفل على موائدهم. وهذا الموقف عبارة عن كشف زيف الغشاء الذي تلبّس به الحكم المنحرف المتمثّل بتوظيف العلماء في خدمة البلاط، فقام ائمة أهل البيت عليهم السلام بإثبات خوائهم وجهلهم وفضحهم، بمناظرات جادّة تكشف مدى انحراف هؤلاء العلماء المنتمين إلى السلطة والذين حقّقوا بانتمائهم إليها غطاءً مشروعاً لها لدى عامة المسلمين.

لقد عبرّ الإمام زين العابدين عليه السلام عن رأيه الحقيقي في السلطة الحاكمة، ولكن ليس على مستوى المواجهة، بل على مستوى رسالة التقريع الصارخة هذه التي وجهها إلى رجل دين مرتبط بجهاز بني أمية، ونستطيع أن نفهم من الرسالة أن الإمام يخاطب بها الأجيال على مر العصور لا الزهري، لأن الزهري لم يكن بالشخص الذي يستطيع أن يتحرر من الأغلال التي تشده إلى موائد بني أمية وقصاعهم ولهوهم ومناصبهم وجاههم، ولم يستطع بالفعل، لقد قضى عمره في خدمتهم ودوّن كتاباً ووضع حديثاً ليتزلف إليهم.

صيانة الشريعة والأحكام.

يتميز الإمام عليه السلام في نظر الشيعة، بأنه ليس وليا للأمر، وحاكما على البلاد والعباد فحسب، بل هو مصدر لتشريع الأحكام أيضا، باعتبار معرفته التامة بالشريعة وارتباطه الوثيق بمصادرها. والانحراف الذي حصل عن أئمة أهل

البيت عليهم السلام لم يكن من جهة إبعادهم عن قيادة الدولة والحكم، بل كان الأسوأ من ذلك وهو إقصاؤهم عن الإستفادة منهم في أحكام الشريعة! والذين استولوا على الدولة حتى صارت كسروية وقيصرية كانوا يعلمون أن أئمة أهل البيت عليهم السلام هم الأصحاب الحقيقيون لمنصب قيادة الدولة، وهم الذين يمتلكون زمام الفقه والعلم بالشريعة. وكما أبعدوهم عن قيادة الدولة، حاولوا إبعاد الناس عن الإستفادة مما يحملونه من العلم الذي وهبهم الله إياه، إما بإرهاب الناس أو بتبني بدائل فقهية من الصحابة والتابعين، الذين خبطوا في استنباط أحكام الشريعة خبط عشواء، بل تعمدوا مخالفة كل ما يصدر عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، حتى أصبحت معركة هداية الناس إلى المعين الحقيقي للشريعة تكاد تكون هي المعركة الكبرى مع الفراعنة والطواغيت، فكان من أعظم اهتمامات أئمة أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم هو إرشاد الناس إلى هذا المعين الصافي للشريعة الإسلامية. وقد اهتم الإمام زين العابدين عليه السلام بهذا الأمر، فدعا إلى الأخذ من أهل البيت عليهم السلام، لأنهم الأقرب من القرآن والسنة، وهم الثقل الأصغر. قال عليه السلام: وكيف بهم! وقد خالفوا الآمرين، وسبقهم زمان الهادين، ووكلوا إلى أنفسهم، يتنسكون في الضلالات في دياجير الظلمات. وقد انتحلت طوائف من هذه الأمة بعد مفارقتها أئمة الدين والشجرة النبوية إخلاص الديانة، وأخذوا أنفسهم في مخاتل الرهبانية، وتغالوا في العلوم، ووصفوا الإيمان(الإسلام) بأحسن صفاته، وتحلوا بأحسن السنة، حتى إذا طال عليهم الأمد، وبعدت عليهم الشقة، وامتحنوا بمحن الصادقين: رجعوا على أعقابهم ناكصين عن سبيل الهدى، وعلم النجاة يتفسحون تحت أعباء الديانة تفسح حاشية الإبل تحت أوراق البزل[١].

وكان الإمام زين العابدين، إذا تلا قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله

١- الصحيفة السجادية(أبطحي)، ص ٥٣٤. بحار الأنوار، ج٢٧ ص ١٩٣.

وكونـوا مع الصادقـين) يدعو الله عز وجل دعاء طويلا، يشـتمل على طلب اللحـوق بدرجـة الصادقين والدرجـات العلية، ويتضمن وصـف المحن وما انتحلتـه المبتدعة المفارقة لأئمة الدين، والشـجرة النبويـة ثم يقول : وذهب آخـرون إلى التقصير في أمرنا، واحتجوا بمتشـابه القـرآن، فتأولوه بآرائهم، واتهمـوا مأثـور الخـبر فينا، ممـا استحسـنوا، يقتحمون أغمار الشـبهات، وديـاجير الظلمات، بغير قبس نور من الكتاب، ولا أثرة علم من مظان العلم، زعموا أنهم على الرشد من غيهم. الى ان قال : فالى من يفزع خلف هذه الامة ؟ وقـد درسـت اعـلام هذه الملة , ودانـت الامة بالفرقـة والاختلاف , يكفر بعضهم بعضا, واللّه تعالى يقول : (وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْـدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ) [١] فمن الموثوق به على ابلاغ الحجة وتاويل الحكم ؟ الا اعـدال الكتـاب وابناء ائمة الهدى , ومصابيح الدجى , الذين احتج اللّه بهـم عـلى عبـاده , ولم يدع الخلق سـدى من غير حجة , هـل تعرفونهم او تجدونهم الا من فروع الشـجرة المباركـة , وبقايا الصفوة الذين اذهب اللّه عنهم الرجس , وطهرهم تطهيرا, وبرأهم من الافات , وافترض مودتهم في الكتاب، هم العـروة الوثقى وهم معدن التقى[٢].

وقـال عليه السلام لرجـل شـاجره في مسـألة شرعية فقهيـة: يا هـذا ! لو صرت إلى منازلنـا، لأريناك آثـار جبرئيل في رحالنا، أيكون أحد أعلم بالسـنة منا ؟[٣].

وقـال لرجـل من أهل العـراق: أما لو كنـت عندنا بالمدينـة لأريناك مواطن جبرئيـل من دورنا، اسـتقانا النـاس العلم، فتراهم علمـوا وجهلنا ؟[٤].

١- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٢١٣.

٢- كشـف الغمة، ج٢ ص٩٨ – ٩٩. جامع أحاديث الشـيعة، السـيد البروجردي، ج١ ص٤٠. بحار الأنوار، ج٢٧ ص١٩٤.

٣- نزهة الناظر وتنبيه الخاطر ص٤٥.

٤- بصائر الدرجات ص٣٢.

ولكـن الإمـام عليه السلام لم يـترك أولئك المدعـين يذهبون بعيـداً في انحرافهم الذي منيت به الأمة، فاتبعتهم بالتزام شريعة أخذوها من طرق لا تتصل بالقرآن ولا بالسـنة النبويـة. بـل شـن حرباً عـلى مدارسـهم الفقهية، فكان شـديد النكـير عليها، وعلى بدعـة العودة إلى غير أهل البيت من الصحابة والتابعين، ممـن روّجت له الحكومات والدول الظالمة، جزاء لهم على مسـالمتهم للدولة الكسرويـة الجديـدة، وانضوائهم تحت ضلالها. فيقـول عليه السلام: إن دين الله لا يصاب بالعقول الناقصة، والآراء الباطلة، والمقاييس الفاسـدة، لا يصاب إلا بالتسليم. فمن سلَّم لنا سَلِم، ومن اقتدى بنا هدي، ومن كان يعمل بالقياس والـرأي هلـك، ومن وجد في نفسـه، مما نقولـه، أو نقضي بـه، حرجا، كفر بالذي أنزل السـبع المثاني والقـرآن العظيم، وهو لا يعلم[١].

وفي نفـس الوقـت نراه عليه السلام يوضح معالم فقه أهل البيت عليهم السلام ويرسي قواعده، ويغنـي معارفـه، ويزود طلابـه بعلومهم، ويربيهم عـلى قيمهم وأخلاقهم، حتى أقر كبار فقهاء البلاط ووعاظ السـلاطين بأنه ما رأى هاشـميا أفضل منه، وما رأى أحدا كان أفقه منه[٢]، وأنه أفقه أهل البيت عليهم السلام[٣]. وكان ملوك وفراعنة هذه الأمة أبعد الناس عن علم الشريعة وفقه الدين، بل كانت أعمالهم مخالفة لأحكام الله وسـنة الرسـول صلى الله عليه وآله! وإذا كان فقهاء البلاط، وأصحاب المذاهب، يعترفون بهذا المسـتوى من العلم عند علماء أهل البيت عليهم السلام، وبأنهم تتلمذوا على أيديهم، فإن إعلان الإمام زين العابدين عليه السلام عن مذهب أهل البيت الفقهي، والدعوة إلى الالتزام به، سوف يكون أعظم عملية نخر لعظام الدولة الأموية! وتوهين للمذاهب الرسـمية المدعومة من قبلها، والتي تبعها الهمج

١- إكمال الدين وإتمام النعمة ص٣٢٤، ب٣١، ح٩.

٢- مختصر تاريخ مدينة دمشـق، ج١٧ ص٢٤٠. سـير أعلام النبلاء، ج٤ ص٣٨٩ وص٣٩٤. كشف الغمة، ج٢ ص٨٠. صفوة الصفوة، ج٢ ص٩٩.

٣- رسائل الجاحظ ص١٠٦. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١٥ ص٢٧٤.

الرعاع من العوام أتباع كل ناعق ! وكانت معركة «كيفية الوضوء» فقهية في ظاهرها، سياسية في باطنها، فقد كان وضوء الإمام زين العابدين عليه السلام وكل بني هاشم موافقا لوضوء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فلم يكونوا يمسحون على الخفين، ولا يغسلون الرجلين، بل يدعون إلى مسح الأرجل، واعتبروا الغسل الثالث للأعضاء وغسل الرجلين بدعة وليس من فعل رسول الله، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: هذا وضوء من لم يحدث. و»لو كان الدين بالرأي لكان باطن القدم أولى بالمسح من ظاهره، إلا أني رأيت رسول الله توضأ هكذا «. ولم يكتف الحزب الشيعي بممارسة المسح بدلاً من الغسل للرجلين في الوضوء بل نقل المعركة إلى بعدها السياسي، حتى أصبحت ظاهرة الغسل حكومية، أموية وعباسية، ولم تكسب شرعيتها من القرآن، وظاهرة المسح شرعية قرآنية نبوية اختص بها الحزب الشيعي! الذي جهر باعتراضه على من يذهب إلى الغسل، وعلى من نسب الغسل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله كإعتراض ابن عباس على الربيع بنت معوذ، وقوله : (أبى الناس إلا الغسل، ولا أجد في كتاب الله إلا المسح)، فقد أرسل الإمام زين العابدين عليه السلام ابن عمه عبد الله ابن محمد بن عقيل[1] إلى الربيع بنت معوذ ليسألها عن وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله، فوصفت وضوء النبي صلى الله عليه وآله، وقالت: ثم غسل رجليه! وقالت لعبد الله: وقد أتاني ابن عم لك، تعني

١- توفى سنة ١٤٥، وهو أصغر سنا، وموقعا اجتماعيا من الإمام زين العابدين. ولأجل مواقفه نرى محمد ابن سعد يذكره في الطبقة الرابعة، لكنه يترك ابن سعد حديثه مع شهادته بكثرة علمه، فيقول عنه : (منكر الحديث، لا يحتجون بحديثه، وكان كثير العلم). ويقولون: (كان مالك لا يروي عنه). و(لم يدخل مالك في كتبه ابن عقيل)، وهل إن عدم رواية مالك حديثا عنه دليل على ضعفه حقا ؟ فلو كان كذلك فالإمام علي بن أبي طالب هو أول الضعفاء في منطق مالك، إذ ليس لعلي حديث في الموطأ، قيل إنه لما سئل عن ذلك قال : إنه لم يكن بالمدينة! كل ذلك لمواقف العباسيين وعدم ارتضائهم للطالبيين. لقد كان الإمام مالك يستجيب للمنصور في كتابة الموطأ، مع علمه بوجود من هو أعلم منه، فقد قال المنصور له : هل أخذت بأحاديث ابن عمر ؟ فقال : نعم. فقال المنصور : خذ بقوله، وإن خالف عليا وابن عباس! راجع تهذيب الكمال ١٦ ص٨٠، تهذيب التهذيب، ج٦ ص ١٤ عن الطبقات الكبرى. الضعفاء، العقيلي، ج٢ ص٢٩٩. الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي، ج٤ ص ١٤٤٧.

ابـن عبـاس، فأخبرته، فقـال : ما أجـد في كتاب الله إلا غسـلتين ومسـحتين[١]، وهي بذلك أرادت أن تفهمه بأنها ثابتة على رأيها على الرغم من عدم استساغة الحزب الشيعي لما قالته. ولم تكن حركة الإمام زين العابدين عليه السلام لأجل الوقوف عـلى كيفيـة الوضوء، إذ لا يعقل أنـه لا يعرفها، وهو إمام المسـلمين وفقيه أهل البيـت عليهم السلام! بـل هو الإمام المعصـوم[٢]، الذي كان إذا توضأ اصفـر لونه، فيقول لـه أهلـه : ما هذا الذي يغشـاك ؟ فيقـول : أتدرون لمن أتأهـب للقيام بين يديه ؟[٣]. كمـا لم يرسـل عبـد الله بن محمد بن عقيل إلى الربيع ليسـألها عن وضوء رسـول اللـه، ليأخذ منها، على سـبيل التعلـم، فعبد الله بن محمـد بن عقيل ابن زينـب الصغـرى، بنـت أمير المؤمنـين عليه السلام، فلا بد أنـه يعرف الوضـوء ؟ بل هو اسـتفهام إنكاري من الإمام على ما تدعيه، وليس حقيقيا، كأنه يقول لها: كيف بنـا، ونحـن أهـل البيت، لا نعرف مـا تروينه عن رسـول الله صلى الله عليه وآله! كمـا لم يأت الإمام إليها بنفسه، فهو لا يريد أن يعطي لوضوئها المشروعية بمجيئه إليها، بل أرسـل عبد الله، وهو يومئذ صغير السـن، للتدليل عـلى اعتراضه على هذا الأمر، وعلى تميّز الحزب الشـيعي، ليس فكريا وسياسـياً فحسب، بل وفقهياً أيضاً[٤].

شهادة الإمام علي بن الحسين(زين العابدين) عليه السلام

اسـتفاد عبـد الملك من التجربـة الخاطئة للحكم السـفياني تجاه أهل البيت، فاسـتعمل سياسة مرنة تجاه الإمام زين العابدين والهاشميين من بني عبد المطلـب من جهة بينما شـدّد عـلى أتباعهم من جهة ثانيـة، وذلك امتصاصاً للنقمة ضد حكمه.

١- السـنن الكـبرى، البيهقـي، ج١ ص٧٢. مقدمـة موطأ مالـك والتراجم عن الإمام مالـك. الطبقات الكـبرى، ج٤ ص١٤٧.

٢- تهذيب الكمال ٢٠ ص٣٨٦.

٣- مختصر تاريخ دمشـق، ج ١٧ ص ٢٣٦، سـير أعلام النبلاء، ج٤ ص ٣٩٢، الطبقات الكبرى، ج٥ ص٢١٦. حلية الأولياء، ج٣ ص ١٣٣، تهذيب الكمال، ج٢٠ ص ٣٩٠.

٤- تحريم ذبائح أهل الكتاب، الشيخ المفيد ص ٢، ٦.

ولا تعني مرونته هذه تجاه الإمام أنه كان يحترم الإمام واقعاً ولا يمسّه بسوءٍ أبدا، وإنما اجتنب مظاهر الخشونة التي تولّد بطبيعتها ردة فعل شعبية عنيفة، فقد كتب الحجاج بن يوسف إلى عبد الملك بن مروان:»إن أردت أن يثبت ملكك فاقتل علي بن الحسين»! فكتب عبد الملك إليه: أما بعد فجنبني دماء بني هاشم واحقنها فاني رأيت آل أبي سفيان لما أولغوا فيها لم يلبثوا إلى أن أزال الله الملك عنهم!

وبعث بالكتاب سرا أيضاً، فكتب الإمام علي بن الحسين عليه السلام إلى عبد الملك في الساعة التي أنفذ فيها الكتاب إلى الحجاج: «وقفت على ما كتبت في دماء بني هاشم وقد شكر الله لك ذلك، وثبت لك ملكك، وزاد في عمرك».

وبعث به مع غلام له بتاريخ الساعة التي أنفذ فيها عبد الملك كتابه إلى الحجاج، فنظر عبد الملك في تاريخ الكتاب فوجده موافقا لتاريخ كتابه، فلم يشك في صدق زين العابدين عليه السلام ففرح بذلك وبعث إليه بوقر[1] دنانير وسأله أن يبسط إليه بجميع حوائجه وحوائج أهل بيته ومواليه، وكان في كتابه عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أتاني في النوم فعرفني ما كتبت به إليك وما شكر من ذلك[2].

وهكذا! بالرغم من توفر عوامل الانهيار صمد حكم الأمويين. ولكن سياسة عبد الملك هذه البعيدة النظر والمتبصرة في الأمور، رغم أنه كان أحول العينين! لم يطبقها بنو امية بعده حتى تغلّبت عناصر الهدم على عناصر الصمود، حيث أولغوا أيديهم في دماء أهل البيت عليهم السلام، فالوليد بادر إلى سّم الإمام زين العابدين عليه السلام، فحين قدم إلى دمشق أسيراً استقبله إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله، وهو مغط رأسه وهو في المحمل، وقد قتل الحسين عليه السلام وقال له: يا علي بن الحسين، من غلب ؟

١- الوقر: بالكسر الحمل، مجمع البحرين.

٢- بحار الأنوار، ج ٤٦ ص ٢٨، ٢٩. الخرائج والجرائح ص١٩٤.

فقـال له الإمـام زين العابدين عليه السلام: إذا أردت أن تعلـم من غلب، ودخل وقت الصلاة، فأذن ثم أقم[١].

فقد اعتبر الإمام زين العابدين عليه السلام اسـتمرار الشعائر التي تذكر فيها شهادة التوحيد والرسـالة علنا وعلى رؤوس الأشهاد دليلا على انتصار الحسين عليه السلام وغلبتـه، وكان نجـاح مخططـات الإمـام عليه السلام في إحيـاء التشـيع مـن جديد، والتمهيـد لقيـام أولاده الأئمة بالحركات التجديديـة المتتالية، دليلاً آخر على الإنتصار الحسـيني في كربلاء. فبعد سـنين من العمل الدؤوب الذي قام به الإمـام عليه السلام، في ظـروف موضوعيـة وذاتية حرجة، بحيث يعـد خطره أعظم من الخطر الناجم عن ضرب السيوف وطعن الرماح، تعزز موقع الإمام عليه السلام كقائد إلهي مسـؤول، وإمام هاد للناس، فتمكن من تأسـيس الخطوة الأولى بعـد كربـلاء، نحو بناء الكتلة الشـيعية، التي سـوف تكـون قاعدة انطلاق الأئمـة عليهم السلام من بعده. وعززت أنشـطته الاجتماعية مكانتـه في أنظار الناس، فهو سـليل النبوة، ذو الأخلاق والفضائل العالية، والعالم بالإسـلام.

وهكذا، استرد الإمام عليه السلام عند الأمة تلك المكانة التي أراد الأمويون محوها في كربلاء، وانعكس ذلك في تغيير أسلوبه في العمل السياسي، حيث نجده في الثلث الأخير من حياته يتعامل مع ملوك بني أمية بطريقة مختلفة، فيكاد يعلن عن معارضتهم، بما اتخذه من مواقف حاسـمة تجاههم، وتجاه أعوانهم، وتجاه الحركات السياسية التي عاصرته، فتحدّث الناس بإعجاب عن علمه وفقهه وعبادته، وعجّت الأندية بالتحـدّث عـن صبره وسـائر ملكاته، فاحتـل قلوب النـاس وعواطفهم، وتمتع بشـعبيّة كبيرة، فكان السـعيد من يحظى برؤيته والسعيد من يتشرّف بمقابلته والاستماع إلى حديثه، وقد شقّ ذلك على الأمويّين عامّة وأقضّ مضاجعهم، وكان مـن أعظـم الحاقدين عليه الوليد بن عبد الملـك، الذي قال: « لا راحة لي وعليّ بن

١- الأمالي، الشيخ الطوسي ص٦٧٧، المجلس ٣٧، ح١٤٣٢ / ١١.

الحسين موجود في دار الدنيا»[١]. فأجمع رأيه على اغتيال الإمام حينما آل إليه الملك، فبعث سمّاً قاتلاً إلى عامله على يثرب، وأمره أن يدسّه للإمام[٢]، ونفّذ عامله ذلك. فلما حضرته الوفاة جمع أولاده محمدا والحسن وعبد الله وعمر وزيدا والحسين ، وأوصى إلى ولده الإمام محمّد بن علي ، وكناه الباقر ، وجعل أمرهم إليه ، ولم يترك الأمّة بلا ضياء تستنير به. وكان فيما وعظه في وصيته أن قال له: يا بني إن العقل رائد الروح والعلم رائد العقل ، والعقل ترجمان العلم ، واعلم أن العلم أبقى ، واللسان أكثر هذرا . واعلم يا بني أن صلاح الدنيا بحذافيرها في كلمتين إصلاح شأن المعايش ملء مكيال ثلثاه فطنة وثلثه تغافل لأن الإنسان لا يتغافل إلا عن شئ قد عرفه ففطن له ، واعلم أن الساعات تذهب عمرك ، وأنك لا تنال نعمة إلا بفراق أخرى ، فإياك والأمل الطويل ، فكم من مؤمل أملا لا يبلغه وجامع مال لا يأكله ومانع مأسوف يتركه ، ولعله من باطل جمعه ومن حق منعه ، أصابه حراما وورثه ، احتمل إصره ، وباء بوزره ، ذلك هو الخسران المبين[٣].

ثم نظر إلى ولده محمدالباقر عليه السلام، وهو يجود بنفسه وهم مجتمعون عنده، وأمر بإخراج سفط أو صندوق عنده، فقال: يا محمد احمل هذا الصندوق، فاذهب به إلى بيتك. فحمل بين أربعة، فلما توفي جاء إخوته يدعون في الصندوق سهما، فقال لهم الإمام الباقر: والله ما لكم فيه شئ، ولو كان لكم فيه شئ ما دفعه إلي، وكان في الصندوق سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله وكتبه[٤]، أما إنه لم يكن فيه دينار ولا درهم ولكن كان مملوءا علماً[٥].

١- مناقب آل أبي طالب ص٢٠٢،٢٠١.

٢- منتهى الآمال،الشيخ عباس القمي، ج٢ ص٥٧.

٣- بحار الأنوار ج ٤٦ ص ٢٣٠

٤- للمراجعة الكافي، ج٢٤٢،١ح١. بصائر الدرجات، ٢٠٠ص١٨. بحار الأنوار، ج٤٦ ص٢٣٠ / ٤.

٥- للمراجعة الكافي، ج٢٤٢،١ح١، بصائر الدرجات ص ١٨٥ح١٣، بحار الأنوار، ج٤٦ ص٢٢٩ / ٢.

ثم سَمَتْ روح الإمام عليه السلام العظيمة إلى خالقها بعد أن أضاءت آفاق هذه الدنيا بعلومها وعباداتها وجهادها وتجرّدها من الهوى.

ولقد حق له عليه السلام أن يكلل تلك الحياة العظيمة بالطمأنينة التي ملأت وجوده الشريف عندما حضر، فأغمض عينيه حين الوفاة، وفتحهما ليقول كلمته الأخيرة، فيقرأ (الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا الأرض، نتبوأ من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين)[١] ثم قبض من ساعته[٢]. وقام الإمام أبو جعفر محمّد الباقر عليه السلام بتجهيز جثمان أبيه عليه السلام وبعد تشييع حافل لم تشهد المدينة له نظيراً، وقد ظهرت ثمرة تلك الأخلاق والجهود، وخرج الناس كلهم في يوم وفاة الإمام عليه السلام، فلم يبق رجل ولا امرأة إلا خرج لجنازته بالبكاء والعويل، وكان كاليوم الذي مات فيه رسول الله[٣]. وجيء بجثمانه الطاهر إلى بقيع الغرقد، فحفروا قبراً بجوار قبر عمّه الزكي الإمام الحسن المجتبى سيّد شباب أهل الجنة عليه السلام وريحانة رسول الله رضي الله عنهما، وأنزل الإمام الباقر عليه السلام جثمان أبيه زين العابدين عليه السلام فواراه في مقرّه الأخير.

وكانت له عليه السلام ناقة قد حج عليها اثنتين وعشرين حجة ما قرعها قرعة قط ، فلما فرغوا من دفنه، وما كانت الناقة قد رأت القبر قط، جاء بعض الموالي إلى الإمام الباقر عليه السلام فقالوا : إن الناقة قد خرجت فأتت قبر علي بن الحسين عليه السلام فانبركت عليه فدلكته بجرانها وهي ترغو، فقال لهم الإمام عليه السلام: أدركوها أدركوها! فجيئوني بها قبل أن يعلموا بها أو يروها[٤].

فسلامُ عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حيّاً.

١- القرآن الكريم، سورة الزمر، الآية ٧٤.

٢- الكافي، ج١ ص٤٦٨ و ج٣ ص١٦٥. عوالم العلوم ص٢٩٩.

٣- الإمام زين العابدين، المقرم ص٤١٢.

٤- بصائر الدرجات، الصفار، ج ٧ ب ١٥. البحار ج ٧ ص ٤١٦. وج ١٤ ص ٦٨٨.

فهرس المصادر

١- اقبال الأعمال، ابن طاووس، توفي ٦٦٤ هجرية، قم، ١٤١٩ هجرية، الطبعة الاولى.
٢- انساب الأشراف، البلاذري، توفي ٢٧٩ هجرية، مؤسسة الأعلمي بيروت.
٣- إثبات الهداة، للحر العاملي، توفي ١١٠٤ هجرية، (المطبعة العلمية، قم، إيران).
٤- إثبات الوصية، المسعودي، توفي ٣٤٥ هجرية ط النجف الأشرف ١٩٥٥.
٥- إحقاق الحق وإزهاق الباطل، المرعشي التستري، توفي ١٠١٩ هجرية، قم.
٦- إحياء علوم الدين، للغزالي، (ط دار المعرفة بيروت. ـ لبنان).
٧- إختيار معرفة الرجال، هذبه الشيخ الطوسي، توفي ٤٦٠ هجرية، (ط جامعة طهران).
٨- أخبار مكة، الأزرقي. توفي ٢٥٠ هجرية، تحقيق رشدي ملحسن دار الاندلس، بيروت.
٩- إعلام الورى بأعلام الهدى، الشيخ الطبرسي، توفي ٥٤٨ هجرية، ١٤١٧، ستارة، قم المشرفة.
١٠- أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير، توفي ٦٣٠ هجرية، دار الشعب، القاهرة.
١١- أصدق الأخبار في قصة الأخذ بالثار، السيد محسن الأمين، ١٣٧١ه، مطبعة العرفان، صيدا.
١٢- أضواء على السنة المحمدية، محمود أبو رية، توفي ١٣٨٥ه، نشر البطحاء.
١٣- أعلام الدين في صفات المؤمنين، الديلمي، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم.
١٤- أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، ١٣٧١ه، دار التعارف، بيروت.

١٥- أيام العرب في الإسلام، محمد أبو الفضل إبراهيم، سنة النشر: ١٣٨٨-١٩٦٨.
١٦- الاحتجاج، الطبرسي، مطبعة النعمان- النجف الأشرف، مكتب المصطفوي، قم.
١٧- الاختصاص، الشيخ المفيد، توفي ٤١٣ هجرية، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم.
١٨- الاستبصار، الشيخ الطوسي، ٤٦٠، ، الرابعة، ١٣٦٣ ش، خورشيد، دار الكتب الإسلامية، طهران.
١٩- الاعتقادات في دين الإمامية، الشيخ الصدوق، ٣٨١ ه، ١٤١٤ه، ١٩٩٣ م، دار المفيد، بيروت.
٢٠- الإتحاف بحب الأشراف، للشبراوي الشافعي، توفي ١٢٨٠ ه مصر سنة ١٣١٦ه.
٢١- الإرشاد، الشيخ المفيد، توفي ٤١٣ هجرية، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، بصيرتي، قم.
٢٢- الإستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، توفي ٤٦٣ هجرية، دار المعارف بمصر.
٢٣- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، توفي ٨٥٢ هجرية، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٤- الإعتصام بحبل الله المتين، الزيدي، (مطابع الجمعية، عمان، الأردن، سنة١٤٠٣هـ).
٢٥- الإفصاح، الشيخ المفيد، ٤١٣، الطبعة الثانية، ١٤١٤، ١٩٩٣ م، دار المفيد، بيروت..
٢٦- الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، للشيخ أسد حيدر (نشر دار الكتاب العربي بيروت، ١٣٩٢هـ).

٢٧- الإمامة والتبصرة من الحيرة، ابن بابويه القمي المتوفى ٣٢٩، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدسة.
٢٨- الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، توفي ٢٧٦ هجرية ط مصر سنة ١٣٨٨هـ.
٢٩- الإنتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، ابن عبد البر، توفي ٤٦٣ هـ، بيروت، دار الكتب العلمية.
٣٠- أوائل المقالات، الشيخ المفيد، ٤١٣، ١٤١٤ ١٩٩٣ م، دار المفيد، بيروت.
٣١- الإيضاح، ابن شاذان الأزدي النيسابوري (مؤسسة انتشارات دانشكاه، طهران ١٣٩٢هـ).
٣٢- الأحكام السلطانية، الماوردي، توفي ٤٥٠ هـ، ط دار الكتب العلمية بيروت.
٣٣- الأخبار الطوال، الدينوري، توفي ٢٨٢ هجرية، منشورات الشريف الرضي، قم.
٣٤- الأعلام، الزركلي، توفي ١٤١٠ هجرية، دار العلم للملايين، بيروت.
٣٥- الأغاني، الأصفهاني، توفي ٣٦٥ هجرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٦- الأمالي، الشيخ الصدوق توفي٣٨١هجرية، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت.
٣٧- الأمالي، الشيخ الطوسي، توفي ٤٦٠هجرية، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، إيران.
٣٨- الأمالي، الشيخ المفيد، ٤١٣ هـ، دار المفيد، بيروت لبنان.
٣٩- الأنساب، السمعاني،، ٥٦٢هـ، دار الجنان، بيروت.
٤٠- البدء والتاريخ، المنسوب للبلخي، وهو للقادري، توفي بعد ٣٥٥هجرية، ط سنة ١٩٨٨م.

٤١- بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، عبد العزيز الدوري، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
٤٢- بحار الأنوار، الشيخ المجلسي، توفي ١١١١هجرية، مؤسسة الوفاء، بيروت.
٤٣- بداية المجتهد، ابن رشد الحفيد، ٥٩٥هـ، دار الفكر، بيروت، لبنان.
٤٤- البرهان في تفسير القرآن للسيّد هاشم البحراني، مؤسسة إسماعيليان قم.
٤٥- بصائر الدرجات، الصفّار القمّي، توفي ٢٩٠ هجرية، مكتبة المرعشي، قم.
٤٦- بلاغات النساء، ابن طيفور، ٣٨٠ هـ، مكتبة بصيرتي. قم المقدسة.
٤٧- تاريخ خليفة بن خياط، خليفة بن خياط، ٢٤٠، دار الفكر، بيروت.
٤٨- التاج الجامع للأصول، للشيخ منصور علي ناصف دار إحياء التراث العربي-بيروت.
٤٩- التاريخ العباسي السياسي والحضاري، د. إبراهيم أيوب.
٥٠- التمهيد، ابن عبد البر، توفي ٤٦٣، المغرب، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية.
٥١- التنبيه والإشراف، المسعودي، توفي ٣٤٥ هجرية، مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨١.
٥٢- التوحيد، الشيخ الصدوق، ٣٨١، منشورات الحوزة العلمية في قم المقدسة.
٥٣- تاج المواليد(المجموعة)، الشيخ الطبرسي، توفي ٥٤٨ هجرية، مكتبة المرعشي قم.
٥٤- تاريخ الإسلام، الذهبي، توفي ٧٤٨هجرية، بيروت، دار الكتاب العربي.

٥٥- تاريخ الأدب العربي، د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت.
٥٦- تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، الطبري، توفي ٣١٠ هجرية، الأعلمي، بيروت.
٥٧- تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان، توفي ١٣٣٢ هـ، (دار مكتبة الحياة، بيروت).
٥٨- تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، توفي ٩١١ هجرية، مكتبة السعادة بمصر.
٥٩- تاريخ الخميس، الدياربكري المالكي، توفي ٩٦٦ هجرية ، دار صادر، بيروت.
٦٠- تاريخ العرب، د. فيليب حتي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩١م.
٦١- تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، محمّد عليّ أبو ريان، ط الإسكندرية، ١٩٧٤ م.
٦٢- تاريخ الكوفة، السيد البراقي، توفي ١٣٣٢، شريعت، انتشارات المكتبة الحيدرية.
٦٣- تاريخ المذاهب الإسلامية، لمحمد أبي زهرة، توفي ١٩٧٤م، دار الفكر العربي، بيروت.
٦٤- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي.
٦٥- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، توفي٤٦٣ هجرية، دار الكتب العلمية، بيروت.
٦٦- تاريخ قم، الاشعري القمي، توفي بعد ٣٧٩ هجرية، طهران.
٦٧- تاريخ كربلاء وحائر الحسين ، د, عبد الجواد الطعمة، توفي ١٣٧٩ هجرية،

٦٨- تاريخ مختصر الدول، ابن العبري توفي٦٨٥ هـ المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
٦٩- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، توفي ٥٧١ ه، دار الفكر بيروت.
٧٠- تأريخ التشريع الإسلامي، للشيخ عبد الهادي الفضلي، دار الصفوة، بيروت ط ١، ١٩٩٣م.
٧١- تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، للسيد حسن الصدر، (منشورات الأعلمي، طهران، إيران).
٧٢- تجارب الأمم وتعاقب الهمم، لابن مسكويه، توفي ٤٢١ هجرية، ط دار سروش، طهران.
٧٣- تحف العقول، ابن شعبة الحرّاني، القرن الرابع، مؤسسة الأعلمي، بيروت.
٧٤- التحفة اللطيفة، السخاوي، المتوفى: ٩٠٢هـ، دار الكتب العلميه، بيروت
٧٥- تدوين السنة الشريفة، السيد محمد رضا الجلالي، مكتب الإعلام الإسلامي.
٧٦- تذكرة الحفّاظ، الذهبي، توفي ٧٤٨هجرية، الطبعة الثالثة ١٩٥٥م.
٧٧- تذكرة الخواص، سبط ابن الجوزي، توفي ٦٥٤ هجرية، مؤسسة أهل البيت، بيروت.
٧٨- التذكرة الحمدونية، البغدادي، متوفي ٥٦٢هـ معهد الانماء العربي، بيروت ١٩٨٣ م.
٧٩- تسلية المجالس، الكركي، القرن العاشر، مؤسسة المعارف الاسلامية، قم .
٨٠- تسمية من قتل مع الحسين، مجلة تراثنا (العدد الثاني)
٨١- تصحيح اعتقادات الإمامية، الشيخ المفيد، ٤١٣، دار المفيد، بيروت.

٨٢- تفسير الحبري. ابو عبد الله الحبري، مؤسسة آل البيت لاحياء التراث, ١٩٨٧
٨٣- تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي، توفي٣٢٠ ه، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.
٨٤- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، توفي ٧٧٤هجرية، دار المعرفة، بيروت.
٨٥- تفسير القرطبي، القرطبي،٦٧١ ه، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٨٦- تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، ٣٠٧ هجرية، مؤسسة دار الكتاب، قم.
٨٧- تفسير الميزان، السيد الطباطبائي، ١٤١٢، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم
٨٨- تفسير فرات الكوفي، فرات الكوفي، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، قم.
٨٩- تلبيس إبليس، ابن محمد الجوزي، توفي ٥٩٧ ه، دار الكتاب العربي، بيروت.
٩٠- تلخيص الشافي، للشيخ الطوسي، مؤسسة إنتشار المحبين، قم.
٩١- تنقيح المقال في علم الرجال، المامقاني، توفي ١٣٥١هجرية، المكتبة الرضوية، النجف.
٩٢- تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، توفي ٤٦٠ ه، خورشيد، طهران.
٩٣- تهذيب الأسماء واللغات، النووي، إدارة الطباعة المنيرية بمصر.
٩٤- تهذيب التهذيب، ابن حجر، توفي ٨٥٢ هجرية، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت.
٩٥- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المزي، توفي ٧٤٢ هجرية، بيروت.
٩٦- تهذيب تأريخ دمشق، بدران، توفي ١٣٤٦ هـ. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
٩٧- المحدث الفاصل، للرامهرمزي، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ.
٩٨- تيسير المطالب، لأبي طالب، الزيدي، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٣٩٥هـ.

٩٩- الثاقب في المناقب، ابن حمزة الطوسي، ٥٦٠، الصدر، قم، مؤسسة أنصاريان.
١٠٠- الثقات، ابن حبان، توفي ٣٥٤ هجرية، دائرة المعارف العثمانية، بحيدر آباد الدكن الهند.
١٠١- ثمار القلوب، الثعالبي النبيسابوري، دار المعارف، سنة النشر: ١٩٨٥
١٠٢- ثواب الأعمال، الشيخ الصدوق، ٣٨١ ه، أمير، قم.
١٠٣- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. الخطيب البغدادي، ٤٦٣، بيروت، مؤسسة الرسالة.
١٠٤- جامع أحاديث الشيعة، السيد البروجردي، توفي١٣٨٣، ١٣٩٩، المطبعة العلمية – قم.
١٠٥- جامع الرواة، محمد علي الأردبيلي، ١١٠١ه، مكتبة المحمدي.
١٠٦- جامع بيان العلم، النمري، توفي ٤٦٣ ه ، ط ودار الكتب العلمية، بيروت.
١٠٧- جمهرة أنساب العرب، لابن حزم الأندلسي، توفي٤٥٦ هجرية، دار المعارف-مصر
١٠٨- جهاد الإمام السجّاد، محمد رضا الحسيني الجلالي، دار الحديث.
١٠٩- جهاد الشيعة، الدكتورة سميرة مختار الليثي، الطبعة المصرية.
١١٠- جواهر المطالب، ابن الدمشقي، توفي ٨٧١ ه، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، قم.
١١١- الجوهرة، البري، ق ٧، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
١١٢- حقائق الإيمان، الشهيد الثاني ٩٦٦ه، مكتبة المرعشي، قم.
١١٣- حقائق التأويل، الشريف الرضي، ٤٠٦ ه، دار المهاجر، بيروت.
١١٤- حلية الأولياء، أبي نعيم الإصبهاني، توفي ٤٣٠ ه، دار الكتاب العربي بيروت.

١١٥- حياة الحيوان الكبرى، الدميري، ٧٧٣ هـ، المكتبة الشرقية، القاهرة.
١١٦- الخراج، لأبي يوسف القاضي، توفي ١٨٢ هـ، المطبعة السلفية ـ القاهرة.
١١٧- الخرائج والجرائح، الراوندي، توفي ٥٧٣هـ، مؤسسة الإمام المهدي، قم.
١١٨- الخصال، الشيخ الصدوق، توفي ٣٨١هـ، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
١١٩- الخصال، الترمذي، توفي ٢٧٩ هـ، دار الفكر، بيروت.
١٢٠- خلاصة الأقوال، العلامة الحلّي، توفي ٧٣٦ هـ، مؤسسة النشر الإسلامي.
١٢١- دائرة المعارف الإسلامية، لعبد العزيز الجواهري، دار المعرفة، بيروت.
١٢٢- دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ٣٦٣ هـ، دار المعارف، القاهرة.
١٢٣- دفاع عن السنة المحمدية، الدكتور الشيخ محمد أبو شهبة. الأزهر الشريف.
١٢٤- دلائل الإمامة، الطبري، القرن الخامس الهجري، مؤسسة البعثة، قم.
١٢٥- دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، دار المعرفة، بيروت.
١٢٦- دلائل النبوة، للبيهقي، دار الكتب العلمية .
١٢٧- ديوان يزيد بن معاوية، واضح الصمد، دار صادر، بيروت.
١٢٨- ذوب النضار في شرح الثار، ابن نما الحلي، مؤسسة النشر الإسلامي.
١٢٩- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، الزمخشري، مطبعة العاني ـ بغداد.
١٣٠- رجال ابن الغضائري، أحمد بن الحسين الغضائري، ق ٥ دار الحديث، قم.
١٣١- رجال ابن داود، ابن داوود الحلي، توفي ٧٤٠ هـ، مطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.
١٣٢- رجال الطوسي، الشيخ الطوسي، ٤٦٠، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
١٣٣- رجال النجاشي، النجاشي، ٤٥٠ ، مؤسسة النشر الإسلامي قم.
١٣٤- رسائل في الغيبة، الشيخ المفيد، توفي ٤١٣ هجرية.
١٣٥- المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي الهمداني، توفي ٤١٥ هـ، القاهرة ١٩٦٦.

١٣٦- روضة الواعظين، الفتال النيسابوري، توفي ٥٠٨ هـ، الشريف الرضي، قم.
١٣٧- الرسائل، الجاحظ، توفي ٢٥٥ هجرية، (المكتبة الشاملة الالكترونية).
١٣٨- الروضة من الكافي، الكليني توفي ٣٢٩ هـ، دار الكتب الإسلامية، طهران.
١٣٩- رجل وإمبراطوريتان، العميد الركن نزار البو سعيد.
١٤٠- سبائك الذهب، البغدادي السويدي، توفي ١٢٤٦ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٤١- سرح العيون، ابن نباتة المصري، دار الفكر العربي، مطبعة المدني.
١٤٢- سنن ابن ماجة، القزويني، توفي ٢٧٣ هـ، دار الفكر.
١٤٣- سنن الترمذي، الترمذي، توفي ٢٧٩ هجرية، دار الفكر- بيروت.
١٤٤- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، توفي ٢٧٥ هجري، دار إحياء السنة النبوية.
١٤٥- سير أعلام النبلاء، الذهبي، توفي ٧٤٨هجرية، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٤٦- سيرتنا وسنتنا، الشيخ الأميني، ١٣٩٢هـ، دار الكتاب الإسلامي، بيروت.
١٤٧- السرائر، ابن إدريس الحلي، توفي ٥٩٨ هجرية، مؤسسة النشر الإسلامي. قم .
١٤٨- السنن الكبرى، البيهقي، ٤٥٨، دار الفكر، بيروت، لبنان.
١٤٩- السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات، لفان فلوتن، مصر.
١٥٠- السيرة الحلبية، الحلبي الشافعي،١٠٤٤، المطبعة الأزهرية المصرية.
١٥١- الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، توفي٢٧٦ هجرية، ط دار صادر، بيروت.
١٥٢- شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، توفي ١٠٨٩ هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٥٣- شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي، توفي ٣٦٣ هـ، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
١٥٤- شرح المقاصد، التفتازاني، ٧٩١هـ، باكستان، دار المعارف النعمانية.
١٥٥- شرح تكملة رسالة أبي غالب الزراري في آل أعين، الغضائري، ٤١١هـ، مطبعة رباني.
١٥٦- شرح رسالة الحقوق الإمام زين العابدين عليه السلام، استشهد ٩٤ هـ، قم، إسماعيليان.
١٥٧- شرح موطأ مالك، الزرقاني المصري، مصطفى البابي الحلبي .
١٥٨- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، توفي ٦٥٦ هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٥٩- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الفاسي دار إحياء الكتب العربية ـ مصر.
١٦٠- شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني، مؤسسة الأعلمي، بيروت.
١٦١- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القلقشندي، توفي ٨١٢ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٦٢- صحيح البخاري، البخاري،، ٢٥٦هـ، دار الفكر، عن طبعة دار الطباعة العامرة بإستانبول.
١٦٣- صحيح مسلم، مسلم النيسابوري،، ٢٦١هـ، دار الفكر، بيروت.
١٦٤- صفوة الصفوة، ابن الجوزي ٥٩٧ هـ دار المعرفة – بيروت.
١٦٥- الصحاح في اللغة الشريفة العربية، الجوهري، توفي ٣٩٣ هـ، دار العلم للملايين، بيروت.
١٦٦- الصحيفة السجادية، (ابطحي)، الإمام زين العابدين عليه السلام، نمونه، قم.
١٦٧- الصحيفة السجادية الكاملة، الإمام زين العابدين عليه السلام، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.

١٦٨- الصواعق المحرقة، ابن حجر، توفي٩٧٤ ه المكتبة الميمنية بمصر.
١٦٩- ضحى الإسلام، لأحمد أمين المصري، ١٩٣٣ م، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٧٠- طبقات الشعراء، دار المعارف بمصر، ابن المعتز، توفي ٢٩٣ ه، دار الهلال، بيروت.
١٧١- طبقات المدلسين، ابن حجر، ٨٥٢ه، الأردن، عمان، مكتبة المنار.
١٧٢- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، توفي ٢٣٠ هجرية، دار صادر، بيروت.
١٧٣- الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ابن طاووس، ٦٦٤، الخيام، قم.
١٧٤- العبر في خبر من عبر، الذهبي، توفي ٧٤٨ه، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٧٥- العدد القوية، علي بن يوسف الحلي، ت ٧٠٥ ه، سيد الشهداء عليه السلام، مكتبة المرعشي.
١٧٦- العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر.
١٧٧- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، دار الشرفية بمصر .
١٧٨- العلم الشامخ، صالح المقبلي اليمني، المتوفي ١١٠٨ ه، مصر، مكتبة دار البيان.
١٧٩- العمدة، ابن رشيق القيرواني، توفي ٤٥٦ ه. دار الجيل، بيروت.
١٨٠- العوالم، عبد الله البحراني، القرن الثاني عشر، مدرسة الإمام المهدي، قم.
١٨١- عقد الدرر، المقدسي، توفي ٦٥٨ هجرية، مكتبة عالم الفكر، القاهرة.
١٨٢- علل الشرائع، الشيخ الصدوق، توفي ٣٨١ ه، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٨٣- عمدة الطالب، ابن عنبة، توفي ٨٢٨ هـ، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.
١٨٤- عيون الأخبار، ابن قتيبة، توفي ٢٧٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٨٥- عيون المعجزات، حسين بن عبد الوهاب، ق ٥، الحيدرية، النجف.
١٨٦- عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، توفي ٣٨١ هـ، مكتبة طوس، قم.
١٨٧- الغدير، للعلامة الأميني، توفي١٣٩٢ هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٨٨- الغيبة، الشيخ الطوسي، توفي ٤٦٠ هـ، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم.
١٨٩- الغارات، الثقفي الكوفي، مطبعة الحيدري،إيران.
١٩٠- الفهرست، الشيخ الطوسي، ٤٦٠ هـ، جواد القيومي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
١٩١- الفتوح، ابن أعثم الكوفي، توفي ٣١٤ هـ، دار الأضواء، بيروت.
١٩٢- الفخري في الآداب السلطانية، ابن الطقطقي، توفي ٧٠٩ هـ (المكتبة الشاملة الالكترونية).
١٩٣- الفرق بين الفرق، التميمي البغدادي، توفي ٤٢٩ هـ، دار المعرفة ـ بيروت.
١٩٤- الفصول المختارة، الشيخ المفيد، توفي ٤١٣ هـ، دار المفيد، بيروت.
١٩٥- الفصول المهمة، ابن الصباغ المالكي، توفي ٨٥٥ هـ المكتبة الحيدرية ـالنجف.
١٩٦- الفوائد الرجالية، السيد بحر العلوم، ١٢١٢هـ، آفتاب، مكتبة الصادق، طهران.
١٩٧- فتوح البلدان، البلاذري، توفي ٢٧٩ هـ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
١٩٨- فجر الإسلام لأحمد أمين المصري، بيروت، لبنان.
١٩٩- فرائد السمطين، الجويني دار النعمان، النجف.
٢٠٠- فرج المهموم، ابن طاووس، ٦٦٤ هـ، منشورات الرضي، قم.

٢٠١- فرحة الغري، ابن طاووس، ٦٦٤ هـ، مركز الغدير للدراسات الإسلامية.
٢٠٢- فرق الشيعة، النوبختي، القرن الثالث الهجري، دار الاضواء، بيروت.
٢٠٣- الفصل في الملل والنحل، لابن حزم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر.
٢٠٤- فضل الكوفة ومساجدها، المشهدي الحائري، دار المرتضى ـ بيروت.
٢٠٥- فضل زيارة الحسين عليه السلام، الشجري، توفي ٤٤٥هـ، الخيام، قم.
٢٠٦- فلاح السائل، السيد ابن طاووس، توفي ٦٦٤ هجرية.
٢٠٧- فهرست ابن النديم، ابن النديم البغدادي، ٤٣٨هـ، دار المعرفة، لبنان.
٢٠٨- قرب الاسناد، الحميري القمي، توفي ٣٠٠ هـ، مهر، قم.
٢٠٩- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، توفي٨١٧ هـ، عالم الكتب، بيروت.
٢١٠- الكافي، الكليني، توفي ٣٢٩ هـ، دار الكتب الإسلامية، طهران.
٢١١- الكامل في التأريخ، ابن الأثير، توفي ٦٣٠ هـ، دار صادر، بيروت.
٢١٢- الكامل في اللغة والأدب، المبرد، توفي ٢٨٥ هـ، مكتبة المعارف، بيروت.
٢١٣- الكامل في ضعفاء الرجال، الجرجاني، توفي ٣٦٥ هـ، دار الفكر ـ بيروت.
٢١٤- الكشكول فيما جرى على آل الرسول، السيد حيدر الآملي المعروف بالصوفي.
٢١٥- الكنى والألقاب، الشيخ عباس القمي، ١٣٥٩هـ، مكتبة الصدر، طهران.
٢١٦- الكواكب الدرية، المناوي الحدادي المصري. دار صادر، بيروت.
٢١٧- الكيسانيّة في التاريخ والأدب، وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت.
٢١٨- كامل الزيارات، محمد بن قولويه، توفي٣٦٧هـ، المكتبة المرتضوية، النجف.
٢١٩- كتاب الأصنام، الكلبي، توفي ٢٠٤ هـ، مطبعة كتيبة ـ إيران.
٢٢٠- كتاب الغيبة، النعماني، ٣٨٠هـ، مهر، قم، أنوار الهدى.
٢٢١- كشف الغمة، الأربلي، توفي ٦٩٢ هـ، دار الكتاب الإسلامي، حلب.
٢٢٢- كفاية الأثر، القمّي الرازي، القرن الرابع الهجري، انتشارات بيدار، قم.

٢٢٣- كفاية الطالب، الكنجي الشافعي، توفي ٦٥٨ هـ، المطبعة الحيدرية، النجف.
٢٢٤- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، ٣٨١هـ، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
٢٢٥- كنز العمال، المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
٢٢٦- كنز الفوائد، أبو الفتح الكراجكي، توفي ٤٤٩هـ، مكتبة المصطفوي، قم.
٢٢٧- كتاب السنة، ابن أبي عاصم الضحاك، توفي٢٨٧ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.
٢٢٨- لباب الأنساب، البيهقي، (ابن فندق)، توفي ٥٦٥ هـ، مكتبة المرعشي.
٢٢٩- لسان العرب، ابن منظور، توفي ٧١١ هـ، نشر أدب الحوزة، قم.
٢٣٠- لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، توفي ٨٥٢ هـ، الأعلمي، بيروت.
٢٣١- لواعج الأشجان، للسيد محسن الأمين، بصيرتي، قم.
٢٣٢- اللهوف في قتلى الطفوف، ابن طاووس، توفي ٦٦٤ هـ، دار الأسوة، قم.
٢٣٣- مقتل أمير المؤمنين عليه السلام لابن أبي الدنيا، توفي ٢٨١ هـ مجلة تراثنا، قم، إيران.
٢٣٤- المجدي في أنساب الطالبيين، العلوي، توفي ٧٠٩ هـ، مكتبة المرعشي، قم.
٢٣٥- المحاسن، البرقي، توفي ٢٧٤ هـ، دار الكتب الإسلامية، طهران.
٢٣٦- المحاسن والمساوئ، البيهقي، بيروت ، دار الكتب العلميّة.
٢٣٧- المحجة البيضاء، للمولى محسن الكاشاني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
٢٣٨- المختصر، أبي الفداء، توفي ٧٤٢ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٣٩- المستدرك على الصحيحين، النيسابوري، توفي ٤٠٥ هـ الهند ١٣٤٢هـ.
٢٤٠- مصباح المتهجد، الطوسي، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت.
٢٤١- المصباح، الكفعمي، توفي ٩٠٥ هـ، مؤسسة الأعلمي، بيروت.
٢٤٢- المصنّف، ابن أبي شيبة الكوفي، توفي ٢٣٥ هـ، الدار السلفية، بومباي، الهند.

٢٤٣- المعارف، ابن قتيبة الدينوري، توفي٢٧٦ هـ، القاهرة، دار المعارف.
٢٤٤- المعجم الكبير، الطبراني، توفي ٣٦٠ هـ، مطبعة الأمة في بغداد.
٢٤٥- المغازي، الواقدي، توفي ٢٠٧هـ، نشر عالم الكتب، بيروت.
٢٤٦- المغني، للقاضي الهمداني الأسدآبادي، توفي ٤١٥ هـ، القاهرة.
٢٤٧- المقالات والفرق، الأشعري، توفي ٢٩٩، ٣٠١ هـ، قم.
٢٤٨- المقنعة، للشيخ المفيد، مؤسسة النشر الإسلامي .
٢٤٩- الملل والنحل، الشهرستاني، توفي٥٤٨هـ، مصطفى البابي الحلبي-مصر.
٢٥٠- المنتخب من ذيل المذيل، الطبري الآملي، الأعلمي، بيروت.
٢٥١- المنتظم، ابن محمد الجوزي، توفي ٥٩٧ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٥٢- المنية والأمل، مهدى اليمنى، المتوفى ٨٤٠، دار صادر، بيروت.
٢٥٣- مآثر الإنافة، القلقشندي، توفي٨٢١ هـ، مطبعة حكومة الكويت.
٢٥٤- مثير الأحزان، ابن نما الحلّي، توفي ٦٤٥ هـ، مدرسة الإمام المهدي، قم.
٢٥٥- مجالس ثعلب. ثعلب. القاهرة ١٩٤٨.
٢٥٦- مجمع البحرين، الشيخ الطريحي، توفي ١٠٨٥ هـ، المكتبة المرتضوية، طهران.
٢٥٧- مجمع الزوائد، الهيثمي توفي ٨٠٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٥٨- مختصر بصائر الدرجات، الحلي، القرن الثامن الهجري، المطبعة الحيدرية، النجف.
٢٥٩- مختصر تاريخ مدينة دمشق، ابن منظور، توفي ٧١١هـ، دار الفكر، دمشق.
٢٦٠- مرآة الجنان، اليافعي، توفي ٧٦٨ هـ، دار المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن.
٢٦١- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، توفي ٣٤٦ هـ، دار المعرفة، بيروت.

٢٦٢- مسائل الإمامة، الأنباري، توفي ٢٣٩ هـ، بيروت ١٩٧١م.
٢٦٣- مستدرك الوسائل، الطبرسي، توفي ١٣٢٠هـ، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم.
٢٦٤- مستدرك سفينة البحار، الشاهرودي، توفي ١٤٠٥هـ، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
٢٦٥- مستدركات علم رجال الحديث، الشاهرودي، توفي ١٤٠٥ هـ، المطبعة الحيدرية، طهران.
٢٦٦- مسند الإمام الكاظم، الخبوشاني، دار الصفوة، بيروت .
٢٦٧- مسند الرضا، رواية داود الغازي، مكتب الإعلام الإسلامي، قم.
٢٦٨- مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، توفي ٢٤١، دار الفكر، بيروت.
٢٦٩- مشارق أنوار اليقين، رجب البرسي، توفي ٨١٣ هـ، الأعلمي، بيروت.
٢٧٠- مصابيح السنة، البغوي، توفي ٥١٦ هـ، دار المعرفة، بيروت.
٢٧١- مطالب السؤول، محمد الشافعي، توفي ٦٥٢ هـ، ماجد ابن أحمد العطية.
٢٧٢- معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، توفي ٣٨١ هـ، منشورات جماعة المدرسين، قم.
٢٧٣- معتزلة اليمن، علي محمد زيد، دار العودة، بيروت ١٤٠٥ هـ،
٢٧٤- معجم البلدان، ياقوت الحموي الرومي البغدادي، توفي ٦٢٦ هـ، دار صادر، بيروت.
٢٧٥- معجم رجال الحديث، السيد الخوئي، مدينة العلم، العظمى السيد الخوئي.
٢٧٦- معرفة علوم الحديث، للحافظ النيسابوري، توفي ٤٠٥ هـ، دار الآفاق الحديث، بيروت.
٢٧٧- مقاتل الطالبيين، الأصفهاني، توفي ٣٥٦ هـ، المكتبة الحيدرية، النجف.

٢٧٨- مقالات الإسلاميين، الأشعري، توفي ٣٢٤ هجرية، بيروت، المكتبة الشاملة.

٢٧٩- مقتل الحسين عليه السلام، للسيد عبد الرزاق المقرّم، الآداب، النجف .

٢٨٠- مقتل الحسين عليه السلام، للوط بن يحيى بن مخنف الأزدي، المطبعة العلمية ـ قم.

٢٨١- مقتل الحسين عليه السلام، الخوارزمي، توفي ٥٦٨ه، مطبعة الزهراء، النجف.

٢٨٢- الصحيفة السجادية الكاملة، المقدمة، الشهيد الصدر، دار الأعلمي، بيروت.

٢٨٣- من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، ٣٨١ ه، مؤسسة النشر الإسلامي قم.

٢٨٤- مناقب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الكوفي مجمع إحياء الثقافة الإسلامية ـ قم.

٢٨٥- مناقب آل أبي طالب، ابن شهرآشوب، توفي ٥٨٨ ه، المطبعة العلمية، قم.

٢٨٦- منتهى الآمال، الشيخ عباس القمي، توفي ١٣٥٩ ه، مؤسسة النشر الإسلامي. قم .

٢٨٧- منهاج البراعة؛ الراوندي، توفي ٥٧٣ه، مكتبة آية الله المرعشي قم..

٢٨٨- مهج الدعوات، ابن طاووس، توفي ٦٦٤ ه، إيران، تبريز.

٢٨٩- ميزان الاعتدال، الذهبي، توفي ٧٤٨ ه، دار المعرفة، بيروت.

٢٩٠- ميزان الحكمة، محمد الريشهري، دار الحديث، الطبعة الأولى.

٢٩١- نثر الدر، الآبي، توفي ٤٢١ ه، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

٢٩٢- نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، الحلواني، ق ٥، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، قم.

٢٩٣- نقد الرجال، التفرشي، القرن١١، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ستارة، قم.

٢٩٤- نهاية الإرب في فنون الأدب، النويري، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٢٩٥- نور الأبصار، الشبلنجي، توفي ١٢٩٠ ه دار الفكر، بيروت.
٢٩٦- نيل الأوطار، الشوكاني، ١٢٥٥ه، دار الجيل، بيروت.
٢٩٧- النجوم الزاهرة، يوسف الأتابكي، توفي ٨٧٤ ه وزارة الثقافة والإرشاد، مصر.
٢٩٨- النزاع والتخاصم، المقريزي، توفي ٨٤٥ه، مؤسسة أهل البيت، بيروت.
٢٩٩- نسب قريش، مصعب الزبيري، توفي ٢٣٦ ه دار المعارف. مصر.
٣٠٠- الهداية الكبرى، الخصيبي، توفي٣٣٤ ه، مؤسسة البلاغ، بيروت.
٣٠١- الوافي بالوفيات، الصفدي، ٧٦٤ ه، ١٤٢٠ ه، بيروت، دار إحياء التراث.
٣٠٢- الوزراء والكتاب، الجهشياري، توفي٣٣١ هـ، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.
٣٠٣- وسائل الشيعة، الحر العاملي، توفي١١٠٤ ه، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٠٤- وسائل الشيعة، الحر العاملي، توفي١١٠٤ ه، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.
٣٠٥- وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٦٨١، دار صادر، بيروت.
٣٠٦- وقعة صفين، المنقري، المتوفى ٢١٢ ه، المؤسسة العربية الحديثة.
٣٠٧- ينابيع المودة، للقندوزي الحنفي، توفي ١٢٩٤ ه، إسلامبول، تركيا.

الفهرس

المقدمة ٤
الإمام زين العابدين عليه السلام جريء ومقاتل ١٤
في مواجهة يزيد. ١٦
الفصل الأول ٢٧
السمات العامة للطور الأول من المرحلة الثانية من عمل أئمة أهل البيت عليهم السلام ٢٧
أولاً نقل الخلافة إلى القيصرية والكسروية ٢٧
ثانياً إنتشار الخوف بين الناس ٢٨
سبّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ٢٩
ثالثاً إنفجار النزاع بين يزيد بن معاوية وابن الزّبير ٣٠
استراتيجية جديدة لأئمة أهل البيت ٣١
المحور الأول ٥٣
بناء أس الإمامة ٥٣
التكتم على الإمام الجديد في كل مرحلة إنتقالية ٦١
الطرق التي اعتمدها أئمة أهل البيت لإثبات الإمامة ٦٢
في مواجهة ابن الحنفية ٦٩
ألمحور الثاني ٧٣
بناء الكتلة الشيعية ٧٣
الدائرة ألأولى لعمل الإمام زين العابدين عليه السلام ٧٣
الدائرة الثانية لعمل الإمام زين العابدين عليه السلام ٨١
أولاً مقام الخطاب ٨٦
رسالة الحقوق ١٠٤
ثانياً مقام العمل ١٠٧

١ – الزهد ١٠٩
٢-العبادة ١١٧
٣ – الحب والعطف والمودة ١٢٤
١- الدعاء ١٢٧
الدعاء أول وأخطر ركن في بناء الكتلة الشيعية ١٢٨
ركائز الدعاء في ثقافة الكتلة الشيعية ١٣٣
الركيزة الثالثة شروط الدعاء، وآدابه، وأبعاده المعنوية! ١٣٦
الركيزة الرابعة تحقق وظهور نفس مادة ونص الدعاء!..... ١٤٧
الصحيفة السجادية ١٤٩
وتقسم الصحيفة إلى أجزاء ١٥٠
المستجاب الدعاء ١٦٦
٢- البكاء على سيّد الشهداء عليه السلام ١٦٧
٤- مقاومة العصبية والعنصرية ١٧٢
٥- الإنفاق ١٨٧
٦ – إحياء القرآن والسنة..... ١٩١
ألإمام يخوض معركة التأويل ١٩٥
التربية والتعليم ١٩٨
مواجهة ظاهرة الغلو عند الشيعة ٢٠٢
الفصل الثالث ٢٠٥
نخر بدن الدولة الجائرة. ٢٠٥
في مواجهة الدولة الأموية..... ٢٠٥
إسقاط القناع الديني للنظام الجائر..... ٢٢٣
طرح العقيدة الإسلامية الصحيحة ٢٢٤

مواجهة وعاظ السلطان ٢٣٤
رسالة الامام السجاد عليه السلام للزهري..... ٢٤٠
صيانة الشريعة والأحكام. ٢٤٣
شهادة الإمام علي بن الحسين(زين العابدين) عليه السلام ٢٤٨
فهرس المصادر ٢٥٣